فكر علمي ... ثقافة تقدمية

الثقافة الجديدة

417-416

تشرين الثاني 2020

ندوة الثقافية الجديدة بمناسبة الذكرى السنوية الأولى لانتفاضة تشرين 2019

مقالات

حسين كركوش

هيام علي المرهج

صالح ياسر

حيدر عبدالامير الغريباوي

مصطفى فحص

سلام عادل الكيم

ملف الفنان

صلاح جياد المسعودي

نصوص قديمة

انتفاضة اذار 1991... هذا النجاح المؤجل

الانتفاضة الكبرى في السليمانية

حوارات

(الثقافة الجديدة)

تحاور الرفيق رائد فهمي

نصوص مترجمة

ساندرا ديلغادو و ميشيل كيترو

ادب وفـــن

حسب الله يحيى

قاسم حسين صالح

احمد الناجي

جواد الزيدي

ستار كاووش

سعد جاسم

طالب حسن

سالم محسن

ناجح المعموري

محمد حياوي

جودت هوشيار

خضير اللامي

أطياف رشيد

أ.بدران

الثقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية
تأسست عام 1953

رئيس التحرير: د.صالح ياسر
محرر "أدب وفن": حسب الله يحيى

المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها

العدد: 416 - 417
تشرين الثاني: 2020

يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي:
Culture1944@yahoo.com

السعر داخل العراق: 2000 دينار للنسخة الواحدة
الاشتراك السنوي خارج العراق: للأفراد (50) دولاراً أو ما يعادلها، وللمؤسسات (100) دولار، أو ما يعادلها.
يحول المبلغ نقدا على الحساب الآتي:

بالدينار:	بالدولار:
مجلة الثقافة الجديدة	Althakafa Aljadida Magazine
مصرف المنصور للاستثمار – بغداد	Mansour Bank for Investment- Baghdad
رقم الحساب: 11153	Account No:30721
سويفت كود: MBIVIQBA	SWIFT CODE: MBIVIQBA

ايميل رئيس هيئة التحرير:
thakafajadida@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير:
thakafajadida4u@gmail.com

عنوان الموقع على شبكة الانترنت:
http://www.althakafaaljadeda.com
عنوان المجلة: بغداد – ساحة الاندلس.
والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.
رقم الايداع: 781
رقم الاعتماد: 1288

ترجو هيئة التحرير من المساهمين في الكتابة الى المجلة مراعاة ما يأتي في ما يرسلون للنشر:
* أن تكون المقالة او الدراسة او الشعر ... الخ مستوفية شروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
* ألا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة.
* ان تكون المادة معدة أصلاً للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن أخرى او على صفحات المواقع الالكترونية.
* يفضل ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج وارتباطاً بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير في ما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو أن ترسل مع المقال أو الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود 50 كلمة إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال أو الدراسة.
* لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة إعلام صاحبها بذلك.
* بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الإلكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
* للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.
* يجوز للباحث اعادة نشر بحثه المنشور في المجلة شريطة أن يشير الى المصدر عند اعادة النشر.

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5- كلمة العدد

ندوة الثقافة الجديدة بمناسبة الذكرى السنوية الأولى لانتفاضة تشرين 2019

شارك فيها :زهير الجزائري، فارس حرَام، بشرى أبو العيس، هناء أدور، فارس كمال نظمي، حيدر سعيد، علي طاهر الحمود، قاسم حنون، جاسم الحلفي.

مقالات

38- انتفاضة تشرين وقتل الأب ..... حسين كركوش
43- التحول الخطابي بعد انتفاضة تشرين ..... هيام علي المرهج
52- انتفاضة اكتوبر 2019 في سنويتها الاولى – مهرُ النصر غالٍ ..... صالح ياسر
63- انتفاضة تشرين الوطنية والواقع الاقتصادي ..... حيدر عبدالاميرالغريباوي
72- تشرين لبنان وتشرين العراق ..... مصطفى فحص
74- الثورات بين العوامل والأدوات ..... سلام عادل الكيم

ملف الفنان صلاح جياد المسعودي

80- الفنان المذهل صلاح جياد المسعودي ..... وليد شيت طه
84- بين اضواء باريس.. وأوجاع المنفى ..... غسان فيضي
86- فسّخ الوجوه ..... محمد خضير
91- صلاح جياد، حضور الموهبة وسحر الرسم ..... ستار كاووش
93- الفنان صلاح جياد المسعودي وإشكاليات العمل الفني ..... فيصل لعيبي صاحي
99- صلاح جياد.. حرية الخط وجمالية اللون ..... منصور البكري
102- صلاح في الساحة.. صلاح في المرسم ..... زهير الجزائري
105- قوياً كفرشاته.. رحل ..... جبار ياسين

نصوص قديمة

112- انتفاضة اذار 1991... هذا النجاح المؤجل ..... فالح عبد الجبار
118- الانتفاضة الكبرى في السليمانية ..... علي مير خاص

حوارات

124- "الثقافة الجديدة" تحاور الرفيق رائد فهمي، سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي

نصوص مترجمة

142- الماركسية و الحركة الطلابية ، بقلم :ساندرا ديلغادو وميشيل كيترو ...ترجمة: سوران قحطان

أدب وفـــــن

152- في البدء..إنتفاضة اليقظة ..... حسب الله يحيى

بانو راما الانتفاضة / محور خاص

154- انتفاضة تشرين/اكتوبر..تحليل سيكوبولتك ..... قاسم حسين صالح
161- موفق محمد..حكاية تضامن مع انتفاضة شباب تشرين ..... احمد الناجي
166- تمثلات صورة الاحتجاج في الخطاب المرئي ..... جواد الزيدي
170- الغورنيكا العراقية ..... ستار كاووش
173- بلاد قاسية ..... سعد جاسم
174- (شعر) شموع تشرين ..... طالب حسن
176- (قصة)عينان واسعتان ..... سالم محسن
180- (نقد) صوت الطبول من بعيد..اسطورة الحدائق، محكية المقبرة ..... ناجح المعموري
188- (امكنة) بيروت - الحمرا - فندق موزارت ..... محمد حياوي
195- (الصوت الآخر) ضربة شمس للكاتب الروسي إيفان بونين ..... ترجمة : جودت هوشيار
201- الجائحة وامتدادات سردها التأريخي ..كتابة : ريلا آسكيو ..... ترجمة : خضير اللامي
205- (قصة) الصمت البليغ ..... أطياف رشيد
213- مسرح (بعد فوات الأوان)، مسرحية منسية ليوسف العاني ..... أ.بدران
215- ندوة تكنولوجيا المعلومات وأسئلة تجديد الفعل الثقافي.

لوحتا غلافي العدد: للفنان صلاح جياد

كلمة العدد

الهوية الوطنية
أحد أهم دروس انتفاضة تشرين

تشكّلت الهوية الوطنية العراقية الحديثة في العقد الثاني من القرن العشرين. ومنذ بواكير نشأتها الأولى ساهمت العديد من الاحداث الثورية والمحطات النضالية الوطنية في بنائها وتطويرها. كما أنها تعرضت في ذات الوقت، ومنذ لحظات نشأتها الاولى الى العديد من الضربات والصدمات عملت على تشويهها، وسعت الى تقويضها، وكل هذا ترك عليها العديد من الآثار والندوب. وفي التاسع من نيسان عام 2003، تلقت الهوية الوطنية العراقية، ما يكاد يكون احدى اعنف الضربات وأقساها، وذلك عندما استقبل العراقيون سقوط الصنم وانهيار النظام الديكتاتوري بردود فعل متناقضة، بين فرح برحيله مقابل صمت ولامبالاة، مصحوبة بإحساس بالعجز، لان هذا السقوط تم على يد قوات اجنبية محتلة. وقد تسبب هذا بجرح عميق بالكرامة الوطنية.

حينها، وعلى وقع صدمة الانهيار، وما رافقه من ملابسات لا سيما من عمليات السلب والنهب لممتلكات الدولة، ما كان الوعي الجمعي العراقي المنهك بسنوات الحروب والحصار الطويلة، قادرا على فهم معضلة "التحرير بالاحتلال"، و"الاحتلال بالتحرير". ومنذ ذلك الوقت، بقي ذاك الجرح غائرا في الذات الوطنية العراقية. جرح يتلخص بأن شعبا، مثل الشعب العراقي بتاريخه النضالي وتراثه الثوري المشهود، شعب كان وما زال مؤمنا بأصالته الممتدة في عمق التأريخ، لم يستطع القضاء على طاغيته رغم التضحيات الهائلة التي قدمها طوال عقود، يفاجأ بغتة انه انهار بسهولة، بواسطة الاحتلال، بيد قوة محتلة لم يقف بوجهها، ولم يجابهها.

لقد لامس هذا الجرح اعماق الذات العراقية، ومسّ كرامتها بشدّة، ونال من اعتبارها موصلا الهوية الوطنية العراقية الى شفير الخطر الوجودي. خصوصا وان ردة الفعل تجاه الاحتلال ولّدت صراعا طائفيا دمويا، كاد يجر البلاد الى أتون حرب أهلية بصورة رسمية. إن الجروح التي تصيب شعبا ما هي كما تلك التي تصيب الافراد، تولد عدوانية هائلة وصريحة تجاه ذاتها وتجاه الآخرين، وتجاه العوامل التي أدت إليها، او يعتقد أنها تسببت بها. واذا كان الشعب العراقي قد تعايش احيانا مع جرحه، متواريا خلف ستائر الوهم، فإن هذا العطب نُكأ كثيرا، وبالتالي فقد ظل ينتج قلقا وآلاماً معنوية باستمرار، ويولد عنفا متزايدا.

بالتأكيد، لا يمكن فهم وتفسير كل هذه الظواهر النفسية / الاجتماعية، وعلى وجه الخصوص اشكاليات تمزق وتشظي الهوية الوطنية العراقية بعد عام 2003، بكل ارتباطاته، إلا على مستوى آخر من التحليل، مستوى أعمق. دون ان ننكر اهمية المنهجيات الفكرية الاخرى التي تناولت الموضوع من زواياه المتعددة.

إذا انطلقنا من أن الهوية الوطنية، هي انتماء تاريخي لجماعة ما ومكان وثقافة؛ مع ما يتلازم وهذا

الانتماء مشاعر انسانية وجدانية، وتعابير وخصائص نفسية وسلوكية، ادركنا بالتالي ان الهوية الوطنية تمثل شكلا من اشكال الوعي الاجتماعي، ومظهرا لإدراك جمعي للذات ولعلاقتها بالآخرين. بالتالي، فإن الهوية الوطنية في نهاية المطاف تمثل متغيرا تابعا، غير قائم بذاته، ولا يفسر ذاته، فهي نتاج للتطور العضوي للمجتمع.

نهج المحاصصة السياسي ساهم في تغييب الهوية الوطنية الجامعة

عبر هذه المنهجية نستطيع ان نفهم، كيف ساهم نهج المحاصصة السياسي الذي هيمن بعد عام 2003، في تغييب اي شكل من اشكال الهوية الوطنية الجامعة الحديثة، مختلقا في المقابل هوية "وطنية" مصطنعة، جوهرها أنها هوية ائتلاف بين مكونات. فنهج المحاصصة هذا، بتمظهراته المختلفة التي تعكس مستويات تطوره، هو في الحصيلة النهائية آلية للاستحواذ وتوزيع الريع النفطي بين المتحاصصين، وبالتالي تقاسم السلطة والثروة والمناصب، والنفوذ. وهذه الآلية بحاجة الى تجليات آيديولوجية، تمكنها من بسط سيطرتها وهيمنتها. والمبدأ الذي تقوم عليه آيدلوجيا المحاصصة، يتمثل في ان واحدة من بين كل الهويات والتعريفات المتعددة التي يمتلكها الافراد، هي التي تهيمن، ومن ثم هي التي تحدد انتماء الفرد الى هويته الوطنية، وعن طريقها وبواسطتها فقط ينتمي الى الوطن، الى العراق. فلكي تكون عراقيا بحسب هذه الآيدلوجيا، معناه ان تكون عضوا في مكون، في طائفة او اثنية عراقية. وبالتالي يختزل نهج المحاصصة، الشعب الى مجموعة مكونات حقيقية او متخيلة. ويختزل الاخيرة الى كتل ومناطق وممثلين سياسيين.

الهوية الوطنية كميدان صراع بين اعادة انتاج الواقع وإرادة التغيير

وإذا كانت الهوية الوطنية، كنظريات وتصورات هي نتاج للتطور الاجتماعي، فبالتالي هي ميدان صراع بين ارادات، ارادة اعادة انتاج الواقع وارادة التغيير، وهذا ما برهنت عليه انتفاضة تشرين. فأحد اهم وابرز مآثرها، انها دخلت مباشرة ميدان الصراع على شكل الهوية الوطنية بوعي واضح، في مساهمة صريحة منها في عملية اعادة بناء وتشكيل الهوية الوطنية العراقية الجامعة والحديثة. وذلك على ارضية الممارسة العملية، في ساحات الاعتصام والاحتجاج، معبرة عن ذلك بواسطة شعاراتها وخطابها السياسي. واذا كان بعض المنتفضين قد وظف رمزا دينيا او عنصرا عقائديا مستمدا من شعائر دينية في خطاب وشعارات الانتفاضة فإن هذا لم ينتقص من طبيعة الانتفاضة الوطنية، وقد تقبلها الاخرون في الغالب بوصفها شعارات وطنية مشتركة. كما لا يقدح بوطنية الانتفاضة ومطاليبها العادلة انها انبثقت واستمرت في بعض المحافظات دون اخرى. فلهذا اسبابه وعوامله المختلفة والمتنوعة. فعمق الانتفاضة هو جماهير الشعب العراقي كله. والدليل مساهمة ابناء وشباب كردستان ونينوى والأنبار في مظاهرات واعتصامات ساحة التحرير.

وانطلاقا من ادراك ان التغيير هو عملية مركبة، متعددة المستويات سياسيا وفكريا وجماهيريا، فإن السؤال المهم هنا هو: ما هي الآليات السياسية التي يمكن من خلالها للقوى والاحزاب السياسية ان تساهم فيها مع قوى الانتفاضة الجماهيرية في الصراع الدائر حول مضمون وشكل الانتماء الوطني، لصالح القضاء على نهج المحاصصة، واستكمال عملية بناء الهوية الوطنية الحديثة، هوية لا تقوم على اساس سرديات لا تاريخية او العناصر "الجوهرانية" المتخيلة او المختلقة، وانما هوية اساسها يتجذر في الانتماء الى الدولة، دولة القوانين والحقوق والواجبات، دولة لا تفرق بين مواطنيها على اساس الدين او الطائفة او القومية او الجنس او اللون او الموقع الاقتصادي – الاجتماعي.. الخ، دولة اساسها قائم بالديمقراطية الحقيقية والمساهمة السياسية الجماهيرية الفاعلة، وأيضا، دولة العدالة الاجتماعية.

اكدت انتفاضة تشرين المجيدة ان الشعب العراقي ما زال من الشعوب الحية، وانه لا يمكن ان يبقى خارج المعادلة، وان قيمه الثورية ما زالت كامنة في صميم قطاع كبير من شبابه وشاباته، وأبنائه وبناته، وانه شعب لا تكسره الضربات أبدا، بل تقويه.

ندوة الثقافة الجديدة:
ثورة تشرين، الواقع والتحديات

سكرتارية التحرير: في العام الأول من عمرها الزاخر بالتضحيات، وبعد عام من التغطيات، نظمت (الثقافة الجديدة) يوم الجمعة المصادف 9/ تشرين الاول 2020 هذه الندوة مع نخبة من الباحثين والمشاركين في الانتفاضة. ضمت الندوة التي أدارها الكاتب زهير الجزائري، الدكاترة الباحثين فارس حرَام، فارس نظمي، حيدر سعيد، علي طاهر حمود، جاسم الحلفي. والناشطين المدنيين هناء أدور، بشرى ابو العيس وقاسم حنون.

تحدث المشاركون عن واقع الحدث الذي شكل منعطفاً هاماً في تاريخ العراق الحديث، وتحديات المرحلة القادمة، والمهام التنظيمية والعملية لتحقيق الأهداف.

خلال تفريغ الندوة واجهنا اشكالات تقنية في العديد من مقاطع أحاديث المشاركين، لذلك نعتذر للمشاركين والمتابعين. الندوة ستتواصل ببحوث وتعليقات في اعداد قادمة.

زهير الجزائري: هذه الندوة ليست ختام متابعات (الثقافة الجديدة) لانتفاضة تشرين. فقد بدأنا قبل عام، وهو عمر انتفاضة تشرين، بدأنا من الساحة، بلقاء مشاركين من خلفيات مختلفة، تحدثوا عن خلفياتهم واسباب نزولهم للساحة وماذا تغير فيهم، وما هي توقعاتهم ثم واصلنا خلال العام نشر بحوث وشهادات للمشاركين. هذا الحدث في اعتقادي سيطول، وسيكون له اثر على تاريخ العراق. وفي هذه الندوة الاساسية سنسعى الى لملمة افكارنا حول الانتفاضة. ولنبدأ معا بالتساؤل عن جو الانتفاضة نفسه؟ كيف هي الانتفاضة الآن بعد عام على اندلاعها؟ ونبدأ بثلاثة المساهمين المتواجدين في الساحة: السيدتين هناء ادور وبشرى ابو العيس. ونبدأ مع الدكتور فارس حرّام اولا:

ما الذي تغير؟

د.فارس حرّام: جوابي يبدأ من مقدمة تقول: إذا أردنا النظر إلى الثورة (وأنا أميل مع من يميلون لتسميتها ثورة)،

أقول لكي ننظر إليها، ونقيمها بعد عام على انطلاقها، فلا بد ان يكون النظر عبر مستويين: الأول هو القريب/ الحالي، والثاني هو المتوسط والبعيد.

والثورة في ضوء هذا التقسيم حققت أكثر أشيائها العظيمة في المستوى الثاني، أي المتوسط والبعيد، فهي عظيمة بما تعدنا به مستقبلاً أكثر من عظمتها بما أنجزته، بالرغم من إنه ليس بالقليل. فعلى المستوى السياسي، يمكن للمتابع في ضوء الوقت الحالي أن يقول: لم يتحقق شيء تقريباً (باستثناء حراك النقاش السياسي الكبير الذي جاءت به الثورة)، إذ لم تحدث تغيرات واسعة كبيرة على المشهد السياسي باستثناء تقديم استقالة رئيس الوزراء السابق، وتغييره برئيس وزراء جديد. اذن في المدى القريب/ الحالي، وباستثناء تغيير الكابينة الوزارية، لم يستجد شيء على المستوى السياسي للدولة. بالرغم من أنّ استقالة الحكومة تحت الضغط الشعبي هي أمر من الناحية التاريخية يمثل منجزاً كبيراً ومؤثراً في المديين المتوسط والبعيد، من جهة كونه يفتح آفاقاً جديدة أمام آليات الضغط الشعبي في المستقبل. فكل حكومة قادمة ستكون تحت الضغط، ولا بد أن تتذكر مصير حكومة عادل عبد المهدي. لكن تغيير الحكومة في لحظته الزمنية، وفي إطاره السياسي لا التاريخي، لا يمثل تغييراً كبيراً، لاسيما اذا تذكرنا أن الكابينة الجديدة تحكمت فيها المحاصصة كسابقاتها. نبقى على المستوى القريب ونقف أيضاً عند تغيير

أعضاء المفوضية العليا للانتخابات بقضاة بدلاً من موظفين، وهذا حدث مهم جداً على المستوى التاريخي أيضاً، لأنه بداية لإعادة هيكلة المفوضية وتخليصها من جراثيم الأحزاب الحاكمة، وهذا يحتاج إلى ضغط في المدة القادمة وعمل احتجاجي كبير. من الناحية السياسية أيضاً لم نشهد ظهور كيانات سياسية جديدة استقطبت حركة الاحتجاج ونالت ثقة المحتجين لتؤسس لعمل سياسي معارض جديد كلياً. نعم تأسست كيانات جديدة لكنها لم تستقطب المحتجين بعد. هذا على المستوى القريب اما على المستوى المتوسط والبعيد فهناك وعود كبيرة تعد بها هذه الثورة، وعود على مستوى تغيير المشهد السياسي، وعود على مستوى تغيير الطريقة التي تدار بها الدولة، وهذه الوعود مزجت بدماء مئات الشهداء واكثر من 25 الف جريح، وبتغييب منظم للعديد من النشطاء والمتظاهرين.

الثورة بعد مرور سنة: لا تزال الخيم في الساحات مع إصرار كبير على تحقيق ما نصبت لأجله. كان على

الطبقة السياسية ان تختصر هذا الزمن بإنجاز قانون الانتخابات الذي وقعت تحت الضغط لإنجاز جزء كبير منه في بداية الثورة، لكنها آثرت ان تؤجله بحجة حاجتها إلى حسم بعض النقاط الخلافية فيه، واستمر تأجيلهم إقراره شهوراً. وفي الحقيقة لم يكونوا يتناقشون في الموضوع وإنما كانت عملية تسويف ومماطلة. اما ما حدث في هذه السنة الثورية على المستويات الاخرى غير السياسية، فهناك ظواهر ربما ستؤدي إلى تغييرات عميقة في ثقافة المجتمع العراقي، وربما سيُنتج تغيير في منظومة القيم العراقية، وهذا ما ننتظره، وهو يحتاج الى تراكم لكي يثبت أن هذا التغيير في القيم هو حقيقيّ وليس ظرفياً. فعلى سبيل المثال: شاهدنا أول مرة في تاريخ العراق المعاصر ظهوراً واضحا للمرأة وهي تقود المظاهرات لا سيما ما حدث في 13 شباط 2020، وأعدّه حدثا مزلزلاً في مجال الحركة النسوية في العراق، أعني به يوم التظاهرة النسوية الخالصة في بغداد والمحافظات. هناك أيضاً دور الطلبة والشباب في قيادة المظاهرات وفي النزول المكثف الى الساحات، وتغيير مجرى الأحداث في الكثير من المرات وهذا أيضاً يحدث أول مرة في تاريخ العراق بهذا الحجم والتأثير. كذلك شاهدنا مجموعة من الممارسات الاجتماعية لم تكن ظاهرة في سلوك العراقيين في الأماكن العامة، مثلا ظهور نوع من التواضع الاجتماعي الغريب على يوميات المجتمع العراقيّ، الطبيب، المهندس والمحامي يكنسون الشوارع والنساء تتجمل بالأوساخ التي تقع على ملابسها اثناء عملها في التنظيف او اسعاف الجرحى. لذلك هذا النوع من الاشياء اذا تراكمت وترسخت ستؤدي الى تغيير في منظومة القيم، وانا اعتقد انها ستتراكم وتؤدي مفعولها في المستقبل القريب.

زهيرالجزائري: اتجه الان بسؤالي الى السيدة بشرى ابو العيس. كنتِ في الساحة ايضا والاستاذ فارس حرام تحدث عن مساهمة النساء، كيف تصفين زخم الوجود النسائي وفاعليته في الساحة؟ هل ظهر جيل من النساء مختلف عن جيل النساء السابقات، وكيف تفسرين هذه المسألة؟

بشرى أبو العيس: تميزت مشاركة النساء في انتفاضة تشرين 2019 عن احتجاجات ما بعد التغيير 2003. ففي احتجاجات (2011 و 2013 و 2015 و 2018) انحصرت المشاركات بنساء من الطبقات الوسطى او النخبة المعنية بالدفاع عن حقوق المراة على مستوى المنظمات النسوية والاحزاب الديمقراطية.

أما في انتفاضة تشرين فشاركت النساء من طبقات مختلفة وفئات وشرائح واسعة. منهن النساء الكادحات والطالبات والعاملات والموظفات بمختلف الاختصاصات والابرز الطبيبات والناشطات والاعلاميات والنقابيات باعداد كبيرة. وصلت نسبة مشاركتهن أحيانا الى 40% من المنتفضين. والاعمق هو تجلي

هذه الظاهرة في محافظات الفرات الاوسط والجنوب والتي تسيطر عليها الاعراف والتقاليد والسيطرة الذكورية.. وهذا يؤكد إرادة النساء العراقيات بمشاركة فاعلة في المجتمع، واخذ دور حقيقي بجانب الرجل باحتجاجهن على الواقع المتردي في ادارة البلاد، وخاصة على المستوى الاقتصادي الذي أثر سلبا على واقع الاسرة بالمجمل والمرأة بشكل خاص فانتفضت.

من اهم العوامل التي دفعت بمشاركة واسعة للنساء في انتفاضة تشرين التنظيم والصراع .. من الناحية التنظيمية لم تكن هذه المشاركة الفاعلة بنت لحظتها، مجرد رغبة عاطفية مرتبطة بالفعل الاجتماعي الواسع الذي شارك فيه الالاف من المواطنين على مستوى كل محافظة. هذه المشاركة امتداد لتاريخ طويل للحركة النسوية العراقية منذ بدايات القرن الماضي. فالنساء العراقيات منذ ظهور حركات التحرر الخاصة بالمراة بدأن بتنظيم عملهن وادركن ان عملية التنظيم رافعة مهمة لكسب الحقوق. انعكس هذا على تاريخ هذه الحركة مرورا بمختلف الانظمة السياسية التي حكمت العراق ومنها من مارس العنف حد القتل والترهيب لقمع هذه الحركة. وبعد عام 2003 برز الكثير من الاطر التنظيمية للحركة النسوية والناشطات، انعكس على دور المراة في الحركة الاحتجاجية العراقية بكل مراحلها حتى الانتفاضة. فقد ظهرت المجاميع النسوية كتلا منتظمة الحضور مع الاسرة. وتنوعت مشاركتهن بين الدعم الطبي واللوجستي والتحشيدي. ومن ابرز الاطر التنظيمية المسيرات الطلابية التي ضمت اعدادا كبيرة من الطالبات، خاصة في بغداد، يتقدمن مسيرات الطلبة. وبرز دور لعدد من الشابات في بعض محافظات الجنوب بقيادة التظاهرات اليومية. واليوم تعمل الحركة النسوية على توحيد صفوفها في الاحتجاج ايمانا بان التنظيم ووحدة الخطاب يجعلهن اكثر تأثيرا واعلى صوتا مع المنتفضين..

العامل الثاني يؤشر استمرار الصراع بين الحركة النسوية العراقية وبنية النظم السياسية في العراق وخاصة بعد 2003 من اجل حقوق المرأة. وقد تجسد هذا الصراع على مستوى تشريع القوانين المنصفة للمرأة والمساهمة الاوسع في المجال السياسي والاجتماعي والاقتصادي. لكن المؤشر الاهم هو في أن مساهمة النساء في انتفاضة تشرين لم تكن محصورة في هذه المجالات، بل انطلقت الى المجال الوطني وتبني شعارات الانتفاضة الوطنية وترسيخ مفهوم الهوية الوطنية، وهذا ما رفعته كشعارات في الدعوات التي انطلقت للتحشيد للمسيرات

والوقفات والتظاهرات النسوية.. تبنت الحركة النسوية العراقية مطالب انتفاضة تشرين في بياناتها ومشاركتها بشكل ملموس، ورسختها كخارطة طريق لمشاركة المراة في الاحتجاج. لكن هذه المطالب لم يتحقق منها شيء، بل جاء قانون الانتخابات الجديد محبطا لآمالها. ومن المؤشرات المهمة لتصاعد وتيرة الصراع، تعرض النساء للقتل واستشهاد نساء من بغداد وكربلاء والبصرة، بسبب مشاركتهن في الانتفاضة. وهذا يؤكد ان الصراع الطبقي بين السلطة والشعب لا يفرق بين النساء والرجال عند مناهضة الظلم والتسلط على ثروات البلاد للمطالبة بحياة كريمة وعدالة اجتماعية.

زهير الجزائري: اريد من الناشطة المدنية هناء أدور ان ترينا كيف ساهم المجتمع المدني؟

هناء ادور: اود ان اقول بان تظاهرة أو انتفاضة تشرين الاول 2019 لم تكن عفوية تماما، بقدر ما هي تراكم لاحتجاجات سابقة شهدناها منذ 2010 وتراكمت بخبرات عديدة وصولا الى 2019. ما حدث في البصرة وعلى مدى أكثر من شهرين كان بمثابة تمرين فيه تحدي وتضحيات كبيرة.

شعارات انتفاضة تشرين نفسها تطورت ولم تعد تقتصر على مطالب خدمية، انما تحولت الى شعارات شاملة. فالشعار الرئيسي الذي خرجت به

التظاهرة وهو (نازل اخذ حقي) تبلور الى شعار (نريد وطن). هذا التحول الكبير للاحتجاجات نقلها من العفوية الى تغيير مسار النظام السياسي في العراق، وتغيير العملية السياسية بكسر حواجز النظام الطائفي. وهذا كسر لحاجز كبير كنا سابقا نقول انه من الصعب كسره. تظاهرات 2015 - 2016 كانت ضد الطائفية وضد الفساد ومن اجل الخدمات، لكن التركيز على الطبقة السياسية الفاسدة ومحاولة ازاحتها، وازاحتها بوعي باعتقادي ان هذه المسألة تحسب لانتفاضة تشرين، وخاصة في مثابرة الشباب وتصميمهم في هذه التظاهرات التى استغرقت الى اليوم حوالي سنة، ومرت بالعديد من التطورات والاحداث السلبية في بعض الاحيان. مع ذلك اقول ان الوعي المدني هو البارز في الاحتجاجات من خلال الشعارات ومن خلال المجادلات التي نشاهدها اليوم على قنوات التلفزيون في طروحات الشباب وايضا من خلال تواصلنا مع الشباب في لقاءاتنا وفي ورش العمل التي اقيمت في هذا الجانب. لاحظنا، وانا

اسميها انتفاضة تشرين، صارت تتويجاً لوعي جديد في المجتمع العراقي، هو نتيجة لتراكمات متنوعة قام بها المجتمع المدني طوال هذه الفترة. وكانت بمثابة نواة للتعريف بقضايا من قبيل، المواطنة العدالة الاجتماعية، برزت بشكل خاص في انتفاضة تشرين. وهذه كانت نقطة تحول اثرت على القوى السياسية بشكل كبير من خلال رضوخهم للرفض الذي صار لعدد من الترشيحات لرئيس وزراء خلال هذا العام من عمر الانتفاضة، وفي هذا الشأن فإن صوت الانتفاضة كان هو البارز.

من المهم الاشارة الى ان التظاهر تحول الى اعتصامات وهذه نقطة تحول في انتفاضة تشرين. ورغم سقوط اكثر من 700 شهيد و25 الف جريح ومصاب فإن روح التحدي كانت تتصاعد باستمرار. ورغم أن الانتفاضة قامت في بعض مناطق الوسط والجنوب، وان غالبيتها من المكون الشيعي، لكننا لمسنا مشاركات غير قليلة من الشباب من مختلف المحافظات الوسطى والشمالية. شباب من الانبار، صلاح الدين، ديالى، كركوك ومن نينوى ساهموا في التظاهرات خاصة في ساحة التحرير. من المهم ملاحظة ان الساحات تنوعت بمجاميع متنوعة.

حاولنا كمنظمات مجتمع مدني جرهم الى التنسيق ودفعهم الى الحوار وتناول مواضيع متنوعة لإغناء مستوى الوعي، وفي سبيل اتخاذ موقف محدد.. هذا التنسيق بدأ يتطور في الفترة الاخيرة، بحيث بدأنا نلمس السعي لقيام تنظيمات سياسية جديدة وتشكيلات سياسية جديدة من شباب متنوعين. التنسيق بدا واضحا في عدد من الساحات، وهذه مسالة من المهم التأشير عليها ايضا.

الهوية الوطنية العراقية بدت اكثر وضوحا خلال هذه الفترة، وهذه مسالة مهمة جدا وتحسب للشباب. وكان هناك تأييد من الكثير من الناس. صحيح ان هذا التأييد غير واضح لكننا استطعنا تلمسه منذ البداية مثلا في جمعيتنا قمنا برصد للموجودين في الساحة ووجدنا أن العدد بلغ مليون ونصف المليون في يوم واحد في ساحة التحرير. وهذه المسالة مهم التأشير عليها. صحيح اليوم تراجعت التظاهرات عدديا، لكن هذا لا يعني ان التأييد الشعبي تراجع.

بعض استطلاعات الرأي تشير الى نسبة عالية من العراقيين (90%) مؤيدين لانتفاضة تشرين، لكن هذا يتباين في بعض المناطق، غير انه بشكل عام هناك نهوض للوعي وهناك تأييد شعبي من اجل التحول. مشاركة المرأة وحماس الشباب وتأييدهم لمشاركة المرأة وحرصهم على رفع شعارات لمناهضة العنف ضد المرأة.. وهذا لمسناه بشكل واضح من خلال مشاركة الطلبة، واغلبهم من المرحلة الجامعية وهم يشعرون بمسؤوليتهم بضرورة اشراك الطالبات واشراك النساء معهم في الحركة وايضا في الحوارات من اجل الدفاع عن قضايا حقوق المرأة.

من هو المشارك؟

زهير الجزائري: أحول الكلام الى الدكتور فارس كمال نظمي، وقد تابعتُ العديد من مقالاته التي كرسها للانتفاضة وخاصة توصيفه السوسيولوجي للمتظاهرين. أود أن أستعيد معك الآن: كيف ترى المشاركين كجيل وفي نفس الوقت كانتماء طبقي واجتماعي من خلال دراساتك لهذه التظاهرات؟ ما هو الفرق بينهم وبين متظاهري الفترات السابقة؟

د. فارس كمال نظمي: أعود لسؤالك المهم وأبدأ بفكرة أساسية، إذ أعتقد أن الحدث التشريني يمثل أقصى نقطة ثورية في تاريخ الدولة العراقية المعاصرة، نقطة صراعية فارقة بين الماضي والمستقبل، بين القديم وبين الجديد، بين احتضار القديم واستعصاء الجديد بتعبير غرامشي. لذلك كنت من بين الكتاب والباحثين القلائل، وأيضاً منهم الصديق الدكتور حيدر سعيد، الذين استخدمنا مصطلح "الثورة" في فترة مبكرة في الحقيقة.

أنا أتذكر أنه منذ نوفمبر/ تشرين الثاني استخدمتُ هذا المصطلح لهذا السبب، وهو أن الثورة بمفهومها تمثل خطاً واضحاً وفاصلاً بين القديم والجديد أكثر مما تفعله مصطلحات مثل "الانتفاضة" أو "الحركة الاجتماعية". هذه الثورة أو الحدث التشريني للأسف لم تتم تغطيتها أكاديمياً وبحثياً لحد الآن بما تستحقه سواء على المستوى السياسي أو السوسيولوجي أو الثقافي أو السيكولوجي، فما زالت الدراسات أو المقالات محدودة، ولا تلامس الجوهر في معظمها. طبعاً لا اقول الجميع، إذ توجد طبعاً أعمال نوعية لكنها قليلة جداً، فمعظم النصوص التي قدمت بهذا الإطار بقيت في طور الملامسة شبه السطحية للحدث، ولم تتوغل في ديناميكياته، أي بقيت في اطار الـ (common sense) والتوصيف العام للحدث وليس التوغل الجذري فيه.

يمكن القول إن أهم ملمح لهذه الثورة أو لهذا الحدث أنها كانت سلوكاً ثورياً ولكن دون اطار ايديولوجي ممنهج. بمعنى إنها لم تكن بإطار حزبي أو سياسي أو معتقدي بالمعنى التقليدي السائد في الأدبيات السياسية. لكن غياب الإطار الايديولوجي لا يعني بتقديري عدم وجود إطار سيكولوجي واضح على الأقل بالنسبة لي. لهذه الثورة، سلوك سيكولوجي ذو مضمون وجودي. كانت هناك نزعة وجودية عميقة عند المحتج الشاب بأن يكافح الفراغ والخواء والرثاثة الهائلة في الحياة العراقية، لذلك

نجد أن التعبير الفردي هذا اتخذ طابعَ تعبيرٍ جمعي عند جمهور شبابي كبير من الواضح أنه وصل الى مرحلة القطيعة النفسية التامة مع النظام السياسي الى حد المناداة باسقاطه كلياً، دون شعارات مطلبية إلا بالحد الأدنى ربما أو بشكل محدود جداً. بمعنى آخر أنه كان حراكاً جماعياً لكنه عبّر بشكل فريد عن تنامي النزعة الفردية الاجتماعية عند الفرد العراقي وعند الشاب العراقي الذي برز في وسط الجموع للتعبير المستميت عن رغبته باستعادة حقوقه الاجتماعية في أن يكون مشاركاً في الثروة الاقتصادية وفي المكانة الاجتماعية بعد أن جرى تهميشه واستبعاده لسنوات طويلة. هذا هو أول ملمح سياسي أشخصه في هذا الحدث في أن النزعة الفردية قد برزت وبزغت لكنها نزعة متوجهة إلى خدمة الخير العام أو المصالح الجماهيرية.

النقطة الأخرى التي أود تشخيصها، أن هذا الحدث لا يمكن النظر له إلا في سياق تطوري، على الأقل منذ 2010 في أنه يمثل في النهاية بنية احتجاجية في إطار هيمنة ثقافية متنامية، ما بين أفول الهيمنة الإسلاموية بمرور الزمن وبزوغ هيمنة ثقافية مضادة هي هيمنة النزعة الوطنية (الوطنياتية) خلال 10 سنوات. فهو يمثل حلقة أو محطة على طريق احتجاجي، ولذلك أستطيع أن أغامر وأقول أن هناك موديل (أو انموذج) سايكوسياسي لهذه الثورة طُرح في تشرين 2019، ولكنه متصل بما سبقه من موجات احتجاجية وخصوصاً موديل البصرة 2018، وربما في طيات هذه الندوة يمكن الحديث عن هذا الموديل فيما بعد.

العماد الأساسي السوسيولوجي لهذا الحدث كان هو الجمهور الشبابي الشيعي حصراً، المحروم في أغلبيته الساحقة. طبعاً استخدم هنا مصطلح "شيعي" بالمعنى السكاني أو المناطقي وليس المذهبي أو الديني. يتميز هذا الجمهور الشبابي بأن تنشئته السياسية مقتصرة على حقبة ما بعد 2003؛ إذ اقترن عنده الدين السياسي بالفساد والحرمان والفقر والبطالة والذل دون أي تمثلات حزبية أو تنظيمية تقليدية. هذا الجمهور أو هؤلاء الشباب هم في أغلبيتهم قادمون من أحزمة الفقر والعشوائيات في شرق بغداد، ويمثلون أيضاً جيلاً محروماً كاملاً في أغلب محافظات الجنوب والفرات الأوسط. في لحظة تشرين 2019 هذا الجمهور وجد نفسه في مواجهة راديكالية دامية مصيرية مع سلطة مارست كل أنواع العنف غير الشرعي في وقت كان من الممكن أن تتصرف بطريقة اخرى. بمعنى آخر أقول إنها مواجهة راديكالية بين الشيعة السكانية المحرومة والشيعة السياسية الحاكمة. فالتشيع هنا قد أخذ بالبروز بوصفه هوية عراقية لا مذهبية. بمعنى أن هذه الهوية بدأت بتوظيف سردياتها لإنتاج غضب طبقي وأخلاقي حيال سلطة شيعية سياسية فاسدة بدلاً من التمركز العصبوي التقليدي حول الطائفة كنقيض للوطن، وهذا واحد من أهم نتائج هذه الثورة. وهو ما شاهدناه في الأيام القليلة الماضية على الأقل عندما حدث

تنازع حاد بين الطرفين، أي بين شباب تشرين وبين قوى السلطة في كربلاء، حول امتلاك سردية الحسين وأيهما هو الأكثر شرعية أو مشروعية في امتلاك هذه السردية.

هذا الموديل الشبابي أو هذه الموجة الشبابية الثورية، وبعد أسابيع قليلة من اندلاع الحدث التشريني، حققت صدمة أخلاقية في المجتمع أدت إلى تحريك فئات اجتماعية أخرى للانخراط في الحركة من خلفيات دينية ومذهبية وقومية متنوعة، وهذا ما تحدثت عنه الست هناء قبل قليل. فقد التحقت أجزاء من الطبقة الوسطى، ونقابات، ومنظمات مجتمع مدني، وفنانين، وأدباء، وناشطين، وموظفين، وأطباء، وطلبة مدارس وجامعات، وحتى بعض رجال الدين من الصف الثاني، فضلاً عن اصطفاف توجهات علمانية ويسارية ومدنية وليبرالية مع الحراك، مع حضور نسائي فاعل أيضاً وغير مسبوق. كل هذه الفئات مثلت إطاراً واسعاً ومتعدد الثقافات والايديولوجيات والخلفيات الإثنية والطبقية، لكنه في نفس الوقت إطار ينطوي على محرومية أقل وغضب ثوري أضعف مما هو لدى الشباب الثوري. لذا برأيي أن هذا الجمهور يمثل جمهوراً سانداً وفاعلاً في حياة هذه الثورة، لكنه لم يكن هو الصانع الحقيقي لجوهر الزخم الاحتجاجي الذي كان عماده فقراء الشيعة المحرومون سواء في بغداد أو محافظات الجنوب.

هذه الثورة أعادت أيضا ثيمة "الاقتصاد" من جديد إلى قلب التطور السياسي سواء السوسيولوجي أو السايكولوجي في العراق. فنحن اليوم صرنا نتحدث من جديد ونقول إن الطاقة البشرية التي استنزفت لسنوات طويلة في الفقر والحرمان والبطالة والطائفية والتطرف، انتفضت من جديد لكي تعيد انتاج الوعي بفكرة الهوية الوطنية بوصفها قوة اجتماعية خلاصية ضد القوى السياسية الفاسدة؛ بمعنى مماثل إن التعبير عن الهوية الوطنية (نريد وطن) أصبح حاضنة ساندة للمظلومية الطبقية (نازل آخذ حقي)، أي ببساطة تفاعلت الطبقية مع النزعة الوطنية بشكل ديناميكي، لكي يتولد منها فعل احتجاجي باحث عن إعادة توزيع الثروة بما يعنيه من استعادة فكرة الوطن الغائب أو المسروق. إنها جدلية الحس الوطني مع الحس الطبقي، وبما أسميه بزوغاً لموديل جديد في الحياة السياسية العراقية هو موديل "الفاقدين- المالكين". هذا الموديل بات يشكّل جزءاً من فهمنا وتفسيرنا للوضع العراقي الحالي، فإلى جانب كل السرديات الطافحة في الفضاء العراقي، سواء كانت سرديات عرقية أو دينية أو طائفية، نرى اليوم بروز سردية جديدة هي سردية المهمشين الغاضبين الذين تم استبعادهم من ثمار الريع النفطي، هؤلاء يراقبون بدقة تكدس الثروات في الضفة الأخرى، ويحلمون بمستقبل مغاير. نعم، هم بلا تنظيم واضح، وبدون ايديولوجيا منهجية، لكن في النهاية لديهم حلم مبني على تصورات يقينية -على الأقل في منظورهم - أن هناك حتمية أو أحقية لهم في أن يعملوا على تأسيس وجود

اجتماعي مغاير، وأن يستميتوا من أجله. أكتفي بهذا القدر، شكرا.

من التهميش الى المشاركة

زهير الجزائري: احول الكلام الى الدكتور حيدر سعيد تعقيبا على السرديات الشيعية والصراع حول رمزية قصة الحسين وكربلاء في الصراع الحالي. كيف ترى الصدام في هذه الرمزيات بين الطرفين في استخدام السردية الشيعية وكذلك في تعارضها ايضا؟

د.حيدر سعيد: انت سبقتني بالسؤال عن السرديات الشيعية وانت تعرف انه بتحريض منك انا اكتب مقالة لصالح العدد القادم من (الثقافة الجديدة). لكن دعني في البداية أستعرض الافكار الاساسية في هذا المجال في اطار كيف استعملت السرديات الحسينية. فانا استندت الى بحث ميداني، استطلاع لمجموعة من الناشطين. طبعا السرديات الحسينية وظفت منذ اليوم الاول، منذ يوم واحد تشرين. ولا ننسى شيئا مهما، انه مع انطلاق الثورة على الاقل او انطلاق الحركة الاحتجاجية، في البداية قبل ان تصبح ثورة، اعتقد انه بعد يوم 25 تشرين تحولت من حركة احتجاجية الى ثورة، تزامن 1 تشرين مع الموسم الحسيني في محرم وصفر، ولا ننسى انه توقفت في البداية بسبب تزامنها مع اربعينية الحسين. جزء منها هو الجو العام المسيطر، الاجواء الحسينية وانا أشاهد الكثير من مقاطع الفيديو. كان

تعبير (لبيك يا حسين) موجودا في الثورة، وكأنما كانت هي مسيرة الى الحسين، لكن - ودعنا نستخدم هنا لغة تقنية – توظيف العناصر الخطابية المستمدة والمقتبسة من السرديات الحسينية تطور، ولم يقف عند هذا الحد، فكان هناك سجال ربما ليس سجالا واسعا، لكن ليس كل اطراف الثورة مجمعة بحسب الاستطلاع الذي اجريته. هناك مجاميع داخل الثورة تعتقد ان استخدام السرديات الحسينية يقدح بالطابع المدني العلماني للثورة، لأنها اصلا سرديات فئوية، في حين هناك مجموعات اخرى تعتقد أن الحسين لا يخص فئة محددة؛ فالحسين صرخة ضد الظلم وثورة ضد الظلم. التطور الاساسي في استخدام السرديات الحسينية انه في حين كانت منظومة السلطة منذ 2003 تستعمل هذه السرديات لفرض نوع من الهيمنة الثقافية، مصطلح غرامشي الذي ذكره قبل قليل صديقي الدكتور فارس. ويا ريت ان نشتغل في كيف استعمل الحسين كأداة بيد السلطة. وقد حاول الثوار نزع استلاب الحسين من قبل السلطة، وكان هذا يخدم سمة اساسية لدى الثوار وهو

نزع الشرعية عن السلطة. فالشرعية التي تكتسبها السلطة، لا تكتسبها فقط عن طريق الانتخابات، السلطة التي تفتقد ما يسمى بشرعية الانتخابات، فما حاوله الثوار هو نزع هذا الشكل من الشرعية (الشرعية الحسينية) من منظومة السلطة، لذلك تلمس ان الحسين كان اداة اساسية في خطاب الثورة. وانا دائما اضرب المثل في الفيديو الذي شاع للشهيدة ريهام يعقوب بعد استشهادها والذي تهتف به: انا الحسيني من صدك، انت منو؟ وهذا في تقديري استمر في كل خطاب الثورة الذي انا واكبته. اذا يسمح لي الاستاذ زهير هذه المقالة تقريبا انجزت وستنشر في الثقافة الجديدة.

ما يهمني هنا هو النقاش المهم الذي حدث في الندوة في الساعة الماضية بين الزميلات والزملاء، ويهمني ان أشير الى بعض الاشياء خارج هذا السياق. اتفق مع صديقي الدكتور فارس، انه إلى الآن نحن لا نتوافر على ادبيات ودراسات لفهم الثورة. وليس بالضرورة سنتوافر خلال 10 او 20 او 30 سنة، فالكثير من الاحداث التاريخية تمر عليها العشرات من السنين. ودعني اضرب مثلا في تاريخنا اذا كانت لدينا ادبيات كافية لفهم حدث مثل ثورة العشرين. نحن امام اكثر من نمط للكتابة في اطار الثورة. البحث في كل ادوات البحث والتحليل الذي تستند عليه معرفة من هم الشباب الذين خرجوا، ما هو تكوينهم، من اي مناطق اتوا؟ ما هو مستواهم الدراسي، ووضعهم الطبقي؟ ما هي طموحاتهم وماهي ميولهم السياسية؟ ماهي اصنافهم، وهل هم فئة واحدة ام .. هذا كله مهم ويحتاج الى بحث ميداني، ولكن هناك جزء اساسي من الفعل الثوري الذي يمارسه المثقف هو المساهمة في صناعة مفاهيم الثورة. الفكرة التي اود ان اطرحها، واحدة من العوامل التي لم يتم التطرق لها سابقا فيما يخص تحليل الثورة انا اعتقد ان الثورة ترتبط بما اسميه عقم النظام السياسي الذي انتج في نيسان 2003 وفي تقديري ان تشرين 2019 كانت لحظة الانفجار لهذا النظام. مالذي اقصده بالعقم؟ واحد من الاسئلة التي تشغلني باستمرار هو لماذا العراق عاجز عن انتاج نخبة سياسية جديدة؟ لماذا بعد حوالي 20 سنة، وبعد عقدين من التغيير ما تزال النخبة السياسية المتحكمة في العملية السياسية هي نفس النخبة التي تشكلت قبل 30 او 40 سنة، واتت الى الحكم في 2003. ورغم ان العراق انتقل من نظام سياسي مغلق صفيت فيه الحياة الحزبية منذ السبعينيات؟ وانا انتمي الى الجيل الذي صفيت فيه الحياة الحزبية، وكان هناك حزب وحيد يصنف نفسه في دستوره لسنة 1970 بكونه الحزب القائد، انتقل من هذا النظام الى نظام مفتوح، نظام فيه حرية لتشكيل الاحزاب، فيه انتخابات مستمرة، وتداول للسلطة، فيه مجتمع مدني مفتوح، لكن السؤال الذي يشغلني لماذا بعد حوالي 20 سنة لم نستطع ايجاد زعامات سياسية غير الزعامات التي تشكلت في اطار المعارضة السياسية في السبعينات والثمانيات والتسعينات. في تقديري

ان النظام نفسه لم يكن يسمح. فالتغيير في طبيعة النظام الحزبي في العراق، ودعني استعمل مصطلح نهاية الاحزاب الايديولوجية الكبرى، وظهور الاحزاب الانتخابية وهذا (ترينـد) عالمي ولا يخص العراق فقط. فما عادت الاحزاب تتشكل على اساس الايديولوجيات وانما تنظيمات لخوض الانتخابات، وهي اقرب الى النموذج الاميركي في الاحزاب، لكن هذا غير كاف ولا يفسر العجز عن انتاج نخبة سياسية. ويجب أن أضيف عاملين، وهما يشكلان سمتين أساسيتين في النظام السياسي القائم، وهما العامل الريعي والعامل الطائفي. فالعراق الذي عرف منذ 2003 بوصفه مجموعة مكونات اثنية وطائفية ونخبة سياسية، تعبر عن هذه المكونات. في السياق الريعي الذي حدث، تحولت الاحزاب الى اطار لإعادة توزيع الريع بين المجموعات الاثنية، وبالتالي تحول التنظيم السياسي الى اطار للتكسب، وليس اطارا للمشاركة في ادارة الشأن العام. وحتى فكرة المجتمع المدني و اتمنى من الست هناء ان تصحح لي. قبل 10 سنوات كتبت مقالا اسميته (الامير ما بعد الحديث) اشرت فيه الى المجتمع المدني. واذا كان غرامشي قد سمى الحزب الامير الحديث، انا كنت اعتقد انه مع حقبة نهاية الاحزاب، بدأ يصعد دور المجتمع المدني ليرث الوظيفة التي كانت تؤديها الاحزاب السياسية. لكني اعتقد ان السلطة منذ 2003 كانت في صراع لاخضاع المجتمع المدني من خلال محاولة تقييده، ومن خلال طرح فكرة تحديد الوظائف التي يؤديها المجتمع المدني، ومن خلال فكرة الشراكة بين المجتمع المدني والسلطة. ما جرى في تشرين هو تعبير عن اطار للبحث عن المشاركة السياسية لجيل حرم من هذه المشاركة. وهذا عامل اساسي في فهم الجيل الذي لم يجد مكانا، لا على مستوى الاحزاب التي تحولت الى اطار للتكسب، ولا في اطار المجتمع المدني الذي اخضع. بالتالي كانت حركة الاحتجاج هي اطار للمشاركة السياسية. ولا يمكن أن نتحدث عن ديمقراطية دون الحديث عن مشاركة سياسية. كل الادبيات التي تتحدث عن الديمقراطية، تتحدث عن المشاركة السياسية كعنصر اساسي. خلال 17 او 18 سنة من سقوط الاستبداد في العراق، كانت هناك ثقافة تغذي انه اذا كنت تريد مشاركة سياسية، اذهب الى الانتخابات. المشاركة السياسية اختزلت الى مجرد المشاركة في الانتخابات. والعراق للأسف كان المنطلق لما سمي في ادبيات العلوم السياسية بـ(التسلطية التنافسية). العراق صار المثال في كيف ان الانتخابات لا تعني ان البلد ديمقراطي. هناك انتخابات منتظمة في العراق، لكن لا يعني ذلك ان العراق هو بلد ديمقراطي.

اذا سلمنا بان الثورة كانت بحثا عن اطار للمشاركة السياسية لدى هذا الجيل الذي حرم من هذه المشاركة، ماذا تعني الدعوة الى انتخابات مبكرة؟ كتبتُ عن هذه القضية منذ بداية الثورة. هذا اختزال لأهداف الثورة. كل تجاربنا

ولدينا ادبيات نستطيع من خلالها المقارنة والدراسة، لكن الانتخابات لا تعني شيئاً من دون فرص متكافئة للفوز، من دون اتفاقات وتفاهمات على قواعد النظام الديمقراطي. كل الاطراف التي تخوض الانتخابات متفقة على النظام الديمقراطي، ولكنها تخوض الانتخابات كي تؤسس دكتاتورية اغلبية، أو تخوض الانتخابات كي تمارس مجموعة من الانتقامات دون الاتفاق على قواعد النظام الديمقراطي. كل تجاربنا القريبة، على الاقل في المنطقة مصر او تونس او المغرب، من يفوز في الانتخابات هو القوى المنظمة. لذلك ارجو ان لا نستغرق في وهم انه دعنا نخوض الانتخابات ونحن لسنا منظمين كي تأتي نخبة سياسية جديدة، ممكن ان تكنس النخبة السياسية القائمة منذ 2003.. هذا في تقديري يناقض جوهر او احد جواهر الثورة. انها اطار للمشاركة السياسية.. هذا يفضي بي الى ان مأسسة الاحتجاج كركن لاستعادة المسار الديمقراطي، لذلك بدأنا نكتب وحتى في اوروبا واميركا بدأوا يكتبون اننا الآن امام نمط جديد من الثورات، هي الثورات الطويلة التي لا تتحقق اهدافها خلال شهر او شهرين وتنتهي. والبعض شبه ثورتنا بثورة الشباب عام 1968 في اوروبا والتي لم تفض الى تغيير في النظام السياسي بشكل مباشر، لكنها افضت الى تغيير ثقافي في المجتمع وانا اعتقد ان هذا هو مسار ثورتنا.

الهوية الوطنية بدلاً من الطائفية

زهير الجزائري: أعود الى نقطة الهوية الوطنية. وكيف ان انتفاضة داخل طائفة محددة، وفي نفس الوقت خلقت إطاراً وطنياً عاما؟ هل لك ان تعقب د. علي حول ما ذكره د. فارس كمال نظمي و د. حيدر سعيد؟

د. علي طاهر الحمود: مهم جدا أن نركز، فيما نركز عليه، اللحظة التي انطلقت بها احتجاجات تشرين الاول او انتفاضة تشرين. لحظة الانطلاق لم تكن بدافع أيدولوجي، كما اشار إلى ذلك الاساتذة الاكارم قبلي. ويمكن ان نأتي بشواهد ان اليسار العلماني واليسار الاسلامي، بل وحتى النخبة المثقفة من النخب المعروفة بالساحة، كانوا متحفظين على اللحظة الاولى من تشرين الاول، إنما التحقوا جميعا بعد 25 تشرين الاول، بعد مدة طويلة.. وهذا يكشف ان لحظة انطلاق الاحتجاجات هي بالحقيقة شكلت بالفعل صدمة اخلاقية، كما اشار الى ذلك الدكتور فارس كمال نظمي. بل كانت صرخة بوجه ما اسميه الابتذال السياسي الذي قاد البلد لمدة 17 عاما. واقصد بالابتذال ممارسة الوهم المفضي الى التخريب. مثلما اشار الدكتور حيدر، فان المشاركة السياسية عندما تختزل بالانتخابات والتنظيمات الحزبية، عندها تكون ادوات للتكسب فقط. وعندما تكون هناك عملية سياسية

يفترض ان تؤدي الى بناء الدولة والامة، لكنها تؤدي الى محاصصة وتحالفات سوء بين قوى سياسية ومافيات بأدوات مليشياوية. في الحقيقة هذه ممارسة وهمية للعملية السياسية، وممارسة وهمية للعمل الحزبي والعمل الديمقراطي.. كل هذه الاشياء أدت الى التخريب عمليا. تخريب عملية بناء الدولة وتخريب عملية بناء او صياغة الأمة العراقية.

عندما نزل الشباب لحظة الاول من تشرين الاول 2019 بشعار (نازل اخذ حقي) أوجدوا تعريفا جديدا او سمة جديدة للهوية الوطنية العراقية. تلك الهوية القائمة على دولة تؤمن الحاجات. فـ (الدولة) الحالية في منظور هؤلاء الشباب المحرومين من المشاركة في الريع وفي المال والمشاركة في السلطة والمكانة الاجتماعية ما عادت دولة. وما عادوا مؤمنين بالايدلوجيات والافكار والهويات المتخيلة، بقدر ما هم معنيون بدولة تؤمن لهم العمل وتؤمن لهم الكهرباء، وتؤمن لهم الماء الصالح للشرب. كما شاهدنا في احتجاجات البصرة والحصة التموينية، وما الى ذلك. في الحقيقة الدولة في منظور هؤلاء الشباب هي تلك الدولة التي تكون مفيدة. والهوية الوطنية انما هي ناتج من نتاجات هذه الدولة المفيدة للمواطنين وللأفراد. ما عادت الدولة بعد 17 عاما تؤدي وظيفتها الاساسية بتأمين الحاجات. هذه الوظيفة الاساسية للدولة في بال الشباب. مع التحاق المثقفين واليسار العلماني واليسار الاسلامي بالاحتجاجات في نهاية تشرين الاول، اضفيت شعارات وتعريفات ومفاهيم جديدة على هذه الاحتجاجات عبرت بشكل من الاشكال عن بزوغ المجتمع المدني الجديد في اطار هذه الاحتجاجات، لكن في الحقيقة مطالب الشباب قائمة على تأمين هذه الاحتياجات من قبل الدولة، وهي مطالب عابرة للفئويات الطائفية او القومية. وانا اعتقد بان افكار الشباب تطورت في المجالات السياسية ضمن اطار الهوية الوطنية بالتاكيد على مفردة الاستقلال. وهنا نتحدث عن استقلال القرار العراقي عن دول الجوار كشكل من اشكال التخيل الجمعي والمشترك العابر لحدود الفئوية.

أحب أن اؤكد ايضا، ان هذه الاحتجاجات، رغم انها كانت صرخة حقيقية في وجه الابتذال السياسي، ونقطة فارقة في التاريخ العراقي بتضحياتها، وبما انجزته من اشياء لحد الآن، لكنها بحاجة الى ديمومة حقيقية، وديمومة الاحتجاجات بحاجة الى اطار سياسي وايضا اطار فكري.

بالنسبة للاطار السياسي نحن بحاجة الى ثلاثة امور، اؤكد عليها وبالفعل اتفق مع ما قاله الدكتور حيدر في ما يتعلق بالانتخابات المبكرة، ليست بالضرورة ان تكون مفيدة للاحتجاجات ومآلاتها. نحن نتحدث عن احتجاجات ينبغي ان تؤدي الى ابراز قيادة جديدة وزعامات سياسية جديدة وتنظيمات جديدة، وبذلك نحتاج الى ثلاثة عناصر رئيسية: العنصر الاول يتعلق بقيادة قادرة موحدة، ومعترف بها ولديها مشروعية. بمعنى مقبولية من قبل الجمهور المحتج، قادرة على قيادة هذا الفعل السياسي المتمثل باحتجاجات تشرين. النقطة الثانية نحن بحاجة الى تنظيم، تنظيم راسخ، سياسي حزبي، باطار جامع، يوحد اطراف الاحتجاجات والاطراف الشبابية الموجودة في المحافظات المختلفة. النقطة الثالثة الاساسية، نحن بحاجة الى برامج وليس الى شعارات، برامج حقيقية قابلة للتطبيق في هذا الاطار. وينبغي الا نتجنب الاساسيات الحقيقية في هذا الاطار. قانون الانتخابات الذي يجري الحوار الآن بشأنه، هو صفقة للالتفاف على مطالب المحتجين، وينبغي التنبه الى ذلك بالحقيقة. كذلك المطلب الاساسي لتجاوز حالة المحاصصة وحالة التوافقية المقيدة لفاعلية الدولة التي هي مثبتة في الدستور العراقي، ينبغي ان تعدل، لذلك مطلب تعديل الدستور ينبغي ان يعود الى واجهة المطالبات المدنية.

العفوية والتنظيم

زهير الجزائري: أنتقل الآن الى الاستاذ قاسم حنون حول موضوع العفوية والتنظيم الذي تحدث عنه الاساتذة قبل قليل. دكتور علي قال ان الانتفاضة بدت عفوية لكنها بدأت تنتظم، وهناك من يريد إبقاء هذه العفوية في هذه الحركة او الثورة، كما سمّاها الحضور. كيف ترى مسألة العفوية والتنظيم هذه؟

قاسم حنون: منذ انطلاقة الانتفاضة في أيامها الأولى، تبدت العفوية في مساراتها وغاب عنها أي تنظيم أو قوة سياسية، ذات مشروع أو رؤية محددة. لكنها عكست تطلعا مشروعا للعدالة الاجتماعية ومناهضة الفساد والدعوة الى اصلاحات عميقة في البنية السياسية. انطلقت الانتفاضة أساسا من أحياء الفقر في العاصمة والمحافظات وشملت فئات وشرائح اجتماعية من المشاركين فيها على هامش عملية الانتاج الاجتماعي. 49% منهم عاطلون عن العمل او منخرطون في نشاطات اقتصادية غير منظمة، مثل أصحاب البسطات او أعمال الكسب المؤقت في الحركة اليومية للسوق..هؤلاء من يؤلفون القوى المحركة للانتفاضة وهم من المهمشين الذين استبعدوا في عملية اعادة توزيع الريع النفطي خلال السنوات السابقة. ورغم تنامي الجهاز البيروقراطي للدولة الذي وصل الى أربعة ملايين موظف يعتاشون على

الموازنة العامة فقد ظلت فئات وشرائح واسعة مغيبة، ولا نصيب لها سواء على شكل تأمينات او اعانات أو خدمات في الصحة والتعليم والاسكان. مقابل ذلك تفاقم الفساد والثراء الفاحش لفئات من البيروقراطية الحكومية والمتعهدين والاثرياء الجدد الذين تربطهم بالطغمة الحاكمة علاقة زبائنية من مصالح مادية ووشائج سياسية ومذهبية. نتيجة لذلك اتسعت الفجوة بين أغلبية الشعب والقوى المتنفذة في البرلمان والحكومة والمجال السياسي، ولم يعد التجييش الطائفي قادرا على ردم الفجوة او تخفيف آثارها. بعد انحسار تحديات الخطر الارهابي ازدادت النقلة النوعية من صراع المكونات الى صراع الطبقات. ترافق ذلك مع استعصاء العملية السياسية حتى وصلت الى أفق مسدود.

في انتفاضة تشرين لم تتصدر الاحزاب المشهد، رغم انحياز بعضها الى مطالب الانتفاضة العادلة والى روحها الاقتحامية. المنتفضون استعانوا بوسائل التواصل الاجتماعي لتكون ميدانا لنشاطاتهم واطارا تنظيميا. وهذا يشير الى ما يلعبه التطور التكنولوجي والمعلوماتي في حياة الشباب. ظاهرة العفوية في الانتفاضة ليست عيباً، بل قد تكون واحداً من مصادر قوتها واستمرارها؛ إذ أنها استدرجت افواجا جديدة من الشباب، إضافة الى ان الفئة الحاكمة وأجهزتها الأمنية لم تستطع تحديد جهة بعينها تقود الانتفاضة. ثمة حشود في الميادين العامة وهناك تأييد شعبي واسع كما لو أن المجتمع كله ينتفض. جمهرة غفيرة من شباب الانتفاضة لم يكونوا مسيسين سابقاً أو أنهم انخرطوا في الحقل السياسي، أول مرة.. وهذا ما شكّل صدمة لقوى السلطة والنفوذ حتى اعترفوا بعجزهم ومسؤوليتهم عما وصلت إليه البلاد.

أين النقابات المهنية؟

لقد أصاب الخراب والتفكك القطاعات الانتاجية في الاقتصاد العراقي مثل الصناعة والزراعة. وبقدر ما أصابها من خراب وضعف طال النقابات والاتحادات والروابط المهنية. وقد تبدى هذا في ضعف دور النقابات في رفد الانتفاضة بطاقات جديدة ما عدا مبادرة لنقابة المعلمين في دعوتها لتعطيل الدوام في المدارس تضامنا مع شباب الانتفاضة. الإسلام السياسي نظر الى هذه الأطر المدنية (النقابات) بكبير من الازدراء والتجاهل، معولاً على الروابط التقليدية مثل العشائر والجماعات الدينية. لا يقتصر الأمر على الإسلاميين في العراق، بل على نظرائهم

في البلدان العربية الأخرى حيث علاقة التشنج والارتياب بين (حركة النهضة) في تونس و(الاتحاد التونسي للشغل). ليس غريبا أن تظهر لدى بعض أطياف الانتفاضة ميول (شعبوية) كالدعوة الى نظام رئاسي او معاداة الحزبية والتنديد بالأحزاب (كلها) دون تمييز أو اقتراح وصفة بونابرتية للخروج من مأزق الانسداد السياسي.

زهير الجزائري: أتحول الآن الى د. جاسم الحلفي الذي وظّف جزءا كبيراً من حياته في الاحتجاجات، وهي موضوع اطروحته في الدكتوراه. اريد ان ابقى في نفس الموضوع وهو قضية العفوية والتنظيم. ما هو توصيفك للفرق بين مظاهرات 2019 والتي سبقتها؟

د.جاسم الحلفي: طرح فكرة العفوية والتنظيم في الحركة الاحتجاجية يقودنا الى فهم الحركة الاحتجاجية وطبيعتها؛ إذ تعد إحدى آليات التغيير والتأثير في النظام الاجتماعي بشكل عام وبالنظام السياسي بشكل خاص، وهي بذلك ترتبط بالعمل السياسي ارتباطاً عضوياً كونها مؤلفة من مجموعة من الأفراد يرتبطون بمصالح معينة لتحقيق اهداف محددة.

كانت 1 تشرين فعالية احتجاجية ضمن الاحتجاجات التي سبقتها بأيام وصولاً إلى احتجاجات حملة الشهادات العليا التي جرى قمعها امام مكتب رئيس الوزراء. ولكن حجم القمع والقتل الذي تعرضت له هذه الحركة الاحتجاجية منذ

مساء اليوم الأول، أكسبها تعاطفا واسعا من الشباب وبمؤازرة واسعة من الشعب العراقي، خاصة بعد يوم 25 تشرين، فتحولت الى انتفاضة شعبية.

ويمكن هنا أن نستشهد بالانتفاضة الفرنسية عام 1968 فقد حدّد المفكرون الحركة الاحتجاجية الطلابية في باريس، كخط فاصل بين الحركات الاجتماعية القديمة والجديدة وذلك بعد ان هب طلبة باريس بحركة احتجاج غير مسبوقة سواء بسعة التحرك، او بالاهداف التي رفعتها، وبالطبيعة الاجتماعية التي تكونت منها، حيث التحق بها الفلاحون والعمال، ولاحقاً الشعب الفرنسي برمته، وتعدت حدود فرنسا ووصلت الى بلدان اوربية عديدة. وبهذا وضعت الحد الفاصل بين الحركات الاحتجاجية التقليدية التي تقودها النقابات "محدودة الهدف والعدد ومعلومة القيادة، الى حركة جديدة اذهلت علماء السياسة والفكر بعد ان انطلقت دون سابق انذار ودون ان تحدد لها قيادة معلومة وبدون خطوط وطرائق تنظيمية معتادة واجتاحت اوربا. اكيد أنها انطلقت نتيجة لتراكمات عديدة،

لكنها غير محدودة الهدف، انما مسّت النظام السياسي على الرغم من انها لم تغيره، وانتجت قطيعة معه واشرّت دور المواطن السياسي والذي كان ينحصر دائماً في زوايا محددة، قد تكون هامشية، فصار المواطن المحتج هو الفاعل السياسي وهو قائد بنفس الوقت. كذلك هو من يكتب ويصوغ الشعار، فتظهر هنا العفوية.. لكن في حالة استمرارها سوف تأخذ طابع التنظيم.

كذلك انتفاضة تشرين التي رفعت مطالب وطنية عامة، وكان الشعار (نريد وطن) بالغ الدلالة على تبني الشباب فهما عميقا للوطن، هو غير فهم طغمة الحكم التي اعتمدت على نهج المحاصصة الطائفية والاثنية، فيعني المطلب المذكور مما يعنيه (نريد وطن)، يحفظ كرامة مواطنية، وطن لن يسمح ان يكون ساحة للصراعات الدولية.

استمرت الانتفاضة وتواصلت فعالياتها وشملت اكثر محافظات العراق، وتعمقت شعاراتها قياسا بالحركات التي سبقتها.. وبهذا يمكن القول إنها تحولت الى ثورة لم تستكمل شروطها. من شروط الثورة ان النظام السياسي لم يعد قادرا على ان يحكم بالطريقة السابقة، وفي نفس الوقت لم يعد مقبولاً من عامة الشعب.. كل هذه الشروط تنطبق على الوضع في العراق. لكن الفرق بين الثورة والانتفاضة هو وجود التنظيم، وجزء من التنظيم القيادة، فبدون ذلك لن تستكمل الثورة مسيرتها. المنتفضون يواجهون احزابا منظمة، لديها عمق في كل مؤسسات الدولة ولديها مليشيات وسلاح واعلام ومال سياسي. وهذا ما يشكل عائقا امام نجاح الثورة. عائق صعب بل خطر.

في حال بقي شباب الانتفاضة غير منظم وفي لحظات الغضب، حتى وان تصاعدت حدّة المواجهة واستطاعوا أن يحتلوا جميع الوزارات والبرلمان، وكذلك مجلس الوزراء، سيعجزون عن وضع بديل سياسي تنفيذي، وسرعان ما تعود السلطة والطغمة الحاكمة مجدداً، وسيسحقون هذه الانتفاضة او الثورة غير مكتملة الشروط.

الإصلاح أو التغيير؟

كيف تتشكل القيادة والتنظيم؟ ذكرنا سابقاً أن الانتفاضة تنطلق بشكل عفوي، وليس بالضرورة ان كل حركة احتجاجية تتحول الى انتفاضة او ثورة. الكثير من الفعاليات الاحتجاجية التي سبقت تشرين 2019 لم تتحول الى انتفاضة او ثورة. لكن في هذه اللحظة توافر الظرف الموضوعي والذاتي، ووصلت المواجهة الى ضرورة صدام الجديد مع القديم، لا ضرورة لان الصدام عنفياً، انما الكفاح السلمي والتمسك بالسلمية، شرط اتباع المغالبة، وليس المطالبة في تحقيق امور جزئية، وانما تحول من شعار الاصلاح الى التغيير. الثورة معنية بالتغيير في بنية النظام الذي بني على اساس المحاصصة، وشاع فيه الفساد وغابت عنه العدالة، والتغيير يريد اعادة بناء العملية السياسية على اساس المواطنة. لذلك عندما تستمر من المفترض

ان تتولد القيادة. ما من ضرورة لأن يكون هناك قائد واحد لهذه الثورة، او شكل تنظيمي معين او ثابت. الثورة ليست اطاراً سياسياً او وحدة سياسية. يمكن ان يتغير القادة تبعاً للظروف والإمكانيات، والبديل يكون عادة حاضراً وجاهزاً. وهذه الحركات تكون مركزيتها من مركزية الاهداف التي ترفع. وفي هذه اللحظات الفارقة اتسعت الهوة الطبقية والاجتماعية إلى فصل أخلاقي بين طغمة حاكمة مستبدة فاسدة، وبين شعب يتطلع الى حريته وكرامته. وإذا لم يصاحب هذه الثورة التنظيم لن تستكمل شروطها، وتبقى الخشية والخوف عليها وعلى هدفها النهائي.

زهير الجزائري: السؤال للسيدة بشرى ابو العيس عن التنظيم. ما لاحظته انه يوجد شكل من اشكال التنسيقيات. هل تستطيعين ان تشرحي لنا مآل هذه التنسيقيات الآن، وفي المستقبل ؟

زخم الشباب

بشرى بو العيس: بنية التنسيقيات او اللجان التي ظهرت في سوح الاعتصام بعد انتفاضة تشرين تختلف تماما عن سابقاتها، بسبب الزخم الكبير للشباب الذين تنحصر أعمارهم بين 15 - 25 سنة. في هذا الجو الشاب هناك قصور في فهم التنظيم ورفض وجود الاحزاب بالمطلق دون تمييز. وقد ساعد ذلك، ضعف اداء الأطر الديمقراطية كالنقابات والاتحاداتً.

نشأت هذه اللجان او التنسيقات بعد يوم 25/ تشرين الثاني 2019 بما يقارب شهر او اكثر قليلا، حين نصبت خيم الاعتصام في ساحات مركزية في بغداد (ساحة التحرير) والمراكز المهمة في محافظات الفرات الاوسط والجنوبية. قسم منها أمام أبنية المحافظات أو أبنية الحكومات المحلية، وهي نقاط تمركز الصراع بين المتظاهرين والسلطات التنفيذية. ما أريد أن اؤكده هنا ان اللجان او التنسيقيات بنيت على اساس التماسك الزماني والمكاني، وحصرت نفسها في سوح الاعتصام دون الانفتاح على مستوى المحافظة لزيادة القوة والتأثير. ولم تفتح اتصالاتها خارج الساحات لتوسيع المشاركة، ولم تخلق تنسيقا بين المحافظات لتوحيد الخطاب.

رفض التنظيم عند الشباب نابع من تخوفهم من نسخ الاحتجاج السابقة، معللين ذلك بكونها كانت متحزبة ولم تحقق المطالب. وهذا قصور في الوعي السياسي، لأن الاحتجاج هو في جوهره فعل سياسي تراكمي.

جائحة كورونا أثرت سلبا على هذه التشكيلات، ما أدى إلى انسحاب أعداد كبيرة من المنتفضين من الساحات. في نفس الوقت تعرض الكثير من الناشطين البارزين الى الاغتيال و الخطف او التغييب في حملة مبرمجة وشرسة. واخترقت الساحات عناصر مندسة من قبل احزاب المحاصصة.. كل هذه الظروف القاسية التي تعرض لها شباب الانتفاضة، بسبب عدم توحيد الجهود

وغياب التنظيم، اثرت على الاستمرار واعادة زخم الاحتجاج، بعد المماطلة والتهميش لمطالب الانتفاضة.

العامل الثاني هو ضعف دور الاطر الديمقراطية كالنقابات والاتحادات. ولم يكن هذا الضعف جديدا منذ انطلاق المظاهرات عام 2011. فرغم بروز دور نقابتي المعلمين والمحامين في انتفاضة تشرين واعلان نقابة المعلمين لعدة مرات، الاعتصام لكن بقي هذا الفعل، بعيدا عن مشاركة فاعلة ضمن التنسيقيات او اللجان على مستوى الساحات. ولذلك استمر البناء الافقي للتنسيقيات مع الخوف من التجارب السابقة وما يطلقون عليه (ركوب الموجة) من اطراف سياسية أو اطر تنظيمية اخرى، ساهمت في الانتفاضة. لكن الواقع اليوم يفرض على المؤمنين التغيير، والمستمرين في الفعل الاحتجاجي تنظيم صفوفهم، واختيار قيادات من الشباب الذين برزوا في الساحات من كافة المحافظات.

التنسيقيات

فارس حرّام: قبل أنْ أتحدث عن التنسيقيات. عندي مداخلة حول السردية الشيعية التي تفضل بها الدكتور فارس كمال نظمي، والتي علق عليها ايضا الدكتور حيدر سعيد، وهي نقطة مهمة جدا. هناك لحظات في تاريخ الامم المعاصرة التي تحولت من اللادولة إلى الدولة، تتحول فيها سردية الاغلبية الى السردية الوطنية. ابرز الامثلة هي سردية السود في جنوب افريقيا، فقد كانت عندهم سردية ومقولات وأطروحات خاصة بهم كسود، وهي تمثل من الناحية الديموغرافية "سردية الأغلبية"، لكن في لحظة فارقة وبمساعدة نلسون مانديلا وبعض القيادات الاخرى من السود والبيض معاً، انتقل السود من سرديتهم الخاصة بهم إلى فضاء أوسع، يؤسس لسردية وطنية تشمل الجميع، من دون أن يعني ذلك تخليهم عن سرديتهم الخاصة.

كذلك سردية البيض في الولايات المتحدة الامريكية في لحظة من اللحظات، وبمساعدة الكثير من الناشطين السود والبيض معاً، ومعها تحولات اجتماعية واقتصادية وسياسية، انتقلت البلاد من سردية بيضاء مسيطرة في كل مكان، إلى فضاء أوسع هو سردية وطنية تقبل الاختلاف اللوني والثقافي، والمجموعات السكانية الاقل عدداً، أصبحت تتقبلها وتتفاعل معها وتدخلها ضمن الإطار الوطني.

نحن الآن في العراق نمر بلحظة تاريخية، أعتقد من الأفضل منهجياً ان نربطها بهذين النموذجين، وان ندعم هذا النوع من الطرح وان نكرسه، لان هذا الدعم والتكريس سيخدم العراق سياسياً وثقافياً واجتماعياً. وقبل ذلك وبعده اقتصادياً. باعتقادي ان هذا من الناحية المنهجية أدق. هناك سردية للشيعة في العراق، لا سيما بعد الأحداث الكبرى الصادمة كالاحتلال الأمريكي العام 2003، وقبلها الاحتلال البريطاني مطلع القرن العشرين.. كلا هذين الاحتلالين

أعاد النظر والحوار بين السرديات الموجودة في داخل البلد، وشهدنا كيف تعاطت السردية الشيعية مع الاحتلال البريطاني، وفوتت على نفسها الكثير من الفرص، كي تتحول الى سردية جامعة للسرديات الاقل عدداً من الناحية السكانية. الآن هناك فرصة ذهبية أمام الشيعة لكي ينتقلوا من سرديتهم المذهبية (من دون أن يتخلوا عنها) إلى فضاء أوسع هو السردية الوطنية.. هذا الانتقال سيكون تأثيره بالغاً في حث الجميع على الالتحاق بالشيعة وتأسيس دولة المواطنة.

في التحولات التاريخية تقع المسؤولية الأكبر على الفئة الأكثر سكاناً، والشيعة من هذه الزاوية، وعبر ثورة تشرين يصنعون تاريخاً جديداً يجب على الألوان الأخرى في العراق التعلم منه، ودعمه وتكريسه لنحصل على الدولة العراقية المتمناة من الجميع. هذه الفرصة ستوفر للعراقيين الكثير من الدماء والدموع في المراحل القادمة، وستوفر إليهم الوقت من اجل إعادة بناء الاقتصاد وإعادة بناء الحياة بصورة عامة في البلد. كلما كانت في البلدان سرديات وطنية هي الأقوى والأكثر اتساعا تكون هذه البلدان هي الأكثر قربا من الاستقرار والازدهار والتطور.

بالنسبة للنقطة الثانية وهي سؤال حضرتك استاذ زهير فيما يتعلق بالساحات وتنسيقياتها. اريد ان اعلق على عبارات وردت عند الدكتور علي طاهر وعند السيدة بشرى ابو العيس وهي ان الناشطين دخلوا لاحقا في الموجة الثانية من التظاهرات (يوم 25 تشرين). انا استغرب هذه الأقوال. فاذا عدنا الى مساهمة الناشطين الأساسيين في التظاهرات السابقة وراجعنا فقط صفحاتهم في الفيسبوك في 1 تشرين الاول لشاهدنا كيف انه من لحظة ضرب المتظاهرين وسقوط جرحى وشهداء انخرط الكثير من الناشطين في هذه الثورة واستمروا الى هذا اليوم. اتذكر ان غالبيتهم كانوا موجودين في التحرير مع الأيام الأولى لتشرين. في النجف كانت الغالبية العظمى من ناشطي النجف منذ اليوم الأول منخرطين في الساحة. لا ادري اذن كيف يقال ان الناشطين التحقوا يوم 25 تشرين الاول. بيان النجف الذي صدر بتوقيع 55 ناشطا نجفياً صدر يوم 4 تشرين الأول في وقت مبكر من الثورة، ويومها لم يكن هناك أي بيان صادر من الساحات. حيث وقع 55 ناشطاً نجفياً على بيان مهم، شكل فيما بعد النواة لخارطة الطريق التي تتضمن استقالة الحكومة وقيام حكومة مؤقتة وتعديل قانون الانتخابات وانشاء مفوضية مستقلة واجراء انتخابات مبكرة تحت إشراف دولي.. كل هذه النقاط ركز عليها البيان وكان يومها اول بيان يصدر في الساحات. ومن ثمّ كان النزول بالساحة مبكرا وكان هناك اصدار لبيانات ونشاط اعلامي منذ اول ايام تشرين. ربما لم يكن الكثير من الناشطين منخرطين في الدعوة للمظاهرات وهذا امر طبيعي، ويتعلق بظروفهم او برؤيتهم.

النقطة الاخيرة حول التنسيق في الساحات، نحن نعاني كثيرا من هذه النقطة، وليس في احتجاجات 2019 الاخيرة، وانما منذ احتجاجات 2011 هناك مشكلة في قضية التنسيق. ظهرت في البداية مجموعة تنسيقية مؤلفة من مثقفين وفنانين وشعراء وادباء وسينمائيين ومسرحيين واعلاميين وناشطين مدنيين، كانوا هم نواة التنسيق للتظاهرات الاولى، ثم ظهرت انشقاقات فيما بينهم، وسرعان ما تحولوا الى مجموعات صغيرة، واخذت البيانات تتفرق بين هذه المجموعة وتلك، والانشطة تتوزع أيضا فيما بينهم، حتى وصلوا إلى الاتهام المتبادل والتخوين. وهذا طبعا يحتاج الى دراسة اجتماعية في مجال الاجتماع السياسي او الاجتماعي الثقافي، يحتاج الى فهم تلك اللحظة ولماذا فشل المثقفون العراقيون في تكوين تيار واضح، يكرس عملية قيادة التظاهرات اي قيادة كلاسيكية.

في تظاهرات 2019 لم تظهر هذه القيادة الكلاسيكية وانما ظهرت المجموعات الشبابية الكبيرة. أود الاشارة الى نقطة مهمة وهي لماذا لم تكن هناك قيادة للتظاهرات من 2011 الى الآن. ربما من 2011 والى 2019 هي بسبب الانشقاقات بين المثقفين وغيرهم، لكن اسباب 2019 تختلف نوعا ما. المشكلة الرابطة بين المرحلتين هي مشكلة عدم وجود تطابق او تقارب بالرؤية السياسية ورؤية التغيير بين المجموعات القيادية. لاحظنا في مؤتمر الاحتجاج الوحيد، الذي أقيم ببغداد مطلع العام 2016، ويتذكر الاستاذ جاسم الحلفي ذلك، كيف عانينا مدة 5 ساعات في مناقشة هل نعتمد الورقة التي قدمها مجموعة من الحاضرين في المؤتمر أم لا نعتمدها. لا اقصد نعتمدها بل نناقشها، ونضيف ونحذف لكي نخرج بورقة إصلاح للبلد، تمثلنا جميعاً! هناك مجموعة من المؤتمرين رفضوا مبدأ نقاش هذه الورقة من الأساس! وقالوا: "لم علينا ان نناقش ورقة كتبها غيرنا؟ هذا إملاء علينا" قلنا لهم حسناً اكتبوا انتم ورقة ودعونا نناقشها، قالوا لا نستطيع في هذه العجالة.. هذا مثال فقط حول فشل قيام قيادات كلاسيكية موحدة للتظاهرات. كانت قضية التنسيق الجماعي المباشر أمراً صعباً جداً.

التناغم بدل التنظيم

في 2019 كانت المشكلة هي مشكلة اتساع الساحة، فالساحة كانت منفتحة بشكل كبير ومخيف. بصراحة مخيف بمعنى انك تخشى التعاطي مع مجموعة ما لا تعرف خلفياتها، والمجموعات الأخرى أيضاً تخشى العمل معك لأنها لا تعرفك جيداً. ولهذا كان البديل الاصح برأيي عن القيادة هو ما نوهت به في الورقة التي نشرتها (الثقافة الجديدة) بأحد اعدادها للعام 2020، بعنوان "من يجب ان يقود التظاهرات؟". كانت فكرة التناغم عملياً هي التي هيمنت على ادارة التظاهرات، سواءً اخترنا هذا أو لم نختره. فمثلا نحن وجدنا انه لا يوجد بيننا

اتصال مباشر مع الناصرية والبصرة وبغداد في بعض المواقف، لكننا كنا نستجيب فورا وبشكل تلقائي لمجرد ان نعرف ان ساحة الناصرية ماذا قررت، ونحن نقرر من تلقاء ذاتنا وبقناعتنا لتشابه الأهداف والرؤى، وكذلك بغداد والبصرة. وهذا نوع من التنسيق انا اعتقد انه غير مسبوق في تظاهرات العراق. أتمنى ان تدرس هذه الظاهرة من متخصصين وأن يرفدونا بأمثلة عليها إن وجدت في ثورات سابقة، وأظن أنها جديدة في هذا المجال، إذا استثنينا بعض التنسيق المشابه نوعاً ما في ثورتي تونس ومصر، لكن ثورة تشرين تختلف، لانها كانت عبارة عن قيادات موزعة على مساحة المدن الثائرة، وكانت الاستجابة تحدث بشكل فوري بينها اعتماداً على مبدأ ''التناغم''، ومن دون تنسيق مباشر. لا ادري ما إذا كان هذا النوع من التنسيق في قيادة التظاهرات هو الاول من نوعه، وانا هنا اتحدث عن مبدأ التناغم ومفهوم التناغم، وقد بينته تفصيلياً في ورقتي التي أشرت إليها آنفاً. فالمنسقون في ساحة – على سبيل المثال - يتبنون موقفا موحدا من دون مشاورة مباشرة غالباً، ثم تتبنى الساحات جميعا موقفا موحدا. مثلا انظر الى مبدا الدوائر المتعددة في قانون الانتخابات، وهذا المبدأ بغض النظر عن مناقشته في ذاته كانت الساحات قد تبنته عن طريق التناغم، فلم نتصل فيما بيننا كساحات لنتفق حول هذا المبدأ، وانما تناغمت الساحات حوله. وتوجد امثلة لمواقف احتجاجية كثيرة، نشأت عن التناغم. وأعتقد أن من خواص ثورة تشرين، أنها قدمت مفهوماً جديداً في ادارة الثورات او إدارة الاحتجاجات هو مفهوم ''التناغم''.

زهير الجزائري: أنتقل الى الفارس الآخر، د. فارس نظمي، اعتقد أنك كتبت حول هذا الموضوع، حول العفوية والتنظيم، والآن أمامك أفكار الآخرين من المساهمين، فكيف تعلق على الموضوع؟

د. فارس كمال نظمي: لدي اعتراض على مفهوم ''العفوية'' كمصطلح. في الحقيقة، يمكن أن يطلق مصطلح العفوية على أحداث صغيرة، على إضراب هنا أو تظاهرة هناك. لكن أمام حدث كبير مثل الحدث التشريني ينبغي التحفظ على استخدام مصطلح العفوية. أنا قلت في المداخلة الأولى هو حدث يرتبط مرحلياً وجدلياً وديناميكياً بمراحل احتجاجية سابقة له، لذلك أعتقد أن الحديث عن العفوية قد لا يكون دقيقاً.

النقطة الاخرى التي أثيرت بشكل أساسي في هذه الندوة هي مسألة التنظيم والقيادات والافتقار للتنظيم. وأنا كنت ممن كتبوا عن هذا الامر منذ نوفمبر/ تشرين الثاني وديسمبر/ كانون الأول الماضي، إذ استخدمت حينها مصطلح ''الثورة الناقصة''، وقلت أنها ثورة، لكنها ثورة ناقصة أو غير مكتملة للأسباب التي وضحها الزملاء قبل قليل. لكننا قد نحتاج الآن الى تفكيك هذا الأمر بعض

الشيء. ففي الحقيقة علينا التمييز بين التنظيم الميداني والقيادات الميدانية من جهة، وبين القيادات السياسية للثورة من جهة أخرى. نعم، الثورة لم تُظهر أو لم تخلق قيادات سياسية أو فكرية واضحة لها، ولكن كان هناك قيادات ميدانية تمارس التنسيق والتنظيم اللوجستي عبر وسائل التواصل الاجتماعي بشكل أساسي. وبالتالي فإن الحديث يفترض أن يتوجه إلى الافتقار أو النقص في ظهور قيادات سياسية، وليس في ظهور قيادات تنظيمية تنسيقية ميدانية.

أعتقد أن من بين الأسباب الأساسية لعدم ظهور هذه القيادات السياسية، أو لعدم وجود إطار فكري أو حزبي أو سياسي لهذا الحراك، هو النظرة المثالية أو الطهرانية التي سادت عند هذا الجيل أي جيل ما بعد 2003 الذي أصبح يرى في الممارسة السياسية وكأنها نوع من الخطيئة أو نوع من الارتباط بالفساد. وهذه النظرة تم تعميمها وتحولت إلى فكرة تكاد أن تكون جمعية لدى الشباب التشريني في وقتها، إذ أعطاهم مبرراً للابتعاد عن "إثم" السياسة إذا صح التعبير. وقد أشار الأخ الاستاذ فارس حرام لذلك بشكل ضمني في حديثه قبل قليل. وبذلك ظل الحراك الاحتجاجي مستميتاً في إطار الغضب والاعتراض، ولكن دونما وجود تنظيم سياسي أو فكري واضح.

السبب الآخر هو ما يسمى بـ"النرجسية الاجتماعية" التي اشاعتها وسائل التواصل الاجتماعي. فالشاب اليوم بسبب ما تتيحه له وسائل التواصل هذه من أن يكون قائداً بشكل ما من خلال الموبايل أو الكيبورد، فإن هذا يعطيه نوعاً من الزهو الفردي أو النرجسية التي تجعله لا يتقبل وجود قادة سياسيين له، فيصبح الحراك عبر وسائل الاتصال حراكاً افقياً، الكل فيه قادة، والكل فيه لا يريدون أن تتم السيطرة عليهم أو تنظيمهم من قبل قادة سياسيين تراتبياً.

هذان العاملان، أي النظرة الطهرانية والنرجسية الاجتماعية، اشتغلا معا بقوة منذ بدايات الثورة، وهذا ما تمت الاشارة له وتشخيصه في سياقات كثيرة في هذه الندوة. لكن ما يهمنا اليوم ما دامت ندوتنا تتحدث عن الدروس، وهذا واحد من الدروس، وأيضاً تتحدث عن الآفاق، هو أن المراقب للإطار الاحتجاجي الشبابي بات يتلمس أن هناك عودة الى فكرة التنظيم، فجزء مهم من الشباب بدأوا اليوم بالتحدث عن أهمية ظهور كتلة أو جسم سياسي لهم. وأعتقد أن هذا يعد تطوراً إيجابياً يفترض الأخذ به والبناء عليه. نحن لا نستطيع أن نؤمثل هذه الثورة، أي أن نطلب منها أن تفعل كل شيء دفعة واحدة، وهذا ما تحدث عنه الدكتور حيدر سعيد، وقال ان هذا النوع من الثورات يحتاج الى زمن طويل ليظهر كل خواصه وكل تأثيراته، ولا يمكن خلال أسبوع أو شهر أو شهرين تحقيق كل شيء. ولذلك نشهد اليوم أن الحراك التشريني قد تشظى الى أربعة أو خمسة أو ستة محاور أو توجهات. لا ادري عددها بالضبط. أحد هذه التوجهات هو اليأس، فالبعض بات

يشعر اليوم بالخذلان والإحباط وانسحب من هذا الحراك. البعض الآخر من الشباب ما يزال مستغرقاً في صراعات داخل الحراك، إذ نرى جماعات متعددة وهي تمارس التخوين أو التخطئة حيال بعضها، في محاولة كل جماعة لتبيان صحة توجهاتها السابقة أو الحالية. ويوجد توجه آخر مهم لا أدري مدى شموليته أو تأثيره أصبح يرى أن لا حل سوى الحل الراديكالي العنفي، وهذا ما شهدنا نماذج منه في الأسابيع الاخيرة. وهناك جزء من هذا الحراك تم التواصل معه من قبل الحكومة الحالية، وهو يعتقد أن أفضل ما يمكن أن يحصل هو أن يقوي نفسه من خلال الحصول على موطئ قدم داخل الحكومة بإمكانياتها اللوجستية، وبالتالي هو قد يسعى الى الدخول في الانتخابات القادمة من خلال التفاهم مع الحكومة. كما يوجد توجه آخر بدأ يتصل حتى مع النخب السياسية والحزبية التي كان يعدّها خطاً أحمر في مرحلة سابقة، وهذه النخب السياسية بدأت بدورها تحاول أن تؤسس تنظيمات متفرعة منها بشكل غير رسمي بمسميات جديدة، كي تجذب جزءاً من الحراك الشبابي، وهنا حصلت عملية تلاقح بين هذه النخب التقليدية وبين جزء من الشباب التشريني من أجل احتوائه. وأخيراً، وإلى جانب كل هذه التوجهات، يوجد اليوم أيضاً تيار مهم، وأعتقد أنه يحتاج أن نشتغل معه فكرياً وميدانياً، ما يزال يعتقد أن الاحتجاج السلمي هو الأساسي في خياراته، ويعتقد أيضاً بإمكانية التقارب وحتى التحالف مع الجماعات المدنية والنقابات والمثقفين والأكاديميين الداعمين له وحتى مع الأحزاب والتنظيمات اليسارية. هذا التيار يعتقد أن الانتخابات ليست مطلباً أساسياً في هذه المرحلة، بل إنه يعتقد وكما ذكر د.حيدر أن الانتخابات لن تؤدي إلا لإعادة إنتاج الطبقة السياسية بمسميات جديدة، لذلك هو يعمل على مدى زمني بعيد ويريد أن يهيكل ثورة تشرين، وأن يحولها إلى تيار سياسي، فلديه نفس طويل، وهو يعتقد أن الزمن معه لكنه يحتاج الى دعم، وهو يقول ذلك جهاراً: إننا بحاجة الى خبرات المثقفين وخبرات الاحزاب والجماعات السياسية التي لديها تنظيم وتجربة ورؤية. أعتقد أن هذا التوجه أو هذا التيار يحتاج الى أن نفهمه أكثر وأن نقترب منه أكثر، وأن نعطي دعماً له، كي يقوم بعملية الهيكلة أي هيكلة ثورة تشرين.

د. علي طاهر الحمود: من المهم جدا ان لا نتعامل مع الاحتجاجات كأيدلوجيا غير قابلة للنقد. نحن مثقفون باحثون، وينبغي ان نمارس عملية النقد، نقد السلطة، والاحتجاج شكل من اشكال السلطة الاجتماعية. وأنا هنا أتكلم عن نفسي. الدكتور فارس اشار الى أن بعض اطياف الاحتجاج مؤمنة بالحل الراديكالي وهذا صحيح وينبغي ان نفهم لماذا، وأن نفهم كيف نتعامل مع هؤلاء بالحقيقة. واحدة من الاشياء التي انا سعيد بسماعها من الدكتور جاسم هو اني كنت من اوائل الذين كانوا يدعون الى وجود قيادة

للاحتجاجات، وكان اصدقاؤنا في الحزب الشيوعي يقولون إن الكل قياديون، ولا داعي ان يكون هناك متحدث واحد... الخ، ولكن أن تصل القناعة إلى أنه فعلا نحن بحاجة إلى وجود قيادة فإن هذا شيء مهم ومؤثر، وفي النهاية هذا ما كان ليحصل دون وجود النقد العلمي والبناء والكتابات العلمية. لفت انتباهي ما تحدث به د. فارس عن وجود قيادات تنسيقية ميدانية بشكل او بآخر، والان ينبغي ان يفتح الحوار بخصوص قيادات سياسية الطابع.. هنا ينبغي أن أنوه الى أهمية ان يكون هناك تنسيق حقيقي بين القيادات التنسيقية الميدانيين مع القيادات السياسية التي يقع على عاتقها قيادة الاحتجاجات بالعملية السياسية. ما لم يحصل ذلك ستحصل الفجوة مرة اخرى، وينبغي ان تكون للقيادات السياسية الشرعية والمشروعية الكافية لذلك.

نريد دولة

زهير الجزائري: دكتور حيدر لديك إضافة؟

د.حيدر سعيد: دعنا نتحدث بصراحة اكثر. أعتقد ان الفترة القادمة فيها تحديات كثيرة، وربما اشارت ست بشرى الى اكثر من تحد يعترض المرحلة القادمة. أولا دعنا نتحدث عن بدايات الثورة، وكان هناك اكثر من مكون داخل الثورة. تحدث د. فارس عن ثورة فقراء الشيعة، وانا لا اميل الى اعتبارها ثورة داخل مكون اجتماعي محدد. حتى وان كان جمهورها الاساسي يتحدرون من مذهب محدد، لكن في النهاية افقها وطني، وليس بالضرورة ان هؤلاء ينطلقون لغايات شيعية. بعض المثقفين المهمين والذين ينتمون الى الثورة وداعمين لها كتبوا ان هذه الثورة سجالها الاساسي هو الاصلاح داخل الجسم الشيعي. انا اختلف مع هذا، وحتى استخدام الرموز الحسينية انا اعتقد ان الغايات هي ليست غايات شيعية، فهذا اصلاح بأفق وطني. عند تحليل شعار الثورة الاساسي (نريد وطن) المقصود به (نريد دولة). كنت اراكم على الحركة الاحتجاجية، واعتقد ان تاريخها لم يبدأ من 2011، إنما من 2009 ومن شارع المتنبي الذي شهد مظاهرة للدفاع عن حرية التعبير بعد قيام احد رجال الدين بالتهجم على صديقنا الاستاذ (احمد عبدالحسين)، وشارك فيها جمهور من المثقفين، ثم جاءت 2011 وتأثير الربيع العربي. فالأساس في كل الحركة الاحتجاجية ولماذا تختلف 2019، هو إنها نمت في لحظات ضعف الدولة، في لحظات فشل الدولة في اداء خدماتها. الحركة الاحتجاجية جزء من الظاهرة الريعية، هو البحث عن الدولة الراعية. الذي حدث في 2019 والتحول الذي حدث والذي اعتقد انه يختلف عن كل التراكم من 2009. فقد انبثقت من رؤية عامة بأن هذا النظام لم يعد قابلاً للإصلاح، ولذلك لا بد من تغيير النظام او احداث اصلاح راديكالي داخله. والذي حدث بعد 25 تشرين 2019 هو دخول

الطبقة الوسطى الى الثورة. وبذلك انتقلنا من كونها ثورة المهمشين والفقراء، ثورة ضواحي المدن، الى ان حتى الطبقة الوسطى لم تعد تحس ان هذا النظام معبر عنها او يمثلها. ان الذي جعل الثورة ثورة هو دخول الطبقة الوسطى اليها.

من مكونات الثورة غير هذا الشباب الذي كان يبحث عن اطار سياسي، هو السجال داخل الفضاء الصدري، وبهذا علينا ان نتحدث بصراحة. عندما كنت اقوم بتحليل الثورة اكتشفت ان جزءاً كبيراً من الناشطين بالثورة لهم صلة بما يمكن ان نسميه (الفضاء الصدري)، اما من مدينة الصدر، واما من عوائل صدرية او كانوا صدريين في مرحلة ما في تاريخهم. وانا عندي تحليل ان جزءاً اساسياً من عوامل الثورة ما يمكن ان أسميه فعل (أوديبي) بمعنى الخروج عن جيل الاباء الصدريين، وان هذا الجيل اراد الخروج على ابائه الذين تماهوا مع الحركة الصدرية. في الفترة الاخيرة وحتى منذ ما قبل الجائحة، ومع الشباب المدني العلماني من اصحاب الافق الوطني، كان المكون الصدري مكونا اساسيا داخل الحركة. ومن غير الضروري ان يكونوا قد خرجوا بتعليمات من (السيد مقتدى الصدر). ما حدث في حركة 2015-2016 والتي بدات في 31/ تموز2015، وبعد ذلك دخل السيد مقتدى الصدر وتحولت الى حركة اصلاح. بينما ثورة تشرين 2019 بدأت وكأنما هي خارج القيادة الصدرية، لذلك في تقديري ظهر رد الفعل العنيف تجاه الحركة، والذي منه احداث كربلاء والتغريدات الاخيرة المعادية. في الثورة كان الناشطون والقادة المدنيون والعلمانيون يعتقدون ان هذا الحلف ما زال قائما، وان المكون الصدري هو جزء من الساحة، وهو جزء من الحركة، لكن هنا نحن ولأول مرة امام نقطة خلاف شديدة دون ان ادخل بتفاصيل التنسيقيات، لكن الخلاف الذي حدث والشق الذي حدث والتوجهات المتباينة والمسارات المختلفة بين مكوني الثورة عامل اساسي، سيؤثر في الفترة القادمة على المكون الاول، الذي لا يزال افقه وطنيا، ولا يؤمن ان العملية هي مجرد اصلاح داخل الجسم الشيعي؛ فشعار (نريد وطن) هو في جوهره (نريد دولة) هو اننا نريد وطنا ضد الطائفة. الجيل المولود في التسعينيات صار عمره تسع أو عشر سنوات عندما حصل التغيير عام 2003 . هذا الجيل لم يتشكل وعيه السياسي بعد، ولم يعرف الحقبة السابقة بشدتها، ونشأ في ظل هذا النظام الذي لا يعّرف المواطن الا من خلال طائفته او انتمائه الاثني. وبالتالي فان عبارة (استعادة الوطن) التي يستعملها جمهور واسع لا يتفق بالضرورة على معنى محدد. وهنا يجب ان يشتغل دور التأويل ودور المثقف ايضا بالتاكيد ان واحدا من معانيها هو ضد الطائفية. التحدي الذي سيظهر في انطلاقة الثورة الجديدة ونحن ننتظر التحشيد ليوم 25 تشرين الاول هو تحدي المكون الاخر، اي الصدري، التيار الآخر يريد ان يمضي بهذه الحركة

بافقها الوطني، وليس باي افق اخر، ونحن حتى وان استخدمنا رمز الحسين فنحن نريد دولة الجميع، دولة السنة والشيعة والمسيحيين والاكراد والتركمان، دولة كل المكونات الاثنية والدينية في العراق، وشباب الثورة مهما كان تعليمهم بسيطا، فانهم واعون بهذا الافق. وللاسف فإن بعض الاطراف ومن منطلق براغماتي يفضل التقسيم إلى معتدلين وصقور، ويعتقد أن المعتدلين داخل السلطة يمكن أن ينشقوا عن النظام ويكونوا جزءا من ادوات الاصلاح، إلا أن بعض اشكال التحولات في الانظمة السياسية، تنتج من خلال ازمات داخل السلطة عكس ذلك، حيث يجتمع المعتدلون مع متشددي السلطة في جبهة واحدة او خيط واحد. بالتالي، اعتقد ان الفترة القادمة فيها تحديات كبيرة، وبعض الشباب كما ذكر صديقي الاستاذ فارس بادروا الى تشكيل بعض التنظيمات، وحتى الاحزاب بدأوا يتهيؤون فعليا للدخول الى الانتخابات. لكني اعتقد ان التنوع داخل الحركة، بات اكثر مما كان في الروابط الجامعة. احيانا نقول انه ليس دائما من يقودون الثورات هم دائما اصحاب الرؤية، وانما اصحاب الادارة الداخلية للثورة. حتى ان بعض الـ (FIGURES) التي ظهرت بدأت وانتهت وحتى بروز بعض الاسماء القيادية داخل الثورة، ولنتحدث بصراحة فإن كثيرا منهم اصبحوا مشتتين إما خارج العراق او في كردستان او مختبئين بسبب العنف. وبتقديري ان كل هذه، تشكل تحديات في المرحلة القادمة.

هناء ادور: الحراك او الثورة تعيش مخاضا عسيرا من بدايتها ولحد الآن. التراكمات التي ادت الى هذا الغضب هي ليست فقط آنية، التراكم تأجج في 2018، فالجيل الشاب يرفض تدوير الطبقة السياسية الفاسدة.. تأشير هذا مهم، لأنه سيعطينا مستقبلا في الانتخابات القادمة، في حال حصولها، كيف سيكون الموقف إزاء هذا، وان ينبني موقف في هذا المجال.

الشيء الآخر الذي استجد وأشار له الزملاء هو قضية الرفض لأي تشكيل تنظيم، وانه يجب أن تكون القيادة أفقية. طبعا المخاض كان بمواجهة قمع شديد، وهذا القمع أدى الى غياب أو استشهاد عناصر لها دورها في داخل الساحات؛ ففي ميسان مثلا غيب القمع نخبة القيادة التي قادت الحراك من امجد الدهامات الى عبدالقدوس... الخ. ليس من السهل على الشباب ان يخرجوا من هذا التقليد، ويذهبون الى تشكيلة تنظيمية جديدة. الاحزاب التقليدية الموجودة حاولت ايضا ان تخترق الحراك، وتوجه ضربات شديدة من خلال محاولاتها تمزيق التنسيق بين المجموعات. لا يقتصر الأمر على الاحزاب الاسلامية التقليدية، وانما حتى الاحزاب التي كانت في طريق الاصلاح وجهت النار الى ثوار تشرين.

الموضوع يحتاج الى اكثر من تدخل للمثقفين، لتحريك عناصر الشباب في حوارات على قضايا السلطة، قضايا قانون الانتخابات، قانون الاحزاب... الدستور نفسه ايضا مطروح للنقاش في

ما بينهم وهم يتداولون. من خلال رؤية الشباب اليوم لاحظنا انهم يقوّون من تقدمهم خلال الاحتكاك مع السياسيين، وإنهم لم يخضعوا لضغط السياسيين عدا القلة القليلة التي ذهبت مع السياسيين ومع محاولة الحكومة تشكيل مجموعة قريبة منها. بشكل عام ما ألحظه من التنظيمات الاساسية هو عدم الاقتناع بما قدمته الحكومة، وحتى لديهم يأس من ان الحكومة لم تطرح المطاليب التي قدموها لاسيما الكشف عن الجناة والقتلة للناشطين والمتظاهرين.

امام الشباب تحدي قادم، وهو تحدي علينا نحن ان نلعب دورنا معهم بنوع من الدفع الايجابي لتشكيل تنظيمات معينة، وايضا من خلال الضغط على المجتمع الدولي، وهو يلعب دورا مهما في هذا الشأن. ضغط على المجتمع الدولي من اجل حماية هذه الثورة، من اجل تهيئة ظروف افضل لإشراك الشباب في تطلعات العملية السياسية. وهذا انعكس في اكثر من مداخلة لممثلة الامين العام للامم المتحدة في داخل مجلس الامن، وهي تؤكد قائلة ان الوقت ضيق امام السياسيين، وانهم فشلوا في هذا الاتجاه، ولم يحققوا لحد الآن اي مطلب. علينا ان نستخدم دورنا ليس فقط داخل الساحات، وانما ايضا في كيفية لجم الهجمة الشرسة التي تتعرض لها الثورة.

زهير الجزائري: شكرا للجميع.. أغنتنا مداخلاتكم كثيرا، وسيكون لها مكان بارز في العدد القادم من (الثقافة الجديدة) والعدد الذي بعده. ازددت اقتناعا بأن التحديات ستزداد، وفي نفس الوقت يجب ان نكون فاعلين من خلال احاديثنا ومن خلال كتاباتنا. وانا سعيد لأني رأيت اصدقاء لم أرهم منذ فترة طويلة.

مقـــــالات

انتفاضة تشرين وقتل الأب

حسين كركوش

يتحدث علم النفس (فرويد، تحديدا) عن فرضية انثروبولوجية حول قتل الأب في العشيرة البدائية، إذ هو رمز للسلطة القوية الباطشة، والذي بيده الأمور كلها ويحتكر كل شيء لنفسه. وبسبب ذلك يجتمع ابناؤه المحرمون من خيراته ويقررون الثورة على أبيهم وانتزاع سلطته وقتله. الا أن الخلاف سرعان ما ينشب بين الأبناء حول اقتسام الإرث فتنتشر الفوضى، ويشعر هؤلاء بالذنب وتتولد لديهم من جديد رغبة في إرساء السلم وترسيخ الأمن بينهم وإقامة سلطة رادعة قوية. ويعتبر فرويد ان هذا الشعور بالذنب المتوارث جيلا بعد جيل هو السر في استقرار ورسوخ مختلف المؤسسات والسلطة في المجتمع البشري. ويرى فرويد، وهذه مفارقة، أن قتل الأب يمنع القتل لاحقا. وهذا كله يعني أن الثورة أو التمرد أو الانتفاضة هي محاولة لقتل الاب من حيث هو رمز السلطة القديمة المتجبرة والمستبدة.

ومع فرضية قتل الأب يتحدث فرويد عن (عقدة أوديب). وفي التفاصيل تخلق عقدة أوديب أو المرحلة الأوديبية أفرادا تابعين أو يقدسون أو يدافعون عن سلطة الماضي، أي السلطة المتوارثة من الآباء والأجداد. وهذه المرحلة ربما تستمر مع الفرد حتى النهاية، أي أن العمر الزمني لا علاقة له باستمرارها ولا باختفائها. إنها تتوقف حالما ينضج الفرد ويقتل أباه (طبعا، بشكل مجازي) باعتبار الأب رمزا للقمع، والحرمان، والسلطة القوية المتشددة المتجبرة، والماضي القديم المتحجر.

ومثلما ينطبق هذا على الأفراد فأنه ينطبق على المجتمعات والأحزاب والحركات السياسية ومحاولات التغيير الكبرى، أيضا. وهذا الموضوع، أي فرضية قتل الأب، طُرح للنقاش في الغرب إثر تظاهرات أو ثورة الطلاب بفرنسا عام 1968، وكذلك بعد ظهور حركات الاحتجاج والتمرد (الهيبز) في ستينيات القرن الماضي، ثم أعيد طرحه للنقاش إثر تفجر ثورات الربيع العربي.

وفيما يخص الموضوع الذي نناقشه، أي انتفاضة تشرين، فأننا نفضل أن نبدأ بما حدث للخلافة العثمانية التي كان العراق تابعا لها، مرورا بالتغيرات السياسية والمجتمعية التي شهدها العراق منذ تأسيس دولته الحديثة حتى حدوث انتفاضة تشرين نهاية العام الماضي.

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى زالت الدولة العثمانية التي كانت تمثل آخر شكل

لدولة الخلافة الإسلامية منذ ظهور الإسلام، وظهرت مكانها جمهورية تركية حديثة، أسسها كمال أتاتورك، لا تمت بأي صلة للخلافة العثمانية. إذ قام أتاتورك بقطع كل الأواصر التي تربط تركيا الحديثة مع العالم القديم، أي الخلافة العثمانية، بما في ذلك اللغة. وكانت تلك أول محاولة كبرى في المنطقة لقتل الأب. ما فعله اتاتورك هو، قتل الأب، حتى بدون أي شعور بالذنب.

ومذاك عرف العالم العربي، الذي تخلص من الاحتلال العثماني، محاولات عديدة لقتل الأب، على غرار ما فعله اتاتورك. تمثلت تلك المحاولات بصعود وانتشار حركات وأفكار وفلسفات سياسية حديثة متنوعة: الليبرالية، الاشتراكية، القومية العروبية، والماركسية.

وما كان العراق استثناء. فبعد الحرب الأولى تأسست دولة عراقية (حديثة) تسترشد بفكر ليبرالي تحديثي حر. وكانت تلك أول محاولة عراقية لقتل الأب، أي إحداث قطيعة مع الإرث المحافظ التراثي أو التقليدي، بشقيه الديني المتزمت، والمدني الاجتماعي المنغلق (الانغلاق العشائري، منع المرأة من الخروج من البيت) الذي كان سائدا في العراق العثماني.

ومنذ أيام التأسيس الأولى وطوال حقبة العهد الملكي ظلت الليبرالية بنزعتها التحديثية هي التي تتقدم، بينما كان أعدائها المحافظون في تراجع، رغم شراسة مقاومتهم لعملية التحديث.

ولو قارنا العراق (العثماني) بالعراق ما بعد تأسيس دولته الحديثة، فسنجد ان ما تم تحقيقه من إنجازات في المرحلة الثانية كان غير مسبوق، في تقدميته وحداثته الحضارية. صحيح، أن تلك الإنجازات كانت تظهر على استحياء، وبشكل منقوص، ألا أنها كانت بمثابة توديع للعالم القديم، خصوصا في مجالات احترام الفرد، والحرية وان كانت نسبية، والعقل، والعدالة، والتسامح والاحتكام للشعب بإجراء انتخابات برلمانية، رغم كل عيوبها وتزييفها، وفي مجالات أخرى كثيرة في الحياة. تلك كانت إنجازات غير مسبوقة، ومرة ثانية نقول: لو قورنت بممارسات الخلافة العثمانية.

بالطبع، عملية التحديث تلك كانت تحظى برفض شرس من قبل التقليديين المتشبثين بالماضي، على المستوى الديني والمدني. وذاك أمر متوقع وبالإمكان تفهمه. لكن ذاك التفكير الليبرالي الحر (وتطبيقاته العملية، أيضا) لم يظل أمامه عدو واحد هو ، الفكر المحافظ التراثي المتمسك حد التقديس بالماضي، إنما حظى، بأعداء جدد أشداء، أو (أبناء) هم، القوى الماركسية والقوى القومية العروبية. ورغم الخلافات الآيدولوجية بينهم، فأن هؤلاء (الأبناء) اتفقوا على قتل الأب، وشرعوا يعملون سوية لتحقيق تلك الغاية.

وكما يحدث في فرضية فرويد الانثروبولوجية عندما يتفق الأبناء على قتل الأب في العشيرة البدائية، فإن القوى الماركسية والقومية العروبية تحالفوا في جبهة الاتحاد الوطني ونجحوا في التخلص من سلطة الأب، أي العهد الملكي الليبرالي في تموز 1958. لكن سرعان ما نشب الخلاف بين الطرفين حول اقتسام الإرث.

كان كل طرف منهم يرى أن ايدولوجيته

هي البرنامج الشامل الصحيح والمنزه عن الخطأ، وآيدولوجيا الآخر خطر لا بد من اجتثاثه. وبسبب هذا التنافس الشرس كانت المعارك بعد تموز 1958 بين الطرفين تدور، أحيانا، بالسلاح الأبيض. ثم، عندما تسنى للقوميين الوصول للحكم عام 1963 أبادوا، بالمعنى الحرفي لا المجازي، خصومهم الماركسيين.

لاحقا، عندما تعب الجميع عاد القوميون ثانية للحكم في تموز عام 1968. في عودتهم الثانية هذه قدموا أنفسهم كأصحاب مشروع تحديثي راديكالي وشامل يهدف لإتمام عملية قتل الأب التي بدأ بها الحداثويون والتنويريون العراقيون منذ بداية القرن الماضي، أي منذ تأسيس الدولة العراقية الحديثة. لكن تجربة حكمهم انتهت بظهور (أب) من نوع جديد أسمه صدام حسين هو، في آن واحد، القائد الضرورة، وحامي أعراض العراقيين، والمخّلص، والمسيطر والمهمين، طاعته واجبة وبطشه مقبول.

طوال حكم صدام لا وجود للفرد المستقل، ولا مكان للمبادرة الفردية. كانت توجد فقط ثقافة القطيع وغريزة القطيع، وسلوك الحشود؛ كل شيء موحد: زي موحد، تفكير موحد، وسلوك موحد. في هذه الحقبة كان شعار موسوليني هو السائد: (الكل لأجل الدولة، لا شيء خارج الدولة، لا شيء ضد الدولة). والدولة هي صدام حسين وصدام هو الدولة، كما كان يقول لويس الرابع عشر.

لكن صدام ليس لويس الرابع عشر والعراق ليس فرنسا، والتاريخ لا يكرر نفسه مرتين، وان فعل فالثانية تكون مهزلة. وكانت حقبة صدام حسين مهزلة. فبعد أن بدأت تجربة الحكم عام 1968 حداثوية بتطرف في كل المجالات، فأنها ماتت عام 2003 وهي نائمة في حضن الماضي السلفي أيام الخلافة العثمانية: السلطان المؤمن صدام حسين يقود حملة إيمانية، ويعيد المجد لكل ما رفضه المجتمع العراقي طوال مسيرته التحديثية.

ومثلما فر آخر سلاطين بني عثمان، عبد المجيد، إلى فرنسا، فر السلطان والأب والقائد الضرورة، صدام حسين، إلى حفرته التي بقى فيها حتى تم إخراجه منها أشعث الشعر، تاركا خلفه (أبناء) يواجهون مصيرا مجهولا، وهم يعانون من المهانة والخوف والإذلال والتدجين لشدة القمع الذي مارسه صدام ضدهم على مدى عقود.

هؤلاء (الأبناء) استيقظوا صباح التاسع من نيسان 2003 فوجدوا أمامهم جيوشا أجنبية محتلة، ووجدوا أحزابا وجماعات الإسلام السياسي. ولأنهم ما يزالون يعانون من الترويض والرعب، وافتقاد الاستقلالية وروح المبادرة، فما كان أمامهم خيار آخر غير مسايرة الواقع الجديد، وقبول (أبوة) هؤلاء (الآباء) الجدد، خصوصا وان هؤلاء الآباء يرتدون جلاليب مقدسة دينية مذهبية، ويخاطبون غرائز العراقيين لا عقولهم.

وبعد اندلاع الحرب الأهلية التي عززت ثقافة القطيع وسلوك الحشود، ترسخت سلطة الآباء الجدد، رغم أنها سلطة استبدادية لا تختلف عن سلطة صدام حسين. لكن الاستبداد، هذه المرة، صعد من أسفل الهرم أو القاعدة أو الجماهير، ولم يتم فرضه من أعلى هرم السلطة: الجماهير هي التي انتخبت.

وكما كان الأمر مع صدام حسين، فان قوى الإسلام السياسي، بكل أطيافها، تعاملت مع النصوص الدينية كآيدولوجيا لا يأتيها الخطأ، لأنها منزلة من السماء. لكن هناك فرق جوهري بين الماركسيين والقوميين، من جهة، وبين قوى الإسلام السياسي التي تصدت لقيادة المجتمع العراقي بعد زوال النظام السابق. الفرق يكمن في رؤية قوى الإسلام السياسي للعالم والمجتمع؛ انها رؤية منغلقة، تعيش في الماضي وتتغذى من الماضي وتحكم بقوانين الماضي، بحيث جعلها عاجزة تماما عن طرح آفاق مستقبلية.

هذه القوى وُلدت وهي محكومة بالفناء. ما أجّل فناءها أو موتها، هو وجود بقايا من الجيل المدجن، جيل الخوف. وبالضد من توقع هذه القوى بأن الديموغرافيا، أي الزيادة السكانية، ستكون لصالحها، فأنها خلقت لها أزمة عظيمة، بل وجودية.

الفتيان والفتيات الذين كانوا مراهقين عام 2003 كبروا ودخلوا سوق العمل، وهم الذين قادوا التظاهرات الاحتجاجية ضد الطبقة السياسية الحاكمة، ورددوا هتافهم الشهير (باسم الدين باكونا الحرامية)، رفضا منهم لتدنيس الدين واستغلاله لأغراض سياسية. والفتيان والفتيات الذين ولدوا عام 2003 وصلوا سن النضج ويشاركون الآن الأكبر سنا منهم في ساحات التظاهر.

هؤلاء كلهم نشأوا واشتدت سواعدهم في مرحلة انهيار جدار الخوف، وفي عصر الانترنيت والتواصل الاجتماعي. ومنذ بدايات وعيهم شرعوا يوجهون رسائل إنذار للطبقة الحاكمة خلاصتها: نحن وإياكم لا نسير في طريق واحد، ونحن نرفضكم، وإياكم أن تستهينوا بنا. لكن كلما صدرت اشارة من هذه الأجيال الشابة، فان القوى الحاكمة تتجاهلها أو تستهين بها أو تتعامل معها بمكر وخداع، حتى اندلعت اخيرا انتفاضة اكتوبر/ تشرين.

العنف اللفظي الذي تبناه المتظاهرون ضد أركان الحكم، عبر هتافاتهم وشعاراتهم، وكذلك حرق بعض قنصليات ايرانية، وإصرارهم على مواصلة التحدي رغم عدم تكافئ الطرفين، من جهة، والعنف المفرط الذي جوبه به المتظاهرون من قبل الحكومة والقوى المؤيدة لها، من جهة أخرى، ليس بدون مغزى. إنه تجسيد لحرب وجودية: يُقتل الأب وينتصر الابن ويحدث التغيير، أم ينتصر الأب وتتم معاقبة الابن ويبقى الوضع الراهن كما هو.

وعودة لفرويد، فان محاولة قتل الأب لا تحدث الا بوجود ابن تعرض لانتهاكات في طفولته وتربى تربية أخلاقية انقلب عليها، فيقتل الاب كمحاولة لإسكات صراعه الغريزي الداخلي. وهكذا هم الشباب المشاركون في انتفاضة تشرين. إنهم يصرون الآن على قتل الأب، حتى بدون شعور بالذنب، لكثرة ما مارس الأب من عمليات قمع وبطش وفساد ونهب للثروة العامة، ورهن أمور البلاد للأجنبي.

والأمر الجديد والواعد في انتفاضة تشرين هو، أن (الأب) الذي يصر المشاركون فيها على قتله، ليس الطبقة السياسية الحاكمة وحدها، وإنما منظومة المفاهيم السياسية والأخلاقية والمجتمعية، التي يرون أنها شاخت، ولم تعد صالحة. فهم ضد الدولة الأبوية، وأقل تمسكا بالمفاهيم والممارسات

البطريركية، وأكثر تمسكا باستقلالية الأنا وروح المبادرة الفردية، وأكثر رفضا لغريزة القطيع، وأكثر عشقا للحرية والممارسات الديمقراطية.

ورغم يفاعة أعمارهم ومحدودية تجاربهم وخبراتهم في الحياة، فأنهم غير ميالين لتقديس أو حتى التمسك بقائد أبوي. ومنذ انطلاقتها خلت الانتفاضة من (قيادة) أو قائد، وهذا أمر ذو دلالة مهمة للغاية ـ وهو عكس ما يحدث لأقرانهم في الحركات السياسية القائمة على اسس طائفية او اثنية . فالاخيرة هي، علاقة (الحشود) مع الزعيم أو القائد، وهي لا تستند على التفكير العقلاني الفرداني، كما انها ليست علاقة تعاقدية يسندها وعي بالحقوق والواجبات، بقدر ما هي علاقة عاطفية بين (أبناء) و(أب). ولا نجد في هتافاتهم وأهازيجهم سوى تمجيد القوة والتمسك بالعنف في أعلى حالاته لتحقيق الأهداف والاستعداد للموت، بينما يطغي على أفكار وسلوكيات شباب انتفاضة تشرين الطابع السلمي المسالم (سلمية، سلمية)، وعشقهم للحياة ومباهجها، وهذا نجده في الجداريات واللوحات التي أنجزوها، وفي عمليات ترميم وتنظيف الأماكن التي يتواجدون فيها. إنهم يعشقون الحياة، هكذا ببساطة، وبدون تأطيرات أو قيود آيدولوجية، وبدون مرجعيات سياسية وثقافية ودينية ومجتمعية، وبدون شنشنة أخلاقية. هم يقولون: نحن نحب الحياة، نقطة رأس السطر. أي، لا يضيفون لجملتهم: حد الموت أو التضحية أو الفناء أو المجد أو العزة أو الكرامة. هذه كلها مفردات تعود لخطاب سياسي/ ثقافي فحولي يتغنى بأمجاد لا وجود لها على الأرض. وشباب الانتفاضة يرون أن هذا الخطاب أصبح من الماضي، ويريدون التخلص منه لأنهم، ببساطة، لم يجنوا منه غير العوز والبطالة والتنمر ومصادرة الحريات، والقمع، والرصاص الذي يحصد أرواحهم يوميا وهم يتظاهرون.

أحد هتافاتهم الذي يستحق أن يتوقف عنده السياسيون وعلماء الاجتماع وعلماء التربية: (اليوم الكذلة اتسولف). (الكذلة) هنا لا تعني طبقة أو فئة اجتماعية بعينها، مثل فئة (الأفندية) في العراق في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. تلك كانت فئة منغلقة على نفسها وتتصرف باستعلاء وتعيش داخل (غيتو) لا يدخله ولا يقترب منه غير الأفندية. أما أصحاب (الكذلة)، المشاركون في التظاهرات فهم اقتحاميون، ومبادرون، وهدفهم تغيير الحياة نحو الأفضل. وأهزوجتهم عن (الكذلة) هي، في آن واحد رد على من يستهين بقدرتهم على إحداث التغيير، وتفنيد لمن يتهمهم بالميوعة وعدم الشعور بالمسؤولية.

إنهم جيل الغضب الذي لا يحتوي عقله ألا على لقاحات مركزة ضد الخوف، وضد المسكنة واستجداء المطالب.

التحول الخطابي بعد انتفاضة تشرين

هيام علي المرهج

مواليد بغداد 1997، بكالوريوس علوم سياسية من الجامعة المستنصرية، من ابرز مقالاتها المنشورة: الديمقراطية واشكالية التطبيق في العراق، احتجاج نحو الثورة، الاحتجاجات العراقية وصراع الثقافات السياسية الشباب، الثقافة في عراق الحاضر.

ترتبط الحركات الجماهيرية بفكرة مفادها أن مساراً ومنعطفاً جديداً على وشك الظهور سواء أكان على المستوى السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي، وهي بكل الأحوال مرتبطة بضرورة التغيير والتحرر من كل هيمنة: دينية أو سياسية أو اجتماعية تؤثر سلباً على حياة فئات واسعة من المجتمع.

قد لا تكون مسألة التحرر والتغيير حتمية أو سريعة الحدوث، فهي مسيرة طويلة وبطيئة لا يضمنها التغيير السياسي أو الاستيلاء على السلطة بقدر ايجاد فسحة من الحرية والديمقراطية لاستمرار النضال السياسي الذي سيكون عاملاً مهماً في عملية التحرر والتغيير السياسي والاجتماعي والاقتصادي والديني والفكري داخل المجتمعات.

وهذه الملامح للنضال السياسي والاحتجاجي بدأت بالوضوح داخل العراق بوصفها ردّة على الخراب والفساد الذي ينهش في الجسد الاجتماعي العراقي، والذي أثر بدوره على الهياكل الدينية والاقتصادية، هذا فضلاً عن إفادة شباب (الاحتجاجات) من الحرية المتاحة بشكل بسيط بفضل وسائل التواصل الاجتماعي والانفتاح على العالم وعلى التجارب الديمقراطية المختلفة للبلدان، والتي توفرت بعد التغيير السياسي في عراق ما بعد 2003 لتشهد الساحة العراقية السياسية ـ الاجتماعية سلسلة من الاحتجاجات كان سببها سوء الخدمات وبالأخص أزمة الكهرباء الأزلية خلال فصل الصيف والتي تعتبر شرارة الاحتجاجات الدائمة في عراق ما بعد 2003، حيث تلفتُ هذه الازمة انتباه العراقيين الى ما يعانوه من انعدام العدالة الاجتماعية المتمثلة بالفقر والبطالة وسوء الخدمات.

لم يكن اندلاع الاحتجاجات بالأمر الغريب على الشارع العراقي، وكان أغلب المراقبين في المجال السياسي والاجتماعي يعتقدون أن الاحتجاجات مرتبطة بأزمة الكهرباء خلال فصل الصيف فقط. ربما سيكون لهذا الرأي وجاهته ومنطقيته لو تعاملت الحكومة بقليل من الحكمة مع الاحتجاجات البسيطة التي كانت متناثرة أمام ابواب الوزارات لمجموعة

من خريجي البكلوريوس والدراسات العليا الباحثين عن فرص العمل.

ولكن التجاهل المستمر لمطاليبهم والقسوة المفرطة تجاه طلبة الدراسات العليا والاستهانة بشريحة شبابية كبيرة مهمشة وغاضبة أشعلت الروح الوطنية والانسانية والغضب المتراكم لتبدأ انتفاضة تشرين من هذه النقطة والتي توجت كل الحركات الاحتجاجية السابقة في عراق مابعد 3003 عن طريق سلميتها وخطابها الاحتجاجي المختلف الوعي الوطني والتكافل الاجتماعي والمسيرات الطلابية، لتصبح تشرين ايقونة وطنية عراقية نفضت الغبار عن مفهوم العدالة والمساواة والهوية الوطنية وكل هذه المفاهيم التي اندرجت تحت مظلة المفهوم الشامل وهو (الوطن) لتكتسب قدرة واسعة على تحريك الشعب نحو استعادة فكرة الدولة التي افرغت من محتواها خلال السنوات الماضية، لتعيد اليها معانيها الحقيقية القائمة على مبدأ (مجتمع يضم الجميع) ليكون مصدراً بذاته لفكرة الهوية.

لقد اخترقت القوة والروح الثورية والحماسية الكامنة في الانتفاضة الفئات الاجتماعية والمفاهيم الخاصة بالمجتمع السابق للثورة، إذ شكلت صدمة لبعض الفئات داخل المجتمع التي لم تستوعب فكرة التغيير أو التجديد في الافكار أو لأنها من فئات مُستفيدة من الوضع القائم، وهذا أمرٌ طبيعي لأن أسس الاختلاف النفسي بين خصوم الانتفاضة وأنصارها تعود بالدرجة الأساس الى عوامل بيئية اجتماعية، تتصل بعلاقة كلا الجانبين المختلفين بالأوضاع السياسية القائمة والقيم والأفكار السائدة ومصالح الطرفين المتناقضة. وهذا سيؤدي حتماً الى التوتر بين الطرفين الذي قد يصل الى حد النزاع، فالنزاع مهما كان شكله ونوعه وحدته يخضع لتعريف واحد وهو "شكل خاص لتفاعل الأفراد أو الجماعات الذين لا تتطابق مصالحهم".

في عبارة لغرامشي (1891 - 1937) يقول فيها "القديم يحتضر والجديد لا يستطيع أن يولد بعد وفي هذا الفاصل تظهر أعراض مرضية كثيرة وعظيمة في تنوعها"[1].

هذه العبارة كفيلة بتفسير جميع أشكال العنف التي شهدها العراق خلال فترة الانتفاضة والمستمرة الى الآن، فهو في الواقع ليس عنفاً سياسياً منظماً فقط، بل هو عنف اجتماعي نابع من أطراف اجتماعية رافضة لفكرة التغيير بناءً على عقد فكرية ايديولوجية ودينية وظروف اجتماعية غذّت بذرة العنف بشكل جيد.

إذن، هو عنف مصدره الصراع بين القديم والحديث، بين الماضي والحاضر، بين التقليدي و التجديدي، الأمر الذي سيجعله صراعاً من أجل الوجود على جميع المستويات: السياسية والاجتماعية والثقافية.

- **المستوى السياسي**

إن الحكومات عندما تفقد توازنها، تعاني من الفزع والتخبط والفوضى حتى تعجز عن مواجهة الأحداث بحنكة وحكمة سياسية، وقد تجلى هذا العجز الحكومي التام خلال أحداث تشرين منذ 1 /10 /2019 حيث عمدت السلطة الى اخماد الأصوات الجماهيرية عن طريق الرصاص، وما زاد الأمر تعقيداً أن عمليات القتل كانت عمليات ممنهجة نابعة من منظومة سياسية، ولم تكن تصرفات فردية. وهذا الاعتماد من السلطة على مثل

هذه الفصائل أو حتى على قطاعات معينة من الجيش في قمع الانتفاضات والحركات الجماهيرية الداخلية واستناد السلطة لها، قد يؤدي مستقبلاً الى انفلات هذه الآلة من يد الحكومة، فتعمل على توجيه السياسة، بدلاً من أن توجهها. وقد أصبح هذا واضحاً خلال هذه الفترة، حيث سيطرت جهات معينة على القرار السياسي وعلى ادارة العملية السياسية في البلاد.

لا يوجد نظام سياسي يحظى بقول جميع أفراد المجتمع وهذا أمرٌ طبيعي، لكن أفضل النظم السياسية هي النظم التي تستطيع احتواء الاختلافات والمتغيرات داخل المجتمع، وتحولها الى أداة منتجة ومحفزة للنظام نحو التطور والاستقرار، بدلًا من التعارض والاصطدام وهذا ما لم يدركه القادة في العراق وكانت النتيجة ضغط جماهيري كبير، لم تثنِه الأساليب القمعية بل زادته تحديا واصرارا، أديا الى استقالة حكومة رئيس الوزراء (عادل عبد المهدي).

أدركت الشخصيات السياسية المُرشحة للوصول الى رئاسة الحكومة، بأن الخطاب السياسي القديم القائم على التخندق والطائفية وسياسة المحاور، لم يعد يجدي نفعاً لأنهم أمام جيل جديد ليس عمرياً فقط، بل فكري وثقافي واجتماعي وسلوكي فهو جيل الديمقراطية والتكنلوجيا والثورة المعلوماتية.

إنه جيل يحمل شعاراً هو المُتمنى (نُريد وطناً)، هذا الشعار الذي يبدو ظاهره بسيطا، ولكنه صعب جداً بالنسبة لطبقة سياسية أوغلت في فسادها وتخبطها في ادارة البلاد وتبعيتها!

(أريد وطناً) تعني أريد وطناً خاليا من الفساد، ومن البطالة والفقر والحرمان والاذلال. غايته تحقيق عدالة اجتماعية وسياسية، حياة فيها رفاهية، تعليم وصحة وخدمات وكهرباء (نازل آخذ حقي) الذي هو كل ذلك.

مقابل ذلك ظهر لنا خطاب سياسي، يحاول أن يتماهى مع خطاب تشرين، ويحاول تصدير نفسه على أنه معبر حقيقي عن هذا الخطاب. ونستطيع معرفة ذلك من خلال مراجعة بسيطة للقاءات والبيانات المتعددة التي أدلى بها المرشحون لمنصب رئاسة الوزراء خلال تلك الفترة مثل (محمد شياع السوداني)، (محمد توفيق علاوي) و(عدنان الزرفي) وصولاً الى رئيس الوزراء الحالي (مصطفى الكاظمي).

بعيداً عن مدى جدية وحقيقة هذا الخطاب، ما نتحدث عنه هو بروز خطاب سياسي جديد يركز على السيادة، ويتحدث عن سياسة الانفتاح على الجميع، بما يخدم مصالح المجتمع، بعد أن كان خطاب المحاور والتخندق الطائفي هو السائد.

وهذا دليل على قوة الجماهير وتأثيرها، وهو ما أكد عليه (غوستاف لوبون) في كتابه (سيكولوجية الجماهير) حيث قال بأن "العصر الذي ندخل فيه الان هو عصر الجماهير. منذ قرن فقط كانت السياسة التقليدية هي التي تشكل العوامل الأساسية لتحريك الأحداث، ولم يكن لرأي الجماهير في الغالب الأعم أي قيمة"[2].

أما اليوم فنلاحظ أن التقاليد السياسية والتوجهات الفردية للحكام، لا تؤثر على مسار الأحداث إلا قليلاً. وقد أصبح صوت الجماهير راجحاً وغالباً. فهو الذي يملي على الحكام تصرفاتهم.

• **المستوى الاجتماعي**

ان مفهوم الشعب قد يكون مفهوماً ثورياً، خصوصاً في أواسط الشعوب المقهورة التي توشك على اكتشاف هويتها الوطنية أو اعادة تأكيدها عبر انخراطها في الحركات الاحتجاجية والانتفاضات والثورات، حيث تعد هذه الحركات الجماهيرية نقطة تحول فارقة في وعي الشعوب المقهورة سياسياً واجتماعياً وثقافياً.

فقد أصبح الشعب بعد انتفاضة تشرين أكثر ادراكاً بأنه فاعل كبير ضمن المعادلة السياسية القائمة، وهو قادر على قلب الموازين، بعد أن كانت ثقافة الخضوع والركون وعدم المبالاة في الشؤون السياسية، أصبح الشعب متابعا جيدا لطريقة تشكيل الحكومة وشخوص الكابينة الوزارية، ولكل تحركات القادة السياسيين وأعمالهم. كذلك اهتمامهم بالقوانين وتشريعها وادراكهم لمدى تأثيرها على حياتهم السياسية والاجتماعية منها قانون الانتخابات وقانون الأحزاب وقانون العنف الأسري، وهذا ما حول الثقافة السياسية لدى فئة ليست قليلة من الشعب الى ثقافة مساهمة بدلاً من ثقافة خضوع.

يقول صادق الأسود إن "الثورات أو الحركات الاحتجاجية ما هي إلا عملية اجتماعية تهدف إلى التوفيق بين ذهنيات الأفراد والمؤسسات القائمة في المجتمع"، أو بعبارة أخرى أن الثورات هي حركة اجتماعية لتقويض المؤسسات التي فقدت فاعليتها، واعادة بناء الروابط الاجتماعية على أسس جديدة، ووفقًا لهذا الرأي، أن بروز ثقافة سياسية جديدة لدى الأفراد داخل المجتمع أخذت تتعارض مع الثقافة السياسية التي يتبناها النظام السياسي ومؤسساته في العراق، وهذا التعارض وصل إلى مرحلة الصِدام عندما عجز النظام السياسي عن احتواء هذه التغييرات في ثقافة وذهنيات الأفراد داخل المجتمع"[3].

الثقافة السياسية العراقية بطبيعتها، هي ثقافة خضوع فالمواطن العراقي الذي اعتاد على التعامل بسلبية تجاه القضايا السياسية من دون أن يشعر بأن له دورا أو مسؤولية تجاه النظام السياسي، وأنه قادر على التغيير، والسبب في ذلك يكمن في غياب دور المؤسسات المسؤولة عن التنشئة الاجتماعية السياسية، فقد عملت الطبقة السياسية على تجهيل المواطن العراقي من خلال الحروب التي أدخلت فيها العراق، واعتمادها سياسة التجهيل وقتل الفاعلين وهجرة العقول، كلها عوامل أتت ثمارها وأنتجت ثقافة سياسية خاضعة وجاهلة.

تتأصل الثقافة السياسية بالوقائع العامة والتاريخ السياسي للمجتمع الذي ينتجه النظام السياسي وكذلك بالتجربة الشخصية للأفراد. وهذه التجربة الشخصية نستطيع أن نقول إنها عامل مهم في تكوين ثقافة سياسية مغايرة أي (ثقافة مساهمة) من خلال عصر العولمة والانفتاح الثقافي والتكنولوجي الذي حطم الحدود واستطاع تغيير نمط التفكير السائد والثقافة السياسية الخاضعة، وخصوصًا عندما أصبح الشاب العراقي قادرا على رؤية التجارب السياسية، وما انتجته من حياة مستقرة مرفهة في الدول الأخرى ما جعله، وببساطة، يخضع الطبقة السياسية وطريقتها في إدارة الدولة أمام التجارب السياسية للدول الأخرى.

لقد تمايزت ثقافة سياسية جديدة لدى

الأفراد داخل المجتمع، بما يجعلها تتعارض مع الثقافة السياسية التي يتبناها النظام السياسي ومؤسساته في العراق.

التجارب الشخصية وحدها غير كافية لأجل انتاج ثقافة سياسية مختلفة، لكن من الممكن أن تكون مؤثرة في خلق هذه الثقافة، عندما يتوفر الجو الملائم لها؛ فالثورات والانتفاضات السياسية والكوارث الاجتماعية والهجرة من وسط اجتماعي إلى وسط اجتماعي آخر. كل ذلك يساهم في تعليم ونشر الأنماط الجديدة من التفكير والسلوك.

وهنا أصبحنا أمام ثقافتين متناقضتين داخل المجتمع. وهما ثقافة خاضعة وأخرى مساهمة: الأولى نتاج التاريخ السياسي، والأخرى نتاج التجارب الشخصية والعصر السيبراني والظروف الراهنة المتمثلة بالانتفاضة.

• المستوى العقائدي

استطاعت حركة تشرين أن تُحيي القضية الحسينية بوصفها قضية إصلاح، بعد أن وظفتها أحزاب السلطة لتجهيل الجمهور الشيعي بتركيزها على المظاهر الطقوسية فقط.

أصبحت اليوم الكثير من المنابر والمواكب الحسينية واجهات لرفض الظلم والفساد والتجهيل، ومنادية بالحقوق، لتكون وسيلة ضغط جديدة وفاعلة في مواجهة السلطة وتعبئة الرأي العام، بعد أن استثمرت السلطة القضية الحسينية لسنوات طويلة، محاولة اضفاء الشرعية على وجودها، بعد خوائها السياسي وتراجع مقبوليتها داخل الشارع العراقي عن طريق توظيف القضية الحسينية لصالح تغذية الفكر الطائفي وترسيخيه من أجل الاستناد عليه في ممارسة السلطة والاستمرار فيها.

اليوم أعادت تشرين رمزانية القضية الحسينية الى الواقع المجتمعي بعيداً عن الاستثمار السياسي، لنعود الى أصل الاديان التي هي في صميمها ثورة اجتماعية، تحاول أن تخلق مجتمعا تعلو فيه القيم الانسانية على سواها.

• المستوى الخطابي الاحتجاجي

اذا ما حاولنا تفحص المجالات غير الانتاجية كالفنون والاداب والحركة الفكرية داخل البلد سنجدها من الضآلة التي تكون دليلاً يستشهدون به على تخلفنا وتأخرنا الكبير، قياساً بما وصلت اليه هذه الحركات في عالمنا المعاصر.

ربما استخدام عبارة "مجالات غير انتاجية" ليس موفقاً، حيث يمكن تحويل هذه الجزئيات الى أهم مصادر للإنتاج وللهوية الثقافية والوطنية داخل الدولة، من خلال توظيفها بالشكل الصحيح، فما جعل من كاتدرائية نوتردام من أهم المعالم سياحية في باريس ليس إلا العمل الروائي العظيم لرائعة فيكتور هيجو (أحدب نوتردام).

وعلى الرغم من الأهمية الفكرية والابداعية للشاعر الصوفي وسلطان العارفين وزعيم المولوية (جلال الدين الرومي) إلاَ أن الاهتمام به وذياع شهرته في عصرنا الراهن كان من خلال رواية (ايليف شافك) (قواعد العشق الأربعون) ما دفع السلطات التركية الى زيادة الاهتمام بضريح جلال الدين الرومي، ليجعلوا منه قبلة للسائحين، بل من أهم المعالم السياحية والثقافية في مدينة (قونيا) في تركيا، والذي أصبح يشكل مورداً

مهماً للدولة، نشط من حركة التجارة والعمل في المدينة.

وعلى الرغم من أن العراق زاخرٌ بالاسماء الأدبية والفنية والثقافية والفكرية، إلا أنها لم تلقَ اهتماماً يُذكر، وهناك اهمال متقصد لايجاد ميادين توفر للشباب مساحة كافية لكشف وتفريغ طاقاتهم الابداعية كالمهرجانات والنوادي الثقافية والفنية والمعارض والمسابقات..الخ. وهذا ما يفسر ميل الشباب للتعبير عن طاقاتهم الإبداعية، ففجروا الثورة بالفن، فكشفوا عن قدراتهم في جعل الجمال والفن أداتهم في توصيل رسالتهم، بعيداً عن ميادين العنف التي يزجون بها بين فترة واخرى من قبل الدولة، نتيجة تقصيرها في واجباتها الأمنية.

من الواضح أن بروز النزعة الوطنية الجديدة وتنامي الوعي الوطني وانبعاث الثقافات الوطنية المكبوتة لدى الشباب وجدت التعبير المثالي عنها في الاداب والموسيقى والفنون العامة، فقد عبّر الحضور الفني عن هذه المطالب وعن الرموز الوطنية والاحتجاجية من خلال ما يسمى (فن الشارع)، حيث تزينت جميع الجدران القريبة من ساحات الاحتجاج بمختلف اللوحات التي ترجمت معاناة الشباب ورغباتهم وطموحاتهم ومواهبهم.

اضافة الى فن الفوتوغراف الذي وثق كل اللحظات التي مرت بها الانتفاضة بطرق فنية مبتكرة وايضاً كان للمقطوعات الموسيقية وأنواع غنائية شبابية حديثة مثل الراب والغناء السريع (الشعبي) دورها في إعطاء جو حماسي للساحات، كذلك البازارات الفنية التي تحتوي على أعمال يدوية بسيطة وجميلة بعضها تحف لرموز الانتفاضة وشهدائها وبعضها اكسسوارات لأهم شعاراتها والأعمال المسرحية التي قام بها الشباب، كذلك سينما الثورة حيث عرضت مجموعة من الأفلام والوثائقيات المختلفة، كذلك كانت هناك جلسات ثقافية ـ حوارية تناقش موضوع الانتفاضة، وتبث الوعي الثوري والوطني لدى الشباب.

ولا ننسى الشعر والشعراء وحضوره في انتفاضة تشرين بكل ما فيه من حماسة في حضور أشكاله وتنوعاته في الفصيح والعامي، فهو زاد العراقيين الأزلي الذي لا يفارقهم ليكون المعبر عن مطالبهم.

هذا الخطاب الاحتجاجي الفني والثقافي بشكله الحديث التجديدي كان يستمد أصوله من التراث الوطني الذي لم تعرف الطبقات الحاكمة قيمته لخلق استقرار مجتمعي، بل عززت من فكرة ان التراث والتاريخ العراقي أحد أهم مرتكزات النزاع الاجتماعي.

إن انتفاضة تشرين اختزلت مطالب جميع الحركات الاحتجاجية السابقة التي كانت تحمل مطالب جزئية كالاصلاح الخدمي وتوفير فرص العمل تحت شعار يجمع كل المطالب السابقة، وهو الشعار الأساسي في الانتفاضة (نريد وطن)، واعتمدت على أساليب احتجاجية فريدة من نوعها ومبتكرة عكست الوعي والقدرات الشبابية الموجودة.

- **المستوى المفاهيمي**

خضعت هذه الانتفاضة الى تفسيرات مختلفة وجدل طويل في محاولة توصيف ما يحدث، أو لوضع مفهوم محدد لها استناداً الى آراء عديدة.

هل حركة تشرين ثورة أم انتفاضة على واقع سياسي واجتماعي واقتصادي متهالك؟

من ضمن الآراء التي كانت مثيرة للانتباه وفيها شيء من التجديد هي الآراء التي حاولت أن تفسر ما يحدث على أنه ثورة وليس انتفاضة أو حركة احتجاجية، لكن بالاستناد الى مفاهيم جديدة للثورة تختلف عن مفهومها الكلاسيكي التقليدي القديم.

يستند هذا الرأي الى فكرة مؤداها أن مفهوم الانتفاضة ومفهوم الثورة متقاربان الى حد التداخل، وتعد الانتفاضة جزءا من الثورة واحد تكتيكاتها، لذلك نستطيع أن نطلق وصف الثورة على تشرين لأنها تعتمد على فكرة الانتفاضات من أجل الوصول الى الهدف الاساسي، وهو التغيير الجذري في طبيعة المنظومة السياسية.

الحركة الاحتجاجية في العراق تفتقد القيادة والتنظيم ولكن هذا لا ينفي عنها صفة الثورية. يقول (كرين برنتون) إن من أشق الأمور على المرء في هذه الحياة أن يصف الناس أو الأنظمة دون أن يشعر بالميل إلى تغييرها، وهو أمر بلغت مشقته درجة صار معها أكثر الناس لا يدركون أن وصف الأشياء والرغبة في تغييرها شيئان منفصلان. وهنا تكمن صعوبة تحديد المفاهيم بدقة وحيادية في مجال العلوم الإنسانية"[4].

الثورة كلمة فضفاضة من الصعب وضع تعريف محدد لها، وعلى الرغم من أن كلمة ثورة تتضمن عدة معاني طبقًا لمجال استخدامها، إلا أن استخدامها الشائع أخذ يرادف أو يرتبط بكلمة "تغيير"، فالحديث عن الثورة السياسية أو الثورة الاجتماعية، أو الثورة الفكرية والثقافية والصناعية.. الخ، جميعها تقترن بضرورة إحداث التغيير الواضح والملموس.

أما من الناحية السياسية، فإن كلمة "ثورة" تعيد في أذهاننا صور الثورة الإنجليزية في القرن السابع عشر وما تلاها، والثورة الفرنسية وما أنتجته من تغييرات في القرن التاسع عشر والثورة الأمريكية والثورة الروسية، وقد ترتبط بالانقلابات والعنف الذي يقود إلى تغيير نظام سياسي أو جماعة سياسية بأخرى، كما حدث في العراق بعد أحداث 1958.

في هذا الإطار حاول الأستاذ الدكتور (عبد الرضا الطعان) في كتابه "الثورة"، أن يوضح مفهوم الثورة من خلال الاتجاهات الفكرية التي تناولت الموضوع بالبحث والتنظير، فأكد أن كل اتجاه فكري حاول أن يعرف الثورة أو يحدد شكلها بالطريقة التي تتفق مع وجهة نظره، فهناك من عرفها بدلالة المساهمة الشعبية، فالثورة لديهم تقترن بالمساهمة الشعبية التي تعمل على تهديم النظام القائم وتبني نظام جديد على أسس جديدة[5]. يقول (كاوتسكي) أن الثورة التي تعتمد مساهمة كل الشعب لن تكون ثورة وإنما إصلاح، فالثورة هي مشروع ثوري قائم على تغيير العلاقات الاجتماعية القائمة، فليس بالإمكان أن نتصور أن تغيير العلاقات الاجتماعية القائمة سيكون في مصلحة كل الشعب، فلا بد أن يوجد بين الشعب من سيتضرر من جراء تغيير العلاقات الاجتماعية القائمة، وبشكل خاص أولئك الذين ترتبط مصالحهم مع وجود واستمرار العلاقات الاجتماعية القائمة. وإلى هذا الرأي، ذهب (جان بايشلر) حيث أكد أنه لا توجد انتفاضة ثورية يقوم بها الشعب بصورة عامة ضد النخبة، فالشعب مكون بالأحرى من مجموعات اجتماعية مختلفة وذات مصالح متباينة.

أما الاتجاه الآخر، فقد ربط مفهوم الثورة بطبيعة العلاقات الاقتصادية داخل المجتمع، ولم يشترط المساهمة الشعبية، بل اكتفى بمجموعة أو أقلية تمتلك الوعي والكفاءة الثورية والتي تعمل على تحرير الشعب، وطبقًا لأصحاب هذا الرأي، فإن الثورة هي من عمل العناصر المتقدمة للطبقة الثورية، وان دور الشعب يتحدد أما بالإسناد اللاحق للثورة أو تهيئة المناخ اللازم لقيام الثورة.

وهنا نلتمس بوضوح اختلاف المفكرين في توصيف الثورة نفسها، فمنهم من يضيف عناصر، وينفي عن أي حركة صفة الثورة إن لم تتوافر فيها بعض العناصر التي حددها، ومنهم من يعتقد أنها فئوية، ومنهم من يعتقد أنها شعبية.. الخ وهناك من الباحثين في المجال السياسي من أجمع على عدة نقاط تمثل الحركة التي نستطيع تسميتها "ثورة"، أهمها: القيادة، التنظيم، الأهداف، المشروع، العنف، التغيير. وبغض النظر عن الأعداد التي تساهم في الحركة، فإن افتقارها إلى أحد هذه العناصر ينفي عنها صفة الثورة حسب وجهة النظر، التي عالجت موضوع الثورة لتصبح انتفاضة أو احتجاجا أو مظاهرة.

إن التغييرات التي تطال العالم في كل جوانبه وكسر الحدود الذي حدث بين الدول والثقافات والحضارات والشعوب، ممكن أن تنسحب إلى إطار المفاهيم، لتُنتَج لنا مفاهيم ذات طبيعة جديدة تختلف عن سابقاتها في سياق الشروط، وقد تلتقي معها في بعض النقاط، فظروف الحركات الجماهيرية ووسائلها هي أيضا في تغيير وتبدل، وكل ما ذكر سابقًا عن محاولات المفكرين والكتاب لتحديد المفهوم، بقي في هذه الحدود المختلف عليها، وإذا طبقنا أحداث وظروف الاحتجاجات في العراق، سنجد أن هناك عناصر تنطبق على بعض ما فسروه، وأخرى لا تنطبق، فهل هذا يعني أنها تندرج ضمن مفهوم الثورة؟

يعتقد أصحاب هذا الرأي أن الحركة الاحتجاجية في العراق، تفتقد القيادة والتنظيم والعنف، لكن هذا لا ينفي عنها صفة الثورية، لأنها وضعت قواعد جديدة تختلف عن سابقاتها، وهي ان تكون ثورة خارج السياقات والأطر التقليدية التي يضعها الباحثون، تسعى من خلالها الجماهير إلى التغيير عبر سبل ناعمة وسلمية، وقد لا يحدث التغيير مع هذه الوسائل بصورة سريعة وواضحة، لكنه تغيير تدريجي عن طريق حركات احتجاجية وانتفاضات ثورية متتابعة، وبقواعد غير تقليدية.

وهنا أستذكر كتابا بعنوان "الثورة بلا قيادات"[6] للكاتب (كارن روس) يستعرض فيه هذه الفكرة، فيتحدث عن تغيير قواعد الجماهير في التعبير عن رفضها وآرائها، فلا تحتاج الجماهير للقيادة والعنف من أجل التغيير وإحداث ثورة، بل هم قادرون على ذلك من خلال المبادئ، حيث تلعب الدور الأساسي في عمليات التغيير؛ اذ توفر مسار فعل أكثر قوة نحو التغيير، فالحركات الجماهيرية ذات الفاعلية الفردية بصيغتها الجديدة القائمة على السلمية والتعاونية ستحدث فرقًا غير متوقع، والفرد هو المحور المحرك داخل هذه الموجة.

التزام الفرد بمبادئ التغيير لن يحدث ثورة كوكبية بالطبع، ولكن إضفاء صفة الثورية على حياته، ممكن أن يجعل من الأفعال الصادرة منه حافزا للآخرين، لتكون

"ثورة بلا قيادة". ثورة ذات أسلوب جديد ومختلف. لكنها قادرة على قلب الموازين والتأثير وإحداث التغيير المطلوب.

هذه التغييرات ربما لن تكون ملموسة على المستوى القريب، لكنها بالتأكيد ستكون الأساس الذي سيغير من الخارطة السياسية والاجتماعية في العراق. وبكل الأحوال من المهم أن يكون في تاريخ العراق رمزيات اجتماعية - وطنية وحركات شبابية كهذه تثير العواطف وتلهم الشعراء والمفكرين وتعزز الروح الوطنية؛ فالأمم تحتاج في تاريخها الى ذاكرة جمعية تتغنى بها في مقارعة الظلم والطغيان لتكون رمزاً وهويةً لها، فلا وجود لدولة بلا هوية، ولا وجود لهوية بلا رموز.

لا ننفي الاشكاليات والسلبيات التي تعرضت لها الانتفاضة منها سوء التنظيم وسهولة اختراقها من قبل جهات تابعة ومسيسة وتركيزها على الفعل الاحتجاجي - الحماسي أكثر من بلورة المطالب والضغط باتجاهها، لكن طبيعتها الجماهيرية والتجديدية تجعل كل شيء ممكن الحدوث، ولا يكون سبباً في اسقاط رمزيتها وأهميتها في ايجاد هوية وطنية على شكل جديد.

مشكلة الهوية هي المعضلة الأساس في بناء الدولة، وهي تحتاج الى ارادة سياسية ومجتمعية حقيقية والى جهود فعلية وفق خطة مرسومة بدقة، كذلك الى مؤرخين يعيدون بناء وتنقيح التاريخ ليكون مصدراً للالتقاء بدل التفريق كذلك توظيف الدين ثقافياً في بناء الهوية وتحييده عن الدولة .العراقيون بأمس الحاجة الى استعادة ذاكرتهم الجمعية من خلال اعادة تشكيلها والاحتفاء بها. يقول (ميلان كونديرا) "ان معركة الحفاظ على الهوية هي معركة الحفاظ على الذاكرة".

الهوامش :

1- صوت الوطن،2020. هشام البستاني: في أهمية غرامشي اليوم - الفعل والطريق لتجاوز انسداد افاق الثورة.
2- غوستاف لوبون، سيكولوجية الجماهير، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع، 2015.
3- صادق الأسود: الاجتماع السياسي، مطابع جامعة الموصل، 1980.
4- كرين برنتون: الثورة.. عناصرها، تحليلها، نتائجها، ترجمة زياد عناب وشجاع الأسد، دار الكتاب العربي، بيروت 1965.
5- عبد الرضا الطعان: مفهوم الثورة، دار المعرفة، بغداد 1980.
6- كارن روس: الثورة بلا قيادات، ترجمة فاضل جكتر، عالم المعرفة، الكويت،2017.

انتفاضة اكتوبر 2019 في سنويتها الأولى - مهرُ النصر غالٍ*
تفاؤل الإرادة.. أم تشاؤم العقل!

د. صالح ياسر

ذات مرة قال لينين: " قد تمرّ عقود لا يقع فيها شيء يذكر، وقد تأتي أسابيع تقع فيها عقود". والواقع أنه في خلال عدة اسابيع وتحديدا منذ انطلاق شرارة الاحتجاجات في الاول من اكتوبر 2019 في بغداد وامتد لهيبها الى محافظات الوسط والجنوب، انقلبت الاوضاع رأساً على عقب، وانفتح الفضاء السياسي مجددا على آفاق جديدة تشي بالكثير الكثير. فقد شهدت الحركة الاحتجاجية والحراك الواسع الجديد تحولا مهما ولحظة فريدة في تاريخ البلاد بعد 2003 لترتقي الى مستوى انتفاضة شعبية حقيقية، كما اتخذ هذا التحول والحراك المجتمعي مسارات متعرجة واشكالا مختلفة ومعارك متنوعة. وهكذا أعادت الجماهير المنتفضة المعاني إلى الحقل السياسي، محولة النشاطات الاحتجاجية إلى قوة كبيرة قادرة على هز النظام المحاصصي - الطوائفي وإجباره على الاقرار بأحقية مطالب الجماهير الغاضبة رغم مناوراته ومحاولاته في تشويه الحركة الاحتجاجية والتشويش عليها بدمغها بوجود "مندسين" فيها، وذلك بهدف تبرير موجات القمع التي مورست ضد نشطائها والجماهير المحتجة عموما. ورغم كل القمع ومحاولات التشويه والضغوطات والملاحقات التي تعرض له نشطاؤها وناشطاتها، فان الاحتجاجات لم تتلعثم، بل امتلكت بلاغتها في التعبير عن غضبها، وبلورت شعاراتها ومطالبها العادلة في: تفكيك النظام المحاصصي – الطوائفي ورحيل الحكومة ورئيسها وتحسين الخدمات ومكافحة البطالة وتوفير مناصب عمل جديدة، والقضاء على الفساد واستعادة الاموال المنهوبة، وتحقيق العدالة الاجتماعية.. والكرامة .... الخ، التي انتهكها النظام المحاصصي/الطوائفي/الاثني.

اتخذت الازمات التي مرّ بها العراق، وخصوصا بعد 2003، والحراك المجتمعي مظاهر وأبعاداً مختلفة، واعتملت داخلهما وبسببهما تناقضات وترتبت عليهما تداعيات ونتائج... كلها تستحق وقفة تحليلية فاحصة؛ وصولاً إلى تحديد السمات الرئيسية للأزمة وطابعها العام، وبيان آثارها ونتائجها، وانتهاء باستشراف الاحتمالات والآفاق المستقبلية ثم بلورة اهم خلاصاتها الكبرى كدروس مفيدة لعملنا اللاحق.

اشكالية العفوية والوعي في الحركة الاحتجاجية

بمقابل ما انجز من جهود على صعيد تجذير الحركة الاحتجاجية واتساع قاعدتها وتعاظم تأثيرها فانه ومنذ انطلاقتها عاد مجددا، وتحت ذرائع مختلفة، السجال الذي لم يخبُ يوما عن "ضرورة" ابعاد الاحزاب السياسية عن الحركة الاحتجاجية (من دون تمييز ومن دون تحديد ملموس لتلك الاحزاب ومن المقصود منها) ..والهدف واضح: خلط الاوراق، وهذه "الضرورة" غير بريئة. فلا يجوز التعميم في ظروف الغليان، لأن ذلك يحمل دلالات عدة ويستوجب التوقف. فاشكالية العفوية/ الوعي في الحركة الاحتجاجية والانتفاضات الشعبية ليست جديدة وليست قضية ثانوية بل تقع في صلب النضال من اجل تطوير وتجذير الحركة الاحتجاجية والحراك المجتمعي عموما، ولا يجوز التقليل من اهميتها تحت اية ذريعة كانت.

نقد اطروحة "عفوية" الحركة الاحتجاجية

بداية، لا بد من العودة الى اطروحات مهمة ذكرها (غرامشي) بشأن العفوية عندما أشار الى انه من الممكن اعطاء تفسيرات مختلفة لكلمة "العفوية"، لأن الظاهرة التي تشير إليها هذه الكلمة هي ظاهرة متعددة الوجوه، مؤكدا انه ليس في التاريخ عفوية "بحتة"، فهي تتلازم مع الميكانيكية "البحتة". وفي هذا المجال فرّق (غرامشي) بين عناصر "ايديولوجية" بحتة وعناصر الممارسة العملية، بين باحثين يتبنون العفوية وسياسيين يتبنونها كمنهجية "سياسية".

وفي هذا المجال يتساءل غرامشي: هل يمكن للنظرية الحديثة ان تكون في موقع التعارض مع المشاعر "العفوية" للجماهير؟ يجيب: لا، لا يمكنهما ان تكونا في موقع التعارض، بل يؤكد (غرامشي) ان بينهما اختلافا "كميا"، واختلافا في المستوى، ولكن ليس بينهما اختلاف في النوعية... ان تجاهل او احتقار – وهو الاسوأ – النشاطات السياسية المسماة "عفوية"، أي التغاضي عن اعطائها التوجيه الواعي ورفعها الى مستوى ارقى بإدخالها في السياسة، كثيرا ما تكون له نتائج خطرة وجدية. وكثيرا ما يحصل ان تترافق الحركة "العفوية" للطبقات التابعة بحركة رجعية ليمين الطبقة السائدة (أو الائتلاف الطبقي المهيمن) تعود لأسباب متلازمة مثل ازمة اقتصادية، تؤدي الى استياء واسع في صفوف الطبقات التابعة والحركات الجماهيرية العفوية من جهة، ومن جهة اخرى تؤدي الى مؤامرات تحيكها المجموعات الرجعية التي تستغل الضعف الموضوعي للحكم لمحاولة القيام بالانقلاب[1].

العودة للتاريخ القريب مطلوبة

نعود الى اوضاع بلداننا العربية، فمنذ اندلاع الحركة الاحتجاجية والانتفاضات الشعبية في 2011 وما تلاها من موجات متتابعة خلال السنوات الماضية، جاءت سرعة الاحداث وتفاعلاتها وما اتخذته هذه الحركات الاحتجاجية من مسارات وحسم وسرعة، الى اعتبار البعض ما حدث مجرد "تعبير عفوي" عن اعتراض فئات من الشباب تواصلت على "فيسبوك" ومواقع التواصل الاجتماعي عموما. غير

ان العديد من الباحثين السوسيولوجيين انتقدوا هذه المقاربة، مؤكدين ان الاصرار على ''عفوية'' الانتفاضات ليس سوى محاولات للإبراء من المسؤولية العلمية ودعم للقول بعدم القدرة على التوقع. اما التركيز على الشباب دون غيرهم، فهو ازاحة للنظر عن ضرورة قراءة ''الحدث'' في سياقه المجتمعي المتكامل من جهة، والنظر الى ما حدث على انه ابن لحظته وليس نتاج تراكم نضالات طويلة وبعضها كان معمدا بالدم من جهة اخرى[2].

وهنا لا بد من استحضار احداث التاريخ القريب. فمثلا لو اخذنا الانتفاضة في تونس (2011) فإنها انطلقت من فعل يجمع بين شجاعة شخصية متميزة (احراق المواطن التونسي محمد بوعزيزي لنفسه) من جهة، ومأساوية الشرط الاجتماعي من جهة ثانية، لذا لابد من اعتبارها شرارة توافرت لها شروط الانتشار في هشيم أعده يأس معمم. وعلى الرغم من الالم الحارق الذي ساد في تونس بعد هذا الفعل، فان الشرارة لم تتوسع فورا، بل استمرت محصورة في مدينة البوعزيزي القصّية (سيدي بوزيد) اكثر من اسبوع كامل قبل ان تفعل فعلها في المدى التونسي الأوسع. وبمعنى آخر، كانت ''بيئة الاستقبال'' تتحضر، ودائما على قاعدة الحرمان من الكرامة والخبز والعمل.. الخ، وفي ذلك تجسدت ملاقاة الشرط الموضوعي بالشرط الذاتي في وحدة جدلية وانتجت فعليا نضاليا ثوريا عارما، حينما اطاح المنتفضون بنظام الحبيب بن علي.

من أين منشأ الالتباس في فهم العفوية؟

يدفع القصور في فهم تشكل اللحظة ''الثورية'' وعن صيرورتها واقعا ملموسا الى ابتداع التفسير الذي يقع في مجال الانبهار والابهار؛ فعندما لا يسعف التفسير العلمي، لا بأس في امتشاق حسام التكنولوجيا! وقد يجد هذا المسعى ما يكفيه من تأييد ثقافة التعويل على الغرائبي. فاذا كان تدبير الامور في الحياة مرهوناً بقدرة خارقة وغير مرئية، فما المانع اذاً ان تكون ''الثورة'' أو الانتفاضة من صنع الهام تكنولوجيا التواصل الالكتروني؟ ولهذا ارجع الباحث اللبناني المعروف جاك أ.قبانجي منشأ الالتباس في فهم العفوية الى التباس في فهم الانتفاضة والحركة الاحتجاجية ذاتها – وهو على صواب -؛ فهذه الاخيرة تشكلت خارج الاطر الملاحظة والمدروسة في الحياة السياسية في مختلف البلدان العربية وذلك لسببين[3]:

الاول: ان المعارضات الرسمية لم تكن عاكسة بدقة لما يحدث من اعتمال سياسي واجتماعي وثقافي – قيمي في مجتمعات البلدان العربية عموما، وهي التي ترددت كثيرا بالالتحاق بالانتفاضات الشعبية او جاءت اقسام منها متأخرة؛

الثاني: هو طابع القمع والعسف الذي كانت تتعرض له القوى الجذرية المناهضة للانظمة الحاكمة، بمرجعياتها المختلفة، حيث لم يكن متاحا لها التعبير عما تراه وتعمل له في ظل طغيان معمم لحالة الطوارئ.

وهكذا، انتقل ''المجال العام'' من الساحات والجماعات والنقابات والاحزاب والمنتديات الى عالم التواصل المسمى

بالعالم الافتراضي، وعالم التواصل هذا تمكن، بالمراوغة والمواجهة معا، من تحقيق تجاوز كامل او جزئي لسيف الرقابة الرسمية المسلط. وبذلك مارس القمع السلطوي دوره كاملا في اراضيه المعتادة، ولكنه عجز عن ذلك الى حد كبير في الحيز الذي لم يكن بعدُ مؤهلا لترويضه. وفي هذا الحيز بالتحديد، المربوط بوشائج متفاوتة القوة بما يحدث فعليا في الحياة المعيشية، تم تعميم النقد والأفكار التغييرية، والمطالب السياسية والقانونية والمعيشية التي انبثقت من نضالات عمالية وشعبية ميدانية. كما تم في رحاب التداول في اكثر الوسائل فعالية للتحرك وكذلك للتواصل مع افكار وتجارب انتجتها خبرات متعددة.

ومع ذلك، فان لعالم التواصل هذا حدودا لا يسهل تجاوزها؛ فهو عالم غير مفتوح، في ظل القمع والرقابة، على الممارسة السياسية المباشرة والحرة. وهو من ناحية ثانية محصور في من يتاح له الوصول إليه، ويتقن التعامل معه.

ان المقاربة العلمية الصحيحة لما جرى من انتفاضات وحركات اجتماعية ووضعها في سياقها الصحيح تستلزم التخلي عن النظرة المباشرة للظواهر المجتمعية – وهنا الانتفاضات التي حدثت مثالا – وتجنب النظر الى بعض تمظهراتها، واستبدال ذلك بالدخول الى عمق تلك الظواهر من خلال تخليص الاحداث التي وقعت من قيود اللحظة والقوالب التحليلية الجاهزة وادراجها في السياق المجتمعي الاوسع، بربط ذلك كله بالديناميات الاعمق والاكثر فعالية على المديين المتوسط والبعيد. هذا مع العلم ان غياب القيادة المسبقة المفترضة للانتفاضة أو للحركة الاحتجاجية لا يفسر عفويتها، فهو ليس خاصية عربية بل هناك تجارب أخرى مماثلة.

وهذا يدفع الى طرح سؤال آخر وهو: اذا كانت العفوية هي ما يميز اندلاع الانتفاضات، فكيف نفسر اذاً انتشارها على امتداد العديد من البلدان العربية؟ وبمعنى آخر هل كانت مجرد انتفاضات شباب فقط، مع كل الاعتزاز بدورهم هنا، أم انها انتفاضات شعبية تضم قوى مجتمعية واسعة ومتعددة المشارب؟

ان الاجابات على هذه الاسئلة تستدعي التأكيد على انه ومع أهمية الدور الذي نهض به الشباب حيث ابدعوا في استخدام "فيسبوك" ووسائل التواصل الاجتماعي الأخرى، وحولوها الى ادوات فعالة في الاخبار والتعبئة، وهم الذين حضروا بكثافة في الميادين فغمروها بديناميتهم وشعاراتهم وروح اقدامهم وشجاعتهم الفذّة، وهم الذين واجهوا العنف المنظم، ومنهم سقط الشهداء بالمئات والمصابين بالالاف، وهم الذين تمكنوا بصلابتهم وتصميمهم من "اسقاط النظام". إلا ان التحليل العلمي الصحيح يستلزم بالمقابل رؤية الدينامية المجتمعية بكليتها والتفاعلات التي حصلت بين الشباب والطبقات والفئات الشعبية الكادحة الاخرى والتي انتجت فعلا نضاليا عاصفا افضى الى النتائج المعروفة. ومن بين علائم ذلك ما يأتي[4]:

- إن هذه الشريحة تمكنت من ربط المطالب السياسية بالمطالب الاجتماعية والاقتصادية (وهو ما ينطبق على مظاهرات تموز 2018 وانتفاضة تشرين 2019). فمثلا حين كان رهان نظام حسني مبارك

في مصر يقوم دائما على عزل الطبقات والفئات "الخطرة" بعضها عن البعض الآخر، سقط هذا العزل عندما اضرب عمال غزل نسيج المحلة عدة مرات. ان النجاح الجزئي لهذا التحرك حفز قطاعات أخرى للنشاط وتكوين نقابات مستقلة، أي خارج الاطار السلطوي وان بقيت قطاعية وذات طابع محلي. ومن جانب اخر حفّزت انتفاضة تشرين 2019 وما حققته من منجزات تعمدت بالدم، قطاعات مجتمعية ومهنية عديدة كانت لاسابيع قليلة قبل اندلاع الانتفاضة تعيش على "هامش التاريخ".

- الامر الآخر المثير للانتباه هو ان "حركة شباب السادس من نيسان/ أبريل" في مصر انطلقت تحديدا في سياق نشاط تضامني مع تحرك عمال المحلة الكبرى في عام 2008. وهذه الحركة كانت من اكثر الداعمين الى انتفاضة كانون الثاني/ يناير 2011، بالاضافة الى "حركة خالد سعيد" التي جمعت عشية هذا التحرك المئات من الاعضاء الجدد على "فيسبوك" رغم ان النظام حينذاك كان يحاول – بمختلف الوسائل - تكميم افواه الجميع وشل حركتهم. ونفس الامر ينطبق على الحراك الطلابي في العراق بعد 25 تشرين الاول 2019 الذي اظهر دعما قويا لقوى الانتفاضة، ورفع من زخمها واسهم في تجذير مطالبها.

- في تونس، كانت ثمة خاصية ديمغرافية – اجتماعية لعبت دورا حاسما في تحريك الانتفاضة: البطالة بين الشباب من حاملي المؤهلات الجامعية. هنا اندمج الغضب في نظام التوقعات العالي لدى الخريجين في عجز النظام والرأسمالية المندرجة ضمن قيود الشراكة مع الجماعة الاوربية حيث اعتمدت هذه الاستراتيجية على قطاعين رئيسيين متميزين بكثافة العِمالة البسيطة، وهما قطاع النسيج والخياطة من جهة، وقطاع السياحة من جهة أخرى؛ وهو ما اضعف قدرتهما الاستعيابية من قوة العمل المتوسطة وعالية التأهيل، وهو ما ولّد شرارة تفجيرية عالية.

ان الملاحظات أعلاه تتيح القول ان الحراك المجتمعي الذي شهدته العديد من البلدان العربية في اوائل عام 2011 لم يكن عفويا او مفاجئا، إلا اذا اغفلنا عامل الزمن، وصيرورة المجتمعات، وهذا غير مقبول في التحليل السوسيولوجي. ويمكن الاتفاق مع بعض الباحثين[5]، على ان تجارب التاريخ تشير الى أن الحاجة إلى التغيير، والقدرة عليه، والإقدام الفعلي على خوض النضال من أجل وضعه موضع التطبيق العملي، ترتبط بعاملين:

عامل موضوعي يتمثل في وصول المجتمع السياسي إلى حدود الأزمة، وانقطاع عملية التواصل بين النظام السياسي والجماهير.

وعامل ذاتي يتمثل في إدراك الجماهير لقيمتهم الحقيقية كمؤثرين في استقرار النظام أو تغييره. وما لم يتوفر العامل الأخير، فحتى لو توفر الأول، تبقى الحاجة إلى التغيير قائمة، لكن دون إمكانية.

ليس الأمر إذا يقظة مفاجئة للجماهير من "سبات شتوي"، استغرق ما يربو على الاربعة عقود وإنما هو تحقق لشرط كان غائبا. جاء بفعل تفاعل عدة متغيرات من بينها ثلاثة رئيسة:

- متغير التعليم، وقد أفرز نتيجتين هما: الوعي، والقدرة على توظيفه - أي الوعي

- في إدراك قيمة الحرية كمدخل لإحداث التغيير.

- متغير اقتصادي اجتماعي، وقد أفرز كذلك نتيجتين: نمو فئات وشرائح متوحشة تتغذى على انعدام عدالة توزيع الدخل، واستشراء البطالة بسبب تخلف الهياكل الاقتصادية وتفاقم الفساد واتخاذه مديّات غير مسبوقة.

- متغير تواصلي، وقد أفرز بدوره نتيجتين:

* إطلاع الناس على ما يجري حقيقة في بلدانهم وفي العالم ومقارنته؛

* والقدرة على التواصل بينهم دون حدود أو قيود بالشكل السافر الذي كان طاغيا قبل الطفرة التي شهدها مؤخرا قطاع الاتصالات.

خلاصات كبرى- عام على اندلاع انتفاضة تشرين 2019

تتيح متابعة المسارات الكبرى التي اتخذتها انتفاضة تشرين ومساراتها الممهورة بالدم وتضحياتها الغالية وجموح شبابها اللامحدود بلورة الخلاصات الكبرى الآتية:

- الخلاصة الاولى: ان تواصل رياح التغيير إندفاعها، يؤكد أن نظم الطغيان والإستبداد مهما طال امد هيمنتها، مرفوضة وضد المجرى الموضوعي للتاريخ، ولابد ان تحل اللحظة التي يتوجب عليها مغادرة مسرح التاريخ الى مزبلته غير مأسوف عليها.

ان انتفاضة تشرين وما قبلها من انتفاضات سواء في العراق ام في مناطق ثانية اثبتت مرة أخرى جدوى القاعدة السوسيولوجية القائلة: "ان كل نسق مهما كانت صلابته مهدد بالتلاشي"، لأنه وبكل بساطة "يتوفر على كم محدود من الطاقة التي يقوم بصرفها للحفاظ على توازنه".

وهكذا كلما ازداد تصلب النسق system وادار ظهره للحراك المجتمعي من دون حل المشاكل الفعلية، كلما تضاعفت سرعة انحداره نحو التلاشي. وبحكم طبيعتها الأمنية والمتصلبة، لم تستطع هذه الانظمة ان تلتقط الإشارات التي شكلت في السابق مؤشرات على تدهور الاوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، "فالانساق المغلقة محكوم عليها بالتلاشي". وامثلة من قبيل نظام صدام حسين وحسني مبارك وبن علي وعلي عبد الله صالح... وغيرهم كثيرين ماثلة للعيان وتفقأ العين..

- الخلاصة الثانية: اعادة الاعتبار لمفهوم الثورة والانتفاضة باعتبارها ليس عملا فوقيا، انقلابيا، بل من صناعة الجماهير الطامحة للحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية. واكدت الاحداث في هذا المجال على ثلاثة جوانب هامة:

الجانب الاول: ان دحر القوى المهيمنة وكسر هيبتها ممكن ايضا عن طريق الانتفاضة الشعبية السلمية. الجانب الثاني، ويعني ذلك ان اشكال واساليب التغيير لا تتحدد سلفا عبر تنميط مفروض مسبقا، فالأمر كله مرتبط بجملة من العوامل وتناسبات القوى في اللحظة التاريخية الملموسة وموقف القوى الحاكمة والاساليب التي تستخدمها في مواجهة الحراك الجماهيري.

الجانب الثالث: أهمية التدرج في رفع الشعارات. لا بد من الاشارة هنا الى ان

الاحتجاجات الاجتماعية التي جرت في العديد من البلدان العربية وفي العراق ايضا لم تحدد اهدافها النهائية مسبقا، بل تدرجت في ذلك، وربطت تصعيد مطالبها بردة فعل الانظمة الحاكمة على الاحتجاجات، التي انطلقت لتصعد شعاراتها من "الشعب يريد اصلاح النظام " مرورا بالمطالبة بالديمقراطية والحريات وتحسين مستويات المعيشة، صعودا الى رفع شعار: "الشعب يريد اسقاط النظام".

- الخلاصة الثالثة: إن الوعي بضرورة التغيير ليس وليد الصدفة، وإنما هو نتاج عملية تطور تراكمي متواصل، يتولد من خلال المعاناة والشعور بالغبن والعسف وضرورة إزالته. والوعي بالتغيير يأخذ شكله المنظم والمرتب في إتجاه صيرورته في فعل ملموس وشعار ملموس، من خلال جهود القوى المنظمة القادرة ليس على الاطاحة بالانظمة وانما تقديم بدائل قابلة على الحياة.

ان التطور البطيء للصراع الطبقي خلال العقود الثلاثة الأخيرة في العديد من البلدان العربية لم يكن يعني علامة ضعف الطبقات الكادحة، وفي مقدمتها الطبقة العاملة في مساعيها للتحرر من الاستبداد والاستغلال والتهميش الاجتماعي المفرط، وإنما كان ذلك البطء عنوانا لعنف المواجهات الطبقية التي تختمر وتتهيأ للانفجار[6]. فهذه الطبقات لم تبق كما كان الشأن في ظل الصراعات الطبقية لعقدي الستينات والسبعينات وإنما في مواجهة برجوازية تابعة مدججة حتى اسنانها بالأسلحة وتستعمل ضد النضالات العمالية آلياتها الإيديولوجية المخدرة، الشوفينية والوطنياتية، والسياسية والقمعية.

- الخلاصة الرابعة: القدرة على دمج الاجتماعي بالديموقراطي في مطالب الشعوب وخصوصا الشباب منهم. فقد بيّن مسار الاحداث حساسية المتظاهرين من البطالة وعداءهم للنظام الاقتصادي الريعي/ الخدماتي، مربوطة بحساسيتهم بأهمية العدالة الاجتماعية والكرامة والحريات الفردية والجماعية.

وبيّن مسار الاحداث ان هناك علاقة وثيقة بين الخبز والحرية، فعلى الرغم من تقديم حكومة عادل عبد المهدي حزماً من الاجراءات الاقتصادية والاجتماعية، فإنّ انتفاضة الجماهير لم تتوقف. فقد رأى الشباب والمهنيون والطلبة وغيرهم من المنتفضين أنّ لقمة العيش مربوطة بحرية الصحافة، ورفع القيود عن الإنترنت، وحرية التعبير... الخ. وتحوّلت الشبكة العنكبوتية إلى أداة معرفية وتعبوية حاسمة، صنعتها قدرات بسيطة للأفراد، والمدوّنون والجمعيات لمعرفة ماذا يحصل والتواصل مع العالم، فهم ليسوا بحاجة إلى الإعلام الرسمي المزيّف.

- الخلاصة الخامسة، وتتمثل في اللحظة المهمة التي ينبغي تسجيلها هنا وهي الانتقال من التعبيرات الصامتة لدى الشباب او اللامبالاة بالشأن العام والانصراف عن السياسة، كما كان يزعم الكثيرون، ليتحول الى قاطرات محركة لعمليات الحراك الاجتماعي والانتفاضة الشعبية ليواجهون بصدور عارية عسف السلطة وعنفها السافر.

- الخلاصة السادسة: البعد الرمزي للانتفاضة اخذ أقصى مداه. فقد ظهر الشباب حاملو مطالب الانتفاضة أفراداً متعلمين،

سلاحهم الهاتف النقّال لأخذ الصور، والكمبيوتر المحمول للتواصل الاجتماعي. هم شبان وشابات، من مختلف الشرائح الاجتماعية، يحملون لافتات صُنِعَتْ باليد ويهتفون "سلمية.. سلمية". في المقابل مثلا عبّأ النظام المحاصصي كامل ترسانته من اجهزة القمع، ليقتحم عناصرها الساحات ويفتكون بالمتظاهرين السلميين.

لقد كشفت الاحتجاجات فاعلية شبكة الانترنت في نقل أخبار الاحتجاجات وتوثيقها وتعميم خبراتها، وأنها – كوسيلة أو اداة نضالية جديدة - تشكل عالماً موازياً خاض المحتجون والانظمة الحاكمة معاركهم فيه بالتوازي مع معارك العالم الواقعي. وأظهرت أيضاً بيئة افتراضية متضامنة بقدر كبير. لكن ظهر كذلك أن هناك نظاماً رسمياً متضامناً وفعالاً، في مواجهة مما كان يجري في مختلف الساحات، وحين لا يصف الإعلام الحكومي الاحتجاجات بأنها أعمال شغب او تضم مندسين ... الخ، فإنه يسكت عنها.

- الخلاصة السابعة: يُخطئ من يتصور ان ما حدث هو توقيت ذاتي ارادوي لانفجار الاحداث. فالامر ليس كذلك البتة، فقد شهد العالم في السنين الاخيرة تحولات وتطورات كثيرة هزت الكثير من القناعات والكثير من المعاقل.

فقد تم احتكار الاقتصاد العراقي عموماً، ونهبه من قبل التحالف البيروقراطي/ الطفيلي/ الكومبرادوي، وتزايدت الهوة الطبقية بصور وأشكال غير مسبوقة في تاريخ البلاد الحديث والمعاصر، الأمر الذي كان طبيعياً معه أن تشعر الطبقات الشعبية بأنّها لم تعد قادرة على القبول بتراكمات معاناتها وإذلالها واستغلالها، وبالتالي وجدت في الانتفاضة الشعبية فرصتها للقضاء على هيمنة الائتلاف المذكور ومجموعاته التي تنهب كل شيء، وتتحكم بكل سياسات الدولة وأجهزتها.

الخلاصة الثامنة: تجنب الاستخفاف بالاحتجاجات ذات الطابع المطلبي الفئوي، او نعتها بالشغب، والقول إنها من اختلاق القوى والجهات "المغرضة" التي لا تريد خيراً للدولة والمجتمع معاً! وقد بينت التجربة أن هذا الاستخفاف بالاحتجاجات ولد إحباطات كثيرة في أوساط المجتمع، وجعلها تفكر في تغيير أساليبها وربما كذلك رفع سقف مطالبها في كل نزول الى الشارع، بحيث يكون من الصعب إقامة أي نوع من التماثل بين حركة احتجاجية وأخرى. والملاحظ أن منحنى تطور هذه الاحتجاجات اتجه في الغالب الى التفاقم والتعقيد، الأمر الذي يفسر حدّة التناقضات الناشئة بين قمة النظام السياسي وقاعدة المجتمع الواسعة.

خلاصة القول انه ومهما كانت مآلات الانتفاضة الشعبية العارمة فان الاوضاع التي تلت الاول من تشرين الاول 2019 لا تماثل بأي حال اوضاع ما قبل هذا التاريخ.. قد تكون الانتفاضة احدثت نوعا من القطيعة في هذا المجال لكن نهاياتها لم تحسم بعد.. ان الانتفاضة تمر في طور انتقالي لا احد يعرف مدته... كما ان افاقها مفتوحة على كل الاحتمالات...

لكن، على الرغم من كل الاحتمالات المشوبة بعوامل القلق والمحاذير، إلا أنه يجب التأكيد على أن مجتمعنا يعيش اليوم على عتبة مرحلة جديدة من النهضة

بالمعنى الحداثي، تتجاوز نظام الاستبداد والمحاصصة، بمثل ما تتجاوز أيضاً المطلق الأيديولوجي الديني او شعار "الاسلام هو الحل" أو مظلومية الطائفة او القومية.

ثمة فكرة تقول بأن الحامل الموضوعي للتغيير الى الامام، هو الطبقات الشعبية حصراً، وأي تهميش لها أو لمَن يمثّلها داخل الحراك الاجتماعي والانتفاضات الشعبية، سيفضي حتماً إلى انهيار العملية من داخلها، لان هذا الحراك وهذه الانتفاضة لم تكن بطرا او تكرارا لموضة بل هي تعبيرات حقيقية عن انسداد الافق امام الجماهير المسحوقة التي تطحنها يوميا مفاعيل ازمة بنيوية متعددة الصُعد ولا تجد امامها أي افق للتغيير إلا عبر تطوير حركة احتجاجية تناضل من اجل تحقيق اهداف ملموسة لتغيير اوضاعها، لابد ان تتوجها بنصر يستحق كل هذه التضحيات.

ومن جهة اخرى، فان الابقاء على الحركة الاحتجاجية بدون قيادة سياسية، اي الابقاء على عفويتها و"عدم تسييسها" هي نقطة مقتلها. فالابقاء على العفوية ومن دون اهداف واضحة يسهل على القوى المتنفذة السيطرة على مثل هذه الحركات وتطويعها او اشغالها في معارك ثانوية. وفي حالة بلادنا يعد هذا هدف النظام المحاصصي الذي يحاول الآن المزج بين "العصا والجزرة" ولكنه – كقاعدة عامة - يصعّد في اجراءاته القمعية لتتحول الى ارهاب سافر، لا حدود له، في محاولة لشيطنة الحركة الاحتجاجية، وبالتالي تبرير قمعها عبر الرهان على الخيار الامني وامامها "النموذج السوري" مثالا قد يحتذى به !! .. ومجددا يخطئ المتنفذون عندما يراهنون على الاسلوب الامني لإدارة الصراع والهرب من الحلول ذات الطبيعة الاقتصادية/ الاجتماعية/ الثقافية... الخ. ان الرهان على الخيار الامني قد يورط البلاد في حرب اهلية ومجددا - المثال السوري يفقأ العين !!!!

وينبغي الآن، وبعد تطور الحركة الاحتجاجية وتعميدها بالدم في اكثر من موقعة، وفي مختلف المحافظات، يمكن توقع حدوث اصطفافات داخل هذه الحركة وبروز تيارات "راديكالية" بعضها بلا اهداف واضحة او باهداف ثانوية.. وفي حال استمرار الحركة بوتيرة تصاعدية سيتصاعد ايضا عنف السلطة وقمعها السافر وسيظهر "كاسرو الاعتصامات" كما حصل خلال تطور الانتفاضة، او كما حصل في لبنان مثلا، لضرب الجزء المنظم من الحركة الاحتجاجية تحت ذرائع مختلفة.. لذا لا بد من اعادة تنظيم الحركة وبناء تحالفات ميدانية جديدة، وتجنب اية مناورات من اي طرف كان يريد تعطيل هذه الحركة أو الهاءها في معارك ثانوية. ومن الضروري رفض اية محاولات لاستبعاد القوى المنظمة من هذا النشاط، فهذه القوى وليس غيرها هي من ادامت استمرار الاحتجاج، وواظبت عليه، وجعلت منه واقعا ملموسا يحشد القوى ويرفع الشعارات ويتصدى لسياسات النظام المحاصصي وممارساته وفساده، وانعدام اية رؤية لديه، للتغلب على المشكلات الفعلية التي تجتازها البلاد.

ان احتجاجات اكتوبر 2019 التي ارتقت الى انتفاضة شعبية بكل معنى الكلمة، تشكل تطورا نوعيا ولحظة فريدة في تاريخ الحركة

الاحتجاجية في العراق، فلا تجوز اضاعتها في دهاليز مناورات المتحاصصين او الاستحواذ عليها من قبل مغامرين من اي طرف كان؛ فالجماهير التي ملأت الساحات في بغداد ومحافظات الوسط والجنوب انتفضّت ضد طغيان التحالف البيروقراطي/ الطفيلي/ الكومبرادوري وممارساته وسياساته الخائبة التي عممت الفقر والبطالة والظلم والاستقطاب الاجتماعي والفساد.. الخ، وليس من اجل اعادة انتاجه بـ"طبعة جديدة".

وهكذا وبعد أن أخفق القمع ووصم المحتجين بنعوت شتى في تحقيق اهدافه في التعتيم على المطالب الحقيقية والمشكلات الحقيقية، اعترفت السلطة بشرعية الاحتجاجات وشرعية المطالب، وهو اعتراف موارب على أية حال. وقامت بتقديم "فرشة" من الاجراءات واطلقت كتلة من التخصيصات المالية (علما ان السلطة ظلت تتحجج على الدوام بعدم وجود الموارد اللازمة!!) لتنفيذ جملة من المشاريع في مناطق الاحتجاجات، ما اثار اسئلة عدة حول هذه الاجراءات ولماذا لم تجد طريقها إلا تحت مطرقة المحتجين الذي عانوا طويلا من الفقر والبطالة والفساد وسوء الخدمات والظلم الاجتماعي عموما.

الافاق والرهانات

بين تفاؤل الارادة.. وتشاؤم العقل !

السؤال اليوم هو معرفة كيف يمكن للحراك المجتمعي، الذي تطور الى انتفاضة شعبية عارمة، مواجهة عمليات الاحتواء على مختلف أنواعها، بل وحتّى الثورة المضادة؟

من المؤكد ان الطريق التي يسلكها المنتفضون نحو استعادة الحرية والكرامة ستكون طويلة وشاقّة.

في لحظة ما قد تصبح أعمال القمع اكثر وحشيّة، وقد تزداد وتيرة التدخّلات الخارجية، ملوّحة بشبح انقلاب عسكري او الحرب الأهليّة كواحد من السيناريوهات المحتملة البشعة.

ثمة اخطار عدة في مقدمتها خطر ظهور تناقضات إجتماعية بين الفئات الوسطى المدينية والطبقات الشعبية والفقيرة، التي أدّى توحّدها حتّى الآن إلى نجاح الحركات المطلبية، وتقدم الانتفاضة الشعبية وارتقائها الى مديات عليا.

طبعاً، يجب تلبية المطالب المحقّة التي تتعلّق بالأجور ومكافحة البطالة وتحسين الخدمات وتطوير التعليم...، لكن هذا الأمر قد يتمّ بشكلٍ أفضل في حال تمّ إخراج الجهاز الإنتاجي بسرعة من الاقتصاد الريعي، ذي الإنتاجية المحدودة والقيمة المضافة الضئيلة، وتوجيه الاستثمار الحكومي والخاص باتّجاه القطاعات المجدِّدة، والبحوث والتطوير، وتنويع الاقتصاد خارج القطاع العقاري والمالي وتجارة التوزيع.

ثمّ هناك خطر اخر، وهو الذي أراد المتنفذون المهزومون حتّى الآن المراهنة عليه: النزعات المناطقية والقبلية، وحتّى الانقسامات الطائفية. حتى اللحظة امكن تجاوز الرهان على هذا الخيار، لكن السؤال هو: من يضمن استمرار التجاوز وعدم الوقوع في الفخ؟

خلاصة القول: انه ومهما كانت مآلات الحراك الاجتماعي الجديد الذي شهدناه

ونشهده الآن فإن مرحلة جديدة قد بدأت، ويجب مواصلة هذا الحراك، وهذه الانتفاضة الشعبية العارمة حتى تحقيق اهدافها في: تفكيك النظام المحاصصي – الطوائفي وتحسين الخدمات ومكافحة البطالة وتوفير مناصب عمل جديدة، والقضاء على الفساد واستعادة الاموال المنهوبة، وتحقيق العدالة الاجتماعية.. والكرامة..الخ.

الحرية الحقة هي أولا ان يتحرر الانسان من نير الفقر والجهل والخوف وانعدام الحريات، فهي ضاربة الجذور في شروط الحياة المادية، فهل يفهم المتنفذون؟... انه سؤال برسم الاجابة! علما ان الحركة الاحتجاجية قالت كلمتها ولم تتلعثم أو تسكت وأظهرت ان لديها ما يكفي من روح المطاولة لإبقاء جذوتها مشتعلة رغم كل محاولات اخمادها والتي لن تحصل الا بزوال اسبابها.

وبيّنت تجارب كثيرة ان التاريخ لن يكون شاهد زورٍ ابدا!

*** جزء من عمل أوسع**

الهوامش:

1- قارن: فكر غرامشي. مختارات جمعها: كارلوس ساليناري وماريو سبينيلا، تعريب تحسين الشيخ علي (بيروت: دار الفارابي، بدون تاريخ)، ص154 – 155.

2- لمزيد من التفاصيل قارن: انظر التحليل الانتقادي العميق لهذه الاطروحات في عمل جاك.ا.قبانجي، "لماذا "فاجأتنا" انتفاضتا تونس ومصر؟ مقاربة سوسيولوجية"، اضافات، العدد الرابع عشر/ربيع 2011، ص 21 ولاحقا.

3- المصدر السابق، ص 23-22.

4- المصدر السابق، ص 25 ولاحقا.

5- قارن على سبيل المثال لا الحصر: محمد دده، الحراك الجماهيري العربي ثورة أم صناعة لفرصة سياسية؟ متاح على الانترنيت على الرابط التالي: http://www.aqlame.com/article4500.html

6- لمزيد من التفاصيل قارن: عبد السلام أديب، أية آفاق للانتفاضات المغاربية؟ "الحوار المتمدن"، العدد: 3241 ، 9 - 1 - 2011.

انتفاضة تشرين الوطنية والواقع الاقتصادي

د. حيدر عبد الامير الغريباوي

حيدر عبدالامير نعمة كاتب وباحث عراقي، حاصل على شهادة الدكتوراه فلسفة في الاقتصاد/ تخصص علاقات اقتصادية دولية، من كلية الادارة والاقتصاد/ من الجامعة المستنصرية، فضلاً عن بكالوريوس اقتصاد/ فرع تخطيط، من كلية الادارة والاقتصاد/ جامعة بغداد. مدير البحوث والدراسات في الشركة العامة لتجارة الحبوب، احدى تشكيلات وزارة التجارة العراقية. له مساهمات عديدة في المشاركة بالندوات والمؤتمرات العلمية التي تعقدها وزارة التجارة. نشر العديد من البحوث والدراسات العلمية والاقتصادية.

بوادر الانتفاضة

منذ 1 أكتوبر 2019 انطلقت التظاهرات في من قلب ساحة التحرير وسط العاصمة بغداد، بعد دعوات على مواقع التواصل الإجتماعي للاحتجاج ضد الحكومة، رافعة مطالبات بمحاربة الفساد وتوفير الخدمات وايجاد وظائف حكومية، فضلاً عن وضع حد لتدخل الأحزاب والكتل السياسية في العمل الحكومي وفصل الاستحقاق السياسي عن المناصب الحكومية وتأسيس مجلس الخدمة الاتحادي وتشكيل مجلس الإعمار، ليكون مسؤولاً عن كل المشاريع والخطط المستقبلية للبلد، وإيجاد فرص عمل للعاطلين عن العمل، ومحاربة الفساد.

الانتفاضة او الحراك الشعبي الحالي غير التقليدي لا يخضع لأي حزب أو تحالف أو شخصيات سياسية، والأهم أنها ليست تظاهرة شاملة منظمة في مكان واحد، إنما تظاهرات تفجرت في كل المدن العراقية. هذا الحراك وجه رسائل إلى الداخل العراقي والمجتمع الدولي على حد سواء.

ومنذ أن اندلعت الانتفاضة في بغداد انتشرت كالنار في الهشيم في الفرات الأوسط وبقية المحافظات الجنوبية، ودعمها كل الأبرار من زاخو الشماء إلى أم قصر المعطاء، ومن عظيم الشأن أن غالبية سكان هذه المناطق هم من العرب الشيعة الذين بذل الاحتلال وأذنابه أقصى جهدهم من أجل تجريدهم من عروبتهم وإفناء وطنيتهم باستغلال ماكر لانتمائهم المذهبي. طبيعة هذه التظاهرات أثارت مخاوف حقيقية لدى مجمل الطبقة السياسية الحاكمة. أما الملفت في هذه التظاهرات، فهو مشاركة فئات المجتمع كافة خلافاً لسابقتها من الاحتجاجات، وربما العامل

المشترك الوحيد بين هذه التظاهرات وتلك التي اندلعت في السنوات الماضية، هو مشاهد العنف وقتل المتظاهرين، حيث تجاوز عدد الضحايا لغاية 18 تشرين الثاني 320 قتيلا ونحو 15 الف مصاب.

إن "الأمر الذي ميز تعامل الحكومة مع المظاهرات الحالية هو استخدام القمع والعنف منذ اليوم الأول، ومحاولة كتم كافة الأصوات وقمع التظاهرات وإخمادها، بغض النظر عن الضحايا، فقد رأينا هناك استخداما مفرطا ومنذ اليوم الأول".

والبارز إن معظم المتظاهرين تقل أعمارهم عن العشرين، ولم يعيشوا عهد صدام حسين، وان تلك التظاهرات بلا قيادة معلنة ولا برنامج محدد، ولكنها تلقى تأييداً كبيراً من كل أطياف المجتمع من المناطق الشعبية الفقيرة، إلى الشرائح الغنية، كالأطباء والمهندسين الذين يرسلون رسائل دعم وتأييد، وصدرت بيانات عديدة لتنظيمات غير معروفة سابقاً تقول إنها تشارك في تنظيم الاحتجاجات, مثل (المتظاهرون الأحرار) و(ثوار الكرامة).

ومع تطوّر وصمود هذا الحراك الشعبي وفق تنظيم داخلي لا يسمح باختراقه، سيكون بحجم ثورات أوروبا الشرقية في بولندا وتشيكوسلوفاكيا قبل سقوط الاتحاد السوفياتي، قد يكون الوقت مناسبا للحديث عن الاقتصاد، لأنه زمن التغيير الذي سيقلب صفحات كثيرة مليئة بالفساد ونهب الاموال على أمل ان تجري المحاسبة السريعة لمرتكبيها، لكن متابعة مواقف بعض المؤسسات الدولية التي اغدقت العراق بالتوصيات والنظريات، ضرورية.

أسباب الانتفاضة

أن "أهم الأسباب التي دفعت المتظاهرين هو آثار العملية السياسية على شريحة الشباب، حيث طالب الشباب بالحقوق الشعبية والحياتية الرئيسة كالماء والكهرباء وتوفير فرص العمل"، إذ أن كل مطالب المتظاهرين سواء كانت سياسية أم خدمية، هي نتيجة فساد العملية السياسية التي نهبت ثروات العراقيين.

إن التحول في تظاهرات اليوم له أسباب، أبرزها تنامي الوعي لدى أبناء الشعب العراقي لاسيما الشريحة التي خرجت في الأيام الأولى لهذه المظاهرات. أن الانتفاضة اليوم تحاول تحقيق أهم المطالب وتغيير المنظومة السياسة الفاشلة، والتي أثبتت فشلها في تجربتها، وليس بالإمكان إعطاؤها فرصة أخرى بالاستمرار.

لقد توّسع الفقر والبطالة والعوز، ومظاهر التنمية مغيّبة عن أعينِ الناس وتطلعاتهم، ولتتصاعد مطالباتَ الانتفاضة خارج سقف الدستور عن غير قناعة بفاعلية إجراءات الحكم؛ فالحراك الشبابي الجديد في انتفاضة تشرين والثورة الشعبية التي تبدو اماراتها واضحة فيه، اسبابها كانت نتيجة منطقية لتداعيات عقد ونصف من الفساد والفوضى، والطائفية السياسية التي أزهقت العراق وطنا وشعبا. وأوصلت نسيجه الاجتماعي لمرحلة الاحتضار، وحطّت من اقتصاده إلى أدنى دركات القاع، فضلاً عن الانتهاكات اللامتناهية في أصنافها وأنماطها.

إن دوافع وأسباب "انتفاضة تشرين تميزت برفضها التبعية لأي دولة أجنبية، وهي لا تريد فقط إصلاح النظام السياسي وتحقيق العدالة للشعب، بل تريد أن يكون مستقلا بإرادته السياسية والعسكرية، حيث أدرك المنتفضون أن كل المطالب يمكن أن تتحقق بتغيير النظام الحالي"، مؤكدين أنهم أسقطوا القناع عن الحكومة التي تدعي الدفاع عن العراقيين.

يضاف الى جملة اسباب الانتفاضة، إزدياد وإتّساع أشكال التدخل الدولي والإقليمي بالشأن الداخلي العراقي، أكثر من أي وقت مضى، ولا يوجد ما يدل على قدرة الحكم على تجنّب معضلة زج العراق في صراع المحاور على ساحتهِ، فالمشكلة لا تكمن في الدساتير والقوانين، بقدر ما تكمن في الأرضية الأخلاقية ومجموعة القيم والمفاهيم التي تؤسس للمواطنة الحديثة، وكل هذا لا يأتي من فوق كمنحة من السلطة، بل من تحت عبر المطالب التي توجَّه للسلطة والنخبة السياسية برمتها، لذلك فهناك اسباب مهمة دعت إلى الدفاع عن أواصر المواطنة الناشئة والمتجسدة في "واقع الدولة".

العراق يعيش اليوم لحظته الحاسمة، كُتُب التاريخ ستسجل أن هذه اللحظة رسمت خطاً أحمر مداده دماء شباب العراق؛ خطاً يفصل الفكر الطائفي عن فكرة العراق التي مات من أجلها شباب وشابات لا يعرفون غير ذلك الوطن الذي سلب مستقبله منهم غدراً، ما فجر اسباب هيجان المشاعر نحو رمز الحرية العظيم في ساحة التحرير ببغداد، وهم يدورون حوله.

شعبية الانتفاضة

السخط الشعبي، التظاهرات، الانتفاضة، الربيع العراقي.. مصطلحات تستخدم للتعبير عن سخط وعدم رضا الشعب عن الأنظمة الحاكمة، كما تسعى هذه المصطلحات ذاتها لوصف المارقين وعملاء الدول الأجنبية، والفئة الهمجية من الشعب التي تسعى لخراب البلاد. ذاق الشعب العراقي الأمرّين، فقد عانى قبل 2003 وما زال يعاني بعدها، وكأنها علاقة ودّ وألفة قد نشأت بين الشعب العراقي وبين المعاناة، فأصبحا لا يطيقا فراق بعضهما، أو كأن المعاناة، الفقر، الحرمان، الظلم والطغيان..

الانتفاضة الشعبية عملية سياسية جديدة بعيدة عن كل أشكال الطائفية والعنصرية التي تضمنها الدستور الحاليّ، والإقرار بأن الخراب الحاصل كان أحد مفرزات هذا الدستور، والتعهد بالعمل على تمكين الشعب العراقي من حكم نفسه بنفسه.

ان الطبقة السياسية في العراق، طرحت رؤية مفادها أن التظاهرات والاحتجاجات تندلع وتستمر لفترة وجيزة، وتتوقف على اثرها جوانب من الحياة اليومية، ويذهب ضحيتها مجموعة من الافراد بين قتيل وجريح، وفي نهاية المطاف تكل الجماهير وتمل وينتهي كل شيء.

ربما أجمعت أعمدة الصحف وآراء المحللين على أن الحراك الشعبي الجاري في العراق منذ مطلع شهر تشرين الأول/ أكتوبر 2019 يعد مفاجأة على الأقل بالنسبة للسلطات الحكومية. ولعل مردَّ ذلك الى أن الشباب المتظاهرين تحرّروا في توجههم من أي تبعية مذهبية أو سياسية،

واستعلت أفكارهم على الانسياق وراء منهجية طائفية كانت حكومة بغداد تراهن عليها كورقة أساسية لإبقاء ما تحسبه أنه دعم جماهيري أو قاعدة شعبية لا ترتبط بها إلا بخيط من ادعاء الانتماء المذهبي.

كانت المرأة العراقية بكل أوضاعها الاجتماعية، من نساء كبيرات في السن يقدمن الخدمات للمتظاهرين من الطعام والتطبيب، إلى شابات الجامعات والمدارس اللواتي أدّين أدوارا مشرفة في حركة الاحتجاج، فضلاً عن دورهن في الطبابة والاهتمام بالجرحى في وحدات الميدان الطبية، وكان سلوكهن نموذجا للوعي الحضاري المتمثل بالمشاركة في كل ما يقوم به أقرانهن من الشباب، حتى في حملات تنظيف ساحات الاحتجاج. كل ذلك في خضم جو تسوده روح عالية من الانتماء والوطنية؛ إذ لم تشهد ساحات الاعتصام حالات تحرش، كما كان يشاهد في الشارع العراقي، وكل ذلك مثّل دلالة على السلوك القائم على التعاطي المحترم مع المرأة في الانتفاضة العراقية.

وقد أعطت المشاركة الطلابية والنقابية زخما كبيرا لحركة الاحتجاج الشعبية، وأخرجتها مما أريد لها من تغليفها بالعزلة واتهامها بالمؤامرة والدسائس من أحزاب الحكومة وقنواتها الإعلامية.

أولئك الشجعان الذين تظاهروا في أول أيام شهر تشرين من أجل حياة كريمة ومن أجل حقوقهم في الوطن، أولئك الأبطال الذين اغتالهم رصاص الغدر والجبن فأسقطهم من أغصان العراق وقد تفتّحوا للتو على العمر، هم الذين حفروا بتضحياتهم الغالية مسار هذا النهر الذي انتظره العراقيون طويلاً، والذي يهدر الآن بقوة في ساحات أرض الفراتين. لقد كان الشباب المهمّشون الكادحون، الذين تحتقرهم الطبقة السياسية، ومن تحالف معها من النخب الفاسدة، كانوا طلائع هذه الانتفاضة الباسلة.

لا بد من ترجمة هذا الزخم إلى هيكل سياسي منظم، يقوده الشباب، يديم الضغط، ويقوم بتمثيل كل هذه الشرائح التي قالت بصوت عال إن الأحزاب الحالية والطبقة السياسية لا تمثلها. هناك، بلا شك، حساسية بل قرف من مفردة حزب وأحزاب نتيجة للخراب الذي خلّفته الأحزاب الفاسدة.

هذا التوجه في ظل الضغط الشعبي وتوصيات المرجعية الدينية يحرز تقدما في تحقيق بعض المطالب لاسيما على مستوى تعديل القوانين؛ فقد أقر مجلس النواب قبل يومين تعديل قانون مفوضية الانتخابات؛ إذ استبدل مفوضيها بالقضاة بناءً على التوزيع السكاني الاستئنافي. وقد استطاع أن يلغي المحاصصة الحزبية في مجلس المفوضين السابق لكنه لم يستطع أن يلغي مسألة تمثيل المكون، لاسيما بعد أن نص التعديل على تمثيل إقليم كُردستان بعضوين، وهذا يعني هيمنة الحزبين الكبيرين في الإقليم، عضوا للاتحاد الكردستاني من أربيل، وعضوا للحزب الوطني الكردستاني من السليمانية، والخوف من تكرار ذلك على المحافظات الأخرى في توزيع حصص المفوضين، مع أن التعديل حاول أن يبطل ذلك عبر اعتماده نظام القرعة.

الشعب يعتقد ويؤمن إيماناً راسخاً بأن العدالة وحدها تستطيع أن تفك عنه الغبن، وأن تخلصه من مشكلاته الاجتماعية

والاقتصادية، فضلاً عن ان تجسيد العدالة واقعاً بإمكانه مساعدته في تحقيق أهدافه، والوصول إلى طموحاته، وبأن الشعب لا يرضى بالاختيار بين الأسوأ والسيئ. ووضع برنامج منظم لتنشئة اجتماعية شمولية.

الواقع الاقتصادي وابرز سماته

قبل الخوض في الموضوع، أود أن أشير إلى أن تناول ملامح الواقع الاقتصادي لا يتجاوز كونه كشفاً للوضع وتشخيصاً له، وبكلمة أخرى، لا يعني أنني أتبناها، وإنما يعني أنني أورد ما هو موجود موضوعياً.

فحسب البنك الدولي "تدهورت مستويات المعيشة بشكل حاد ما جعل شريحة كبيرة تهبط تحت خط الفقر، وهناك شريحة أخرى في وضع يجعلها قريبة من خط الفقر".

فقد انتهى توجه نموذج الاقتصاد السياسي الذي رُسِي بعد تغيير النظام السابق إلى طريق مسدود، ويترافق ذلك مع سوء إدارة وَصَمَت عمل الحكومات المتعاقبة التي تراتبت بعد الانتخابات، وأنتجت قطاعات ومؤسّسات مُختلّة وغير فعّالة، من ضمنها قطاع الكهرباء الذي يعاني من بنية تحتية مُتهالكة ومؤسّسات ضعيفة وتحكمه سياسات لا تتماشى مع التطوّرات الحاصلة في العالم، ما ساهم في تعميق الأزمة الاقتصادية في البلاد، وإضعاف العقد الاجتماعي الهشّ أساساً، والذي يشهد راهناً تحدّيات كبيرة، لأن تأمين الطاقة الكهربائية هو خدمة عامّة توفّرها الحكومات عموماً، لكن في العراق، أصبحت مشاكل هذا القطاع بمثابة تذكير متواصل بعجز الدولة عن توفير أحد أهم الخدمات الأساسية للمواطن والاقتصاد على حدّ سواء، وانعكاس واضح لتفاقم مستويات انعدام المساواة نتيجة تحميل المناطق الأقل نموّاً والأكثر فقراً عبء ساعات أكثر من التقنين، بالمقارنة مع المناطق الأكثر نمواً والأكثر غنى، في تناقض فاضح مع معايير التنمية والإنماء المتوازنين.

وتفاقمت تلك التحدّيات ما أدّى بالسجالات العقيمة بين الأحزاب السياسية المشاركة في الحكومة، إلى تجميد أو تأجيل الخطط والمشاريع المُلحّة، واستخدم الكثير من الحجج لتبرير غياب السياسات العملية في قطاع الكهرباء. في حين، كان الجمهور يفقد الأمل تدريجياً من إمكانية حصول أي تغيير إيجابي.

لا شك في أنّ اقتصاد العراق تأثر بشكلٍ سلبي للغاية جرّاء انهيار أسعار النفط؛ إذ تولّد العوائد النفطية حاليا 99% من إيرادات الدولة العراقية، وفق برنامج الأمم المتحدة الإنمائي. ومع انشغال الحكومة بشؤون الحرب القائمة وتركيز جهودها على هذا الأمر، فإن الأوضاع لا تُبشر بحدوث انتعاش اقتصادي في أي وقت قريب.

ونظرا إلى أن 50% من سكان العراق هم دون سنّ 19 عاماً، فمن المنطقي أن تعتبر البطالة بين الشباب واحدة من أخطر المشاكل التي تواجه هذه الدولة. علاوة على ذلك، فإن 17 % من الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين 15 و25 عاماً هم عاطلون عن العمل، وفق آخر تقديرات نشرتها منظمة العمل الدولية. أما بالنسبة للنساء، فترتفع البطالة لتصل إلى 27 %،

وأصبح أول المتضررين هم الشباب، وعانى الناجون منهم في البحث عن لقمة العيش أو الحصول على وظيفة.

وعند تناول ملامح الاقتصاد يتحتم تناول اهم القطاعات وواقعها في ظل سياسة اقتصادية قد شجعت على النشاطات الاستهلاكية لا الإنتاجية، ولعل أحد الأسباب الرئيسة لهذا المستوى المتدني للأداء الاقتصادي، وخصوصاً الصناعي، هو أن الصناعة من القطاعات الاقتصادية.

- القطاع الصناعي

تعرض قطاع الصناعة في العراق الى حالة من التدهور طوال سبعة عشر عاماً، ما أدى إلى تراجع آلة الصناعة العراقية بشكل كبير في مختلف مجالات الإنتاج والتوزيع والتصدير، فضلاً عن عمليات النهب والتخريب التي رافقت دخول القوات الامريكية، والتي أدت إلى تدمير كل مقومات الصناعة المحلية والبنية التحتية ومستلزمات الإنتاج. ويقدر اتحاد الصناعات العراقية أن حوالي 50 ألف مشروع وأكثر من 90 % من المصانع متوقفة بسبب الانقطاع المستمر للكهرباء، ما يعرض البلد إلى خسائر مادية كبيرة، ويشغل 18.7 % من إجمالي اليد العاملة في العراق. وتشكل صناعة النفط والمجالات المرتبطة به كالبتروكيماويات، العمود الفقري للصناعة العراقية.

وتشير المصادر إلى أن حجم الإنتاج الصناعي في العراق لا يتجاوز (1.5 %) وهذا شاهد على تدهور القطاع الصناعي قياساً بالقطاعات الاقتصادية الأخرى فيها، وأن "القطاع الصناعي لا يشكل الآن من الدخل القومي أكثر من 1.5% بعد أن كان يشكل 14 % من حجم الدخل القومي".

- القطاع الزراعي

ابرز ملامح القطاع الزراعي، قصور الانتاج الزراعي عن الاستجابة لمتطلبات السوق وسوء اداء السياسات الزراعية، فضلاً عن تفاقم الانكشاف الغذائي واتساع الفجوة الغذائية؛ فعلى صعيد الاكتفاء فان أكثر من 70 % من الاستهلاك المحلي للاغذية يعتمد على الاستيراد الخارجي. وهذه المؤشرات خطرة خاصة مع احتمالات ارتفاع أسعار السلع الغذائية بسبب العولمة وسياسات دعم الانتاج الزراعي في الولايات المتحدة واوروبا وعدم القدرة على الانتاج المحلي، مما سيؤدي الى ارتفاع فاتورة الغذاء على المستهلك العراقي.

- سمات الاقتصاد العراقي

1. اختلال الهيكل الاقتصادي: حيث يهيمن القطاع النفطي بشكل واضح على مجمل القطاعات الاقتصادية الاخرى.

2. اختلال الهيكل التجاري: وهو اختلال من نوع (disorder Generative) تولد عن الاختلال السابق، وقد انعكس بصورة هيمنة عوائد الصادرات النفطية على عوائد الصادرات السلعية الاخرى.

3. اختلال الهيكل الانتاجي: حيث تسيطر على الاقتصاد العراقي ظاهرة تراجع الصناعات التحويلية.

4. تفاقم مشكلة المديونية الخارجية والداخلية: وهي مشكلة ساعد في تفاقمها الظروف السياسية والاقتصادية

والاجراءات المعتمدة غير المدروسة.

5. تراجع مصادر الاستثمار.

6. هيمنة المدخلات الانتاجية المستوردة.

مما سبق يتضح، إن الركائز الاساسية التي يستند إليها الاقتصاد العراقي تتسم بكونها (رخوة)، وبالتالي فهو اقتصاد غير قادر على مواجهة غالبية التحديات، ومنها التحدي الذي تفرضه مشكلة (البطالة).

رؤى اقتصادية عقب انتفاضة تشرين

تتخذ الرؤى الاقتصادية آفاقا فلسفية نحو ترسيخ اسس للتطور الاقتصادي، وبقدر تعلق الامر بالاقتصاد العراقي، فانه يواجه في ظل الظروف الراهنة مشكلة الارتفاع الكبير في معدلات البطالة، حيث إنها تعد واحدة من ابرز المصاعب والتحديات التي يواجهها هذا الاقتصاد، وذلك لما لها من انعكاسات عميقة وخطرة على الاوضاع؛ فقد أصبح أكثر من نصف شباب العراق عاطلين عن العمل. ويأتي العراق في مقدمة دول الشرق الاوسط وبنسبة بطالة تقدر بحوالي (59 %) من حجم قوة العمل، وحوالي (31 %) بطالة مؤقتة، ونحو (43 %) بطالة مقنعة، إلى جانب ارتفاع نسبة النساء العاطلات عن العمل في العراق. إن تنامي هذه المشكلة في الاقتصاد العراقي يمثل انعكاسا لاختلال هيكلي ينبغي معالجته على مستوى الاقتصاد الكلي، وليس من خلال اعتماد أساليب لا تلبث أن تزول.

ولا بد من الاشارة الى أن المحافظات الاكثر فقرا وبطالة وحرمانا هي المحافظات المحتجة، ففي محافظات الجنوب: ميسان، المثنى، القادسية، البصرة، وذي قار، توجد اعلى معدلات الفقر بحسب التقديرات الرسمية التي صدرت عن وزارة التخطيط.

واستناداً الى التقرير الدولي فإن طريق العراق نحو تعافٍ اقتصادي واضح قد يشهد عراقيل أكثر بسبب عدم الاستقرار السياسي، الذي ما يزال يشهده العراق، فضلاً عن ضعف كفاءة وقدرة مؤسساته الحكومية .

وضمن الرؤى الاقتصادية في تفعيل انتفاضة تشرين، اعادة الدور الحيوي للقطاع الخاص في العراق، لانه داعم للدولة ويخلق الابتكار والتطوير المستمر، وتنوع الفرص في مختلف القطاعات، وهو حركي غير جامد، ولا بد في العراق من دعمه بصورة مباشرة، وتطويره وإعطائه الضوء الاخضر لقيادة الاقتصاد العراقي الريعي المعتمد على سلعة النفط القابلة للنضوب في المستقبل القريب، وان تكون الدولة داعما وموجها ومشرفا على هذا القطاع الخاص لضمان مصلحة العراق ومصلحة شعبه ومصلحة اصحاب رؤوس الاموال من خلال قوانين خاصة مشرعة بهذا الخصوص، تضمن للقطاع الخاص والدولة والعامل، الحقوق والواجبات. كل هذه امور ستساعد لو طبقت في خلق فرص عمل كبيرة، ولقضت على البطالة بشكل كبير، حيث هناك أسباب عدة تعزى الى تراجع القطاع الخاص في العراق ولجوء الشباب للبحث عن وظائف حكومية تؤمن لهم دخلا ثابتا؛ إذ ذكر تقرير جديد لـ (معهد التمويل الدولي) في واشنطن، أن انتشار الفساد في العراق والبيروقراطية الادارية والبيئة الاستثمارية الفقيرة، كل ذلك أدى إلى تدهور اقتصاد العراق ومنع

نمو القطاع الخاص، والمتزامن مع زيادة في عدد السكان، والتي لا تقابلها تنمية كفيلة بتوفير فرص العمل في الاقتصاد. هذا الى جانب أن الحكومة هي أكبر موظف في البلاد؛ حيث تستوعب نحو 80 % من العمالة في العراق. في ميزانية 2019 خصصت الحكومة 52 مليار دولار للعاملين في الحكومة والقطاع العام، تشمل الرواتب ومعاشات التقاعد والضمان الاجتماعي. ويزيد هذا المبلغ بنسبة 15 % عن المخصص في ميزانية العام الماضي.

ومن ثم فأن الرؤية المثلى للاستثمار الإيجابي تتمثل في شريحة الشباب والتعامل معهم باعتبارهم هم المحور الأساسي في عجلة التنمية المستدامة للشعوب، وذلك من خلال مخرجات تنموية بشرية مدروسة فيصبحون الرافد الأساسي، والطاقة المحركة التي تتمتع بالقدرة على الإعمار والبناء والتقدم في كافة مجالات الحياة، فتنهض الشعوب وينتعش الاقتصاد وينتشر الأمن والأمان والاستقرار، فترتقي البلدان من خلال توظيف طموحاتهم المستقبلية وقدراتهم على التحدي في مواجهة الصعاب في عملية البناء والإعمار.

ونؤكد ضمن هذا المضمار أن المشكلة الحقيقية التي يعاني منها الشباب العراقي هي مشكلة شعب وطاقة بشرية معطلة، عانت من الظلم والاضطهاد لعقود من الزمن، ومن سياسات بائسة نتيجة الظروف المعقدة التي مر بها الشعب.

وعن أبرز الرؤى الملحة والضرورية الواجب اعتمادها لتحقيق النهوض الاقتصادي بالواقع الاقتصادي للشباب تتمثل في :

• العمل على إنشاء المدن الصناعية بهدف إشاعة التكامل الصناعي بين الصناعات الكبيرة والمتوسطة والصغيرة وإدخال التكنولوجيا الحديثة وكل ما من شأنه تحسين الإنتاج وزيادته وتقليل التكاليف لرفع تنافسية المنتج في الأسواق المحلية والعالمية.

• يجب تحقيق توازن عند وضع الخطط التنموية للدولة ويجب أن تعطى فيها الأولوية والأهمية القصوى الى احتياجات الشباب وعدم التهاون بتطبيقها او الغائها او اتخاذها مجرد دعاية انتخابية، بل يجب وضع خطط واستراتيجيات وسياسات تنموية متكاملة، وتنفذ بالكامل كما وضعت، ما يزيد من ثقة الشباب والشعب عموماً بالدولة، ويقوي أواصر التمسك بالوطن.

• تفعيل دور وزارة الشباب والمؤسسات التابعة لها في المحافظات، بعيداً عن المحاصصة والطائفية وبمساندة منظمات المجتمع المدني والجامعات الحكومية والأهلية على استقطاب الشباب وتحقيق البرامج التي تعمل على تطوير قدراتهم العلمية والمهنية على ان تكون هناك مكاتب خاصة في كل وزارة لدعم الشباب وتحسين الخدمات التي تقدم لهم وتسهيل الحصول عليها.

• تعمل حكومة العراق مع المنظمات الدولية لتعزيز وضع الشباب العراقي وتقديم خدمات ذات جودة على جميع المستويات. إن إستراتيجية ملائمة ومطورة بشكل جيد تتعلق بالشباب ستقرر بحكمة مستقبل البلاد. الإستراتيجية ستمكن وتوفر فرصة للشباب لتحديد خياراتهم الصحيحة، وحمايتهم من الاستغلال والإهمال وتضمن

مشاركتهم في جميع مجالات المجتمع.

• استثمار الغاز المحروق يمكن أن ينهي الحاجة إلى الغاز المستورد، ويوفر للعراق ما يصل إلى 6.4 مليار دولار سنويا، فلم يزل العراق يواصل إهمال احتياطاته الكبيرة من الغاز، والتي تصل إلى 132 تريليون قدم مكعب.

• الاهتمام بانشاء مراكز للرعاية الاجتماعية والتأهيلية حديثة للشباب وتجهيزها بأدوات متطورة لمعالجة الحالات المختلفة والاصابات وكذلك رعاية الصحة النفسية والعقلية التي عانت من العنف والإرهاب، والاشراف المباشر على هذه المراكز التدريبية من قبل وزارة الشباب والمؤسسات التابعة لها، مع توفير الرعاية والامتيازات الخاصة بالمعوقين وذلك وفق قانون حقوق الانسان والدستور العراقي.

• الاعتماد على الاقتصاد المرتبط بالعرض، اقتصاديات جانب العرض Supply-side economics وهذا يعني ان النمو الاقتصادي يمكن أن يكون اكثر فعالية عن طريق خفض الحواجز بين المستثمرين، والإنتاج (العرض)، السلع والخدمات من خلال الاستثمار. وفقا لاقتصاديات جانب العرض، فإن المستهلكين يقومون بالاستفادة من زيادة المعروض من السلع والخدمات بأسعار أقل، علاوة على ذلك، الاستثمار وتوسيع الأعمال ما يؤدي الى زيادة الطلب على الموظفين.

• استخدام الحداثة من قبل الشباب من اجل تطوير سلوك الشباب وثقافتهم، فيصبح لزاما الرجوع إلى التراث الفكري والمعرفي لاستحضاره وإسقاط حاضرنا عليه، فضلاً عن الأخذ من الحداثة روحها وترك تطبيقها حرفيا لأن طبيعة كل مجتمع تفرض طريقة التطبيق والممارسة، كما انه لا يمكن الاطلاع على ثقافات الغرب دون وعي وتثقيف واللجوء إلى امتصاص السلوك الغربي الدخيل من الثقافات الغربية المستوردة.

• العمل على تأهيل المشاريع الصناعية الواعدة وإدخال التكنولوجيا الحديثة فيها لتواكب التطورات وتحسن الإنتاج كماً ونوعاً.

تشرين لبنان وتشرين العراق

مصطفى فحص

مصطفى فحص، صحفي وكاتب لبناني، حائز على ماجستير في الدراسات الإقليمية بعنوان (عقيدة المكان)، دبلوم في السياسات الإقليمية، بعنوان (روسيا ـ تركيا ـ إيران وممرات طريق الحرير)، إجازة في العلاقات الدولية، بعنوان (السياسة الخارجية لروسيا في الشرق الأوسط)، معهد العلاقات الدولية موسكو MGIMO**، رئيس جائزة هاني فحص للحوار والتعددية.**

ذات خريف ولد توأم شبه سياميان حملا الاسم نفسه، لكنهما كنّيا برقمين مختلفين. في تشرين كان هتاف كل الأرواح متلاصقا من بغداد إلى بيروت. في ذات التشرين كانت المنطقة الخضراء في بغداد محاصرة وساحة التحرير أكثر حرية. في بيروت كانت ساحة النجمة معزولة وساحة الشهداء أكثر إصرارا. كسر التشرينيون خوفهم، لم ترهبهم حواجز الملثمين ولا تهديدات القناصين. عزيمتهم هزّت بيوتا سياسية تصدعت، ومنظومة حاكمة تهالكت، فاطلق الشباب صافرة النهاية. أطلقت على صدورهم رصاصات الغدر. مع ذلك رفعوا شعارات الحرية والعدالة والمساواة. ألصقت بهم تهم الخيانة والعمالة، وصفوا زورا (بالجوكرية) وأتباع السفارات، لكنهم أيقنوا أن طريق الحق موحش لقلة سالكيه، ومضوا لا يبالون إن وقعوا على الموت أم وقع الموت عليهم.

جيل وجد بتشرين المعنى، ففي معجم المعاني تعود تسمية تشرين إلى اللغة السريانية. فتشرين الأول والثاني هما: "تشري قديم" و"تشري حراي" أي السابق واللاحق، ومعناه بالعربية "البدء"، وسمي كذلك لأن تشرين الأول الإيذان ببداية موسم الزراعة. زراعة لم يعرفها إلا العراق ولبنان، رويت بدماء ودموع، بحزن شديد على أعتاب الفرح، وباب فرج بعد خيبة مؤقتة، وانكسار مؤقت، وأمل ممكن، وبالرغم من تأخره لعام كامل، إلا أنه سيعود، وكما يقول المثل كلما هلّ تشرين بترجع بنت عشرين.

هي العشرون أيضا، لا تبارح ذاكرة البلدين، راسخة كما ترسخت الحدود وأسست الدول، منذ نشأة العراق ولبنان، ككيانين مستقلين، تقاطعت بينهما الأحداث وترابطت بشكل كسر ثوابت الجغرافيا السياسية التي تفصل بينهما، وباتا يخضعان لتحولات سياسية اقتصادية واجتماعية وثقافية، جعلتهما ـ أي لبنان

والعراق ـ أشبه بدولتين محاذيتين يتأثران مباشرة بالأحداث الداخلية والخارجية التي يتعرضان لها.

في الحديث عن تاريخ البلدين لا يمكن الفصل ما بين إعلان دولة لبنان الكبير سنة 1920 وثورة العشرين في العراق 1920 التي أسست أحداثها لقيام دولة العراق سنة 1921، حيث لعبت الكنيسة المارونية دورا فاعلا في الوصول إلى إنشاء الكيان اللبناني، يقابله موقف للمرجعية الدينية الشيعية التي كانت رافعة للثورة ومسهلة لقيام الدولة. كما شهدت مرحلة الخمسينيات ذروة التقارب اللبناني (الرئيس شمعون) والعراقي (الباشا نوري السعيد)، فالمعروف عن الرئيس اللبناني الأسبق كميل شمعون تمسكه بمعادلة سياسية تجاوزت منطق الجغرافيا وقامت على فكرة "عراق قوي، لبنان مستقر "وهي المعادلة التي أثبتت صحتها بعدما أثرت أحداث عام 1958 في لبنان والعراق على العلاقة بينهما وعلى استقرارهما السياسي وموقعهما في خريطة التحالفات الإقليمية والعربية.

كانت سنة 2003 بداية مرحلة جديدة في البلدين، فقد مهد سقوط بعث العراق إلى خروج الاحتلال البعثي السوري من لبنان، لكن أحلام التغيير جوبهت بفتنة طائفية وحروب أهلية وانقسامات مجتمعية، بدأت باغتيال السيد عبدالمجيد الخوئي في النجف واغتيال الرئيس رفيق الحريري في بيروت، فمن أراد ملء فراغ البعث مارس هواية الدم والعنف نفسها، طوال 17 عاما لم يعرف فيها البلدان إلا ترهيب السلطة وفساد الحاكم.

لذلك كان تشرين ذروة الرد على الفعل القاتل، فتحول شباب تشرين إلى فاعل أعاد الاعتبار للفضاء الوطني العام، نجح في تفكيك خطاب المنظمة الحاكمة ورسم حدثا يتشابه بين لبنان والعراق يرفض وصاية الوكلاء ويريد إنتاج الأصلاء، فباتت السلطة في بغداد في مواجهة أغلبية وطنية مدعومة من مرجعية تؤمن بالمشروطية. وفي لبنان تواجه المنظومة أغلبية شعبية انتفضت على الصيغة الطائفية التي كان يحاول أصحاب المشاريع الجيوعقائدية إعادة إنتاجها وفقا لشروطهم السياسية. راهنوا أن البلدين على أعتاب مئوية جديدة، سيتمكنون خلالها من تغيير طبيعة لبنان الكبير، ومنع الدولة العراقية من استعادة هويتها الوطنية.

في السابق كانوا يقولون أن بيروت تطبع وبغداد تقرأ، بعد تشرين أصبحت بغداد أو كربلاء أو النجف تكتب وساحات الاعتصام في بيروت وطرابلس وصور والنبطية تلحن، فقد تحولت اللطمية التشرينية التي رددها زوار الإمام الحسين منذ سنة تقريبا والمعروفة " لا تصدق بحكي الاشاعة" إلى أغنية يرددها شباب الانتفاضة في لبنان، فمنذ تشرين وبعد دخول الانتفاضة عامها الثاني، لم يعد ممكنا استمرار الهيمنة ومصادرة الدولة واحتجاز الشباب داخل الطوائف واختزال الطوائف بأمرائها، فبين أمراء الطوائف وأمراء الحرب حبل سرة يمتد خارج الحدود يغذي دعاة اللادولة بدم مسموم، يستخدم العنف وسيلة لبقائه والحفاظ على غنائمه من شط العرب حتى ساحل المتوسط.

الثورات بين العوامل والأدوات

سلام عادل الكيم
باحثة اكاديمية، مستشار تخطيط استراتيجي
جامعة ساكسيون للعلوم التطبيقية والتكنولوجيا - هولندا

مقدمة

غطت سلسلة من الانتفاضات والاحتجاجات جزءا كبيرا من الشرق الأوسط في السنوات الماضية. شكلت ثورة الياسمين التونسية نقطة انطلاقتها 7 - 12 - 2010 لتنتشر بعد ذلك إلى أجزاء أخرى من الشرق الأوسط، سميت لاحقاً بالربيع العربي، كما كان لكل منها لقبها الخاص فكانت الإشارة إلى الثورة المصرية باسم "ثورة فيسبوك"، سبقتها الاحتجاجات التي اندلعت في إيران باسم "ثورة تويتر". وسرعان ما بدأ النقاش عن عوامل نجاح هذه الموجة من الاحتجاجات "الثورات": الهواتف النقالة، الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي تحديدا. لكن هل كان لوسائل التواصل الاجتماعي هذا التأثير المزعوم.

يشير استاذ الانثروبولوجيا- جامعة كاليفورنيا (تشارلز هيرشكيند) في دراسة عن تقنيات الإعلام والمجتمعات السياسية الناشئة في المناطق الحضرية في الشرق الأوسط وأوروبا، إلى الدور (السياسي) المهم الذي لعبته مدونات ومنصات التواصل الاجتماعي[1]، فهي لا تقدر بثمن في بلدان لا يتمتع فيها المواطنون بحرية التعبير. حيث تبنى ناشطون ومدونون مصريون المنصة السياسية التي استحدثتها حركة كفاية، وقاموا بتمهيد الطريق إلى ميدان التحرير باجتذاب ملايين المصريين إلى الشوارع[2].

تغيير قواعد اللعبة

تتلخص قوة وسائل التواصل الاجتماعي في قدرتها على تحقيق التلاقي بين الأفراد وتشكيل الجماعات المتناغمة في السلوك والرأي بسرعة كبيرة وبدون تكلفة عالية، ما جعل إحداث تغييرات كبيرة في فترة زمنية قصيرة وتغيير قواعد اللعبة أمراً ممكناً. وهذا ما لم تعد وسائل الإعلام التقليدية قادرة عليه، حيث أدى ظهور وسائل التواصل الاجتماعي إلى تغيير الديناميكيات في المجتمع. ففقدت الحكومات المستبدة قدرتها على عزل مواطنيها عن وسائل الاعلام، خصوصا انها معقدة للغاية بحيث لا يمكن تقييدها بسهولة. وفي مقابل ذلك وفرت هذه

الوسائل للأفراد الفرصة بأن يتوحدوا، وهذا لم يكن ممكناً سابقاً. وتسارعت عملية أيض "عدم الرضا" فمكنت الأقران من التجمع وتصاعدت المشاعر المناهضة لتلك الحكومات، وتحفزت، فأنتجت حركات بلا قيادة، لكنها مع ذلك حركات قوية من أجل التغيير. حيث كان المواطنون بحاجة إلى شكل من أشكال التواصل خارج سلطة الحكومات، وها هي تصبح ملكهم لتمنحهم السلطة في عصر جديد من الثورة الدائمة.

ان ما يفسر سرعة انتشار اخبار الاحتجاجات والتفاعل معها هو الطبيعة اللحظية للتواصل عبر منصات التواصل الاجتماعي، حيث باستطاعة أي شخص طرح افكاره متى ما شاء بدون التقيد بساعات البث أو مواعيد النشر، وعلى النقيض من ذلك فقد منحت هذه المنصات التنظيم الفضفاض وغير الهرمي في كثير من الأحيان لحركات الاحتجاج التي تشكلت على غرار تشكل الشبكات العنكبوتية.

صوت لمن لم يكن يُسمع صوته

يعتبر الإعلام الوسيلة الأمثل للتواصل بين الأفراد وتشكيل الجماعات. ولكنَّ الانترنت وفّر امكانية المشاركة بطريقة لم تقربها أي وسيلة أخرى. فأصبح كل من لديه بيان أو عرض ما، يمكن ان ينشره ليجعله متاحا على نطاق واسع. حتى أصبح من الصعب تمييز ما يجب ويستحق الانتباه إليه. وسواء كان ذلك ايجابياً أو سلبياً إلا أن وسائل التواصل الاجتماعي منحت صوتًا لمن لم يكن يُسمع صوته من قبل، وهذا ما جعلهم أقوياء.

إن احتياجات الجماهير لم تختلف منذ مئات السنين، إنما طريقة التعبير عن هذه الاحتياجات هي التي اختلفت. بينما كان توزيع الكتيبات هو وسيلة التواصل إبان الثورة الفرنسية، فقد منحت وسائل التواصل الجديدة الجماهير مساحة للتلاقي عن بعد، مع امكانية حرية التعبير وتبادل الآراء بشأن الأمور ذات الصلة بالحياة الواقعية التي يعيشونها، ومكّنت المحبطين بسبب الأوضاع الراهنة من تنظيم أنفسهم وتنسيق الاحتجاج. فنشأت بذلك روابط قوية من علاقات ضعيفة (لم تكن في حسبان الحكومات) بحسب الباحث جوناه ليهرر الذي يُرجع أسباب نجاح الاحتجاجات بقوله: "تعود أهم أسباب نجاحك في أمر ما إلى ما تعرفه وخبِرتَه، وليس ما تعلمته في المدرسة أو من خلال نتيجة بحثك في محرك البحث كوكل". مؤكداً على حقيقة أن هذه العلاقات مع الاشخاص الذين قد لا تعرفهم شخصياً ليست ضعيفة بالمعنى الحرفي للكلمة بل انها ذات تأثير غير متوقع. فعلى سبيل المثال إن تفاعلك مع الدعوة للمشاركة في احتجاج ما سيكون أكبر، إذا ما علمت بأن الاشخاص الذين هم اصدقاء اصدقائك سيشاركون في ذلك الاحتجاج، وكأن ذلك يمنح الدعوة شيئاً من الثقة والأمان في اللاوعي[3]. كما توفر منصات التواصل الاجتماعي

الامكانية لرؤية من يشارك في الاحتجاج للدفاع عن مصالحك ما يقلل من خوفك من مواجهة احتمال الاعتقال إذا ما شاركت في الاحتجاج، فالخوف من الاعتقال يقل عندما تكون ضمن مجموعة، ولست بمفردك في الشارع وهذا أيضاً أحد العوامل الرئيسية في نجاح الاحتجاجات في مصر على سبيل المثال بحسب (جاي روزين)[4].

كما يلعب التواصل الافقي المباشر بين الافراد دورًا رئيسيًا في عملية إقناع شخص ما لتبني موقف معين، ضد طرف ما وتحمل المخاطر الناجمة عن ذلك، وسيؤثر ذلك بشكل مباشر على تغيير أبعاد الموقف، فعندما يخرج الناس إلى الشوارع للتظاهر احتجاجاً على الوضع الذي يعيشون فيه، ضد المسؤول (الحاكم) الذي يبقيهم في هذا الوضع، فإنهم يخلقون مركزاً جديدًا للقوى، يتمتع بسلطة لم يكن بوسعه الحصول عليها من قبل.

لقد سعى نشطاء منصات التواصل الاجتماعي إلى إيجاد أشكال جديدة للتمثيل السياسي وصقلها حتى أصبحوا روادا في أشكال النقد السياسي والتفاعل مع التضاريس السياسية الجديدة. فتحولت هذه المنصات إلى أدوات تنسيق لجميع الحركات السياسية في العالم تقريبا، وبالمقابل تحاول معظم الحكومات الاستبدادية وعدد متزايد من الحكومات الديمقراطية أيضاً في العالم، تقييد الوصول إليها.

العوامل أكثر أهمية من الأدوات

غالباً ما تمنح وسائل الإعلام الحاضرة في أيام الانتفاضات، الثورات والاحتجاجات قوة تأثير مزعومة. فقد عُدت الكتيبات أيام الثورة الفرنسية عام 1789 أهم عوامل نجاحها، وحظي التلفاز أيام سقوط جدار برلين عام 1989 آنذاك بكل الفضل. كما هو شأن أجهزة الفاكس والاستنساخ أيام انهيار الاتحاد السوفيتي. في حين كان الجدار والاتحاد يضعفان على مدار سنوات طويلة بتأثير عوامل أخرى. وكذلك هو الأمر في هذه الأيام. فلربما كان للإنترنت بعض التأثير في انطلاق الاحتجاجات، تماما مثل وسائل الإعلام الأخرى في الثورات السابقة، لكن الدور الاكبر في انطلاق الاحتجاجات يعود لنضالات النشطاء في التعبئة ونشر الوعي خلال سنوات متعاقبة، قبل وجود منصات التواصل الاجتماعي. لذا يتوجب علينا أن نفرق بين العوامل التي لعبت دورا رئيسا في انطلاق الاحتجاجات وبين أدوات ظهورها في العالم. فالثورات في الشرق الأوسط لم تنشأ بشكل أساسي بسبب وجود وسائل التواصل الاجتماعي، بل أن تلك الاخيرة ليست سوى وسائط (أدوات) يستخدمها المحتجون، لبيان أسباب احتجاجهم، تكتسب فاعليتها بحسب الطريقة التي يستخدمها الناس بها.

قوى التغيير

إن الإعجاب بسرعة ومرونة الاتصالات القائمة على الإنترنت لا

يمنحها القوة المزعومة التي تنسب لها، بل أن القوة تكمن في الأشخاص الذين يوظفونها للوصول لغاياتهم في التعبئة والتحشيد (5). وتبقى الجماهير هي أداة الاحتجاج الأساسية وبالتالي أداة التغيير التي لا تحتاج لشيء غير الزخم وتجمّع هذه الجماهير، لأن الإصرار وتضحية الحشد في الشارع هو ما يحدد حقيقة قوة الفعل الاحتجاجي، التي تنشأ عندما يجتمع الناس ويعملون بانسجام تام.

إن مرونة شبكات التواصل الاجتماعي وقابليتها على التكيف تجعلها أداة مناسبة في المواقف منخفضة المخاطر (كحرية التعبير عن الرأي). أما المواقف عالية الخطورة (الانتفاضات في الشرق الأوسط) فإنها بحاجة إلى هياكل هرمية تشمل طبقات مختلفة من صنع القرار، وقيادة تمتلك نظرة شاملة عمّا يتم التخطيط له وما يتحقق فعلياً أثناء الانتفاضات وتتحكم في مسارها، خاصة عندما تكون في مواجهة مؤسسة قوية، تتوالى فيها المستجدات وتكون فيها الأحداث في تغيير دائم (ديناميكية دائمة) [6]. وبحسب بيكتيه[7] فإن التغيير مرهون بمدى التفاعل بين الأفكار والتعبئة الجماعية والاضطرابات المفاجئة التي تخلق تشعبات أيديولوجية سياسية جديدة.

خلاصة

عرّفت الباحثة (هانا آرنت)[8] القوة في التجمع والسلوك الجماعي معا (وهو ما ينطبق على الاحتجاجات والانتفاضات الشعبية، كما ينطبق الامر على الجيش أو الشرطة أو المخابرات)، والقوة ليست شيئا أو صفة يمكنك امتلاكها، بل هي ممارسة تتطلب التحفيز من خلال توظيف الموارد، الوسائط والتكنولوجيا المتاحة والتي تعتمد في وقتنا الراهن بشكل أساسي على تقنيات المعرفة. أي أنه بمجرد أن تكتسب الجماهير الزخم وتوفر إرادة التغيير، فإن التغيير قادم لا محال، بوجود وسائل التواصل الاجتماعي أو عدم وجودها[9]. وما وسائل التواصل الاجتماعي إلا وسيط ساعد مجموعات الضغط في سعيها للتأثير على السياسات.

لقد سهّل ظهور وسائل التواصل الاجتماعي التعبير عن الرأي، لكن هذا لا يكفي لإحداث التغيير الذي يحتاج الى الوعي أو على الاقل المشاركة بالاحساس المولد لدافع التغيير بالاضافة للعوامل التي ذُكرت أعلاه، وهذا يعني ان هذه وسائل التواصل لا تؤدي إلى نشاط فعلي شديد الخطورة، لكنَّ فاعلية هذه الوسائل تكمن في زيادة مشاركة الجماهير والتفاعل مع ما يُنشر من خلالها، وبالتالي رفع مستوى التحفيز الذي تتطلبه المشاركة الفعالة والمؤثرة. وبهذا لا يمكن للشبكات التي شكلتها وسائل التواصل الاجتماعي، أن تؤدي في النهاية إلى الثورات لأن الثورات يجب أن تكون ذات طبيعة هرمية دائمًا. بينما الجميع متساوون ويتمتعون بنفس الحقوق على مواقع التواصل الاجتماعي، ما يعني ضمنيا لا وجود للقيادات أي لا وجود لأهم مقومات الثورة.

الهوامش:

(1) Charles Hirschkind, “The Road to Tahrir” [2011] The Immanent Frame http://blogs.ssrc.org/tif/2011/02/09/the-road-to-tahrir/
(2) Micah L. Sifry, “Did Facebook Bring Down Mubarak?” [2011] CNN Opinion http://articles.cnn.com/2011-02-11/opinion/sifry.egypt.technology_1_egypt-internet-access-revolution/2?_s=PM:OPINION
(3) Jonah Lehrer, “Weak Ties, Twitter and Revolution” [2010] Wired http://www.wired.com/wiredscience/2010/09/weak-ties-twitter-and-revolutions/
(4) Jay Rosen, “What Others Are Up For” [2011] Soundcloud http://soundcloud.com/sound-kaa/jr-what-others-are-up-for
(5) Devin Coldewey, “People, Not Things, Are the Tools of Revolution” [2011] TechCrunch http://techcrunch.com/2011/02/11/tools-of-revolution/
(6) Steven Bounds. “Twitter and Revolutions.” [2011] New Agora
http://bounds.net.au/node/66
(7) Thomas Piketty, Capital and Ideology. (Harvard University Press, 2020)
(8) Arendt, H. (1990/1963). On revolution, NY. New York: Viking Press
(9) Richard N. Haass, “Reflections on the Revolution in Egypt” [2011] Project Syndicate http://www.project-syndicate.org/commentary/haass35/English.

ملف الفنان صلاح جياد المسعودي

تتوجه هيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة) بالشكر الجزيل للفنان الكبير فيصل لعيبي صاحي، على الجهود الكبيرة التي بذلها في إعداد هذا الملف، ليأخذ صورته هذه. متمنين له الصحة الموفورة والعافية الدائمة والتألق المتواصل في عمله الابداعي. والذكر الطيب دوما للفنان الراحل الكبير صلاح جياد.

الفنان المذهل صلاح جياد المسعودي

الفنان الأستاذ وليد شيت طه

في عام 1964 قدمت الى اكاديمية الفنون الجميلة في بغداد وبفرحة كبيرة جدا اني قُبلتُ الاول من بين 600 متقدم... حلم راودني طوال فترة دراستي كوني انتميت الى الفن ودراسته رسميا والتي لم اتمن غيرها حتى لو كانت كل دراسات الدنيا متاحة لي.. سعادتي حينها لا توصف فكانت الاكاديمية بمثابة المعبد الذي أتأمل فيه كل طقوس الجمال والاحساس، حتى اني اشم رائحة المكان بخصوصية لا يوازيها شيء، ورؤية طلابها برؤية متميزة كونهم طلبة فن والعلاقة بينهم تختلف عن كل طلاب الكليات الاخرى. ورؤيتي لفائق حسن سعادة لا يوازيها سعادة . فها انا في بداية طريق حياتي ومهنتي وطموحي ورؤيته لا يوازيها سعادة.

كنا طلبة الاكاديمية وطلبة معهد الفنون الجميلة، نداوم في نفس البناية لمعهد الفنون الجميلة في الكسرة، اضافة الى مبنى اخر صغير بالقرب من المعهد. في القسم الداخلي كنت في غرفة مع مجموعة من الطلبة، احدهم بصري طيب، يدرس النحت اسمه منقذ الشريدة (رحمه الله) جمعتنا صداقة، وعندما شاهد اعمالي، ذكر لي ان هناك احد طلبة الفنون اسمه صلاح جياد، يرسم بشكل متميز، وان هناك شبهاً بين اعمالي واعماله، ما اثار فضولي وحرصي على ضرورة التعرف الى صلاح، اضافة الى ما سمعته من آخرين في مدح صلاح ورسمه.

عليه عقدت العزم ان اذهب إليه في القسم الداخلي الخاص بهم في الاعظمية، كي اتعرف إليه من قرب، واتمكن من مشاهدة اعمال كثيرة له، وخاصة تخطيطاته ومائياته اضافة الى بعض اعماله الزيتية، فسلمت عليه وهو شاب اسمر وسيم وخلوق جدا ومتواضع، رغم انه يدرك انه مميز وما يرسمه متميز.. وعرض لي عددا من اعماله فوجدتها (مبهرة جدا وبامتياز واكثر مما اتوقع بكثير)، فأدركت انه ظاهرة متميزة وفذة، لا يوازيها احد رغم انه في سنته الدراسية الثانية، إلا انه في الصف الاول من الدراسة لاعادته السنة بسبب الغياب. وبامانة منذ تلك اللحظة

ادركت ان ليس هناك من يوازيه، ولم ولن اتوقع ان ارى امكانية توازي امكانيته وحصل على اعجابي الشديد، وما رأيته من تخطيطات ومائيات مذهلة بكل معنى الكلمة، اضافة الى اعمال زيتية رائعة لمراكب نهرية من البصرة، والتي تميزت باداء متميز .. اي انه فنان متمكن وبامتياز اضافة الى خياله الخصب الثري جدا. فانعقدت بيننا صداقة مثالية كاخوة واحبة جمعتنا المهنة والاعجاب ببعض، واخذت احرص على زيارته بين فترة واخرى، وكذلك حرص هو الآخر على زيارتي بين حين وآخر.. كان صلاح بشكل خاص المحفز لي لانجاز اعمال يجب ان تكون جيدة الى درجة اني لم افكر بغيره، رغم ان هناك عددا كبيرا من الجيدين، إلا ان لصلاح حصة الاسد عندي.

ومن خلال متابعتي لصلاح، عندما يكون لديه درس الوان وتخطيط، تعرفت على فيصل لعيبي، وحسن شويل حيث ان ثلاثتهم من البصرة، وثلاثتهم متميزون من بين كل الطلبة. واستطيع القول ان المنافسة كانت بينهم وبين عدد من طلبة الموصل المتميزين ايضا.

تطورت الصداقة بيننا انا وصلاح وفيصل وحسن، وكانت لقاءاتنا ليست في اروقة الدراسة، بل كنا نلتقي يوميا، وبعد نهاية الدوام نلتقي انا وصلاح بشكل خاص ومنقذ الشريدة في مقهى ام كلثوم في الميدان، وكلنا لدينا فايلات فيها جمع من ورق الجريدة نشتريها من الشورجة بالوزن، وهي رخيصة كي ننجز يوميًا عددا كبيرا من التخاطيط السريعة لزبائن المقهى.. وهكذا هو حالنا كل يوم.

كان مصرف واحدنا لا يتجاوز ربع دينار يوميا: باكيت سكاير جمهوري او تركي بـ 40 فلسا، او سكاير غازي فل، ولفة كيمر او ماعون كباب بدرهم او بستين فلسا، والشاي بـ 10 فلوس، والمصلحة بـ 10 فلوس. وكنا نمشي على الاقدام مسافات طويلة. والامر المهم اننا كنا نرسم طوال اليوم سواء اثناء الدوام او بعده في المقهى، ولا يعنينا مظهر الملابس، ونكتفي بما هو لدينا. هاجسنا الرئيسي الرسم والمنافسة الشريفة في ما بيننا واعجابنا ببعضنا، كذلك اعتزازنا ببعض وبحب كبير.

هؤلاء الاربعة، حصرنا على استمرار علاقتنا، منذ ان تعرفنا الى بعض ولحد هذا اليوم، وبما يقرب من 56 سنة، بحمد الله .

كنت وانا طالب اعمل رساما مستخدما في المتحف الحربي، وكذلك صلاح وفيصل يعملان في مجلة الف باء. كنا متواجدين مع بعض ايضا حتى في الصيف، ومن ثم عملنا في مجلة "مجلتي" كمؤسسين لها، فكان سكني وصلاح سوية في شقة قريبة من المجلة. وهذا يعني اننا نعيش سوية، وكاننا اخوة، بحمد الله.

اعود واقول ان عيني لم تر رساما يخطط ويرسم المائية كصلاح، فهو ظاهرة خاصة ومتميزة ومتألقة جدا.. عندما يخطط وكأنه يطبع دون خطأ او اعادة، بل ليس لديه ممحاة. انه يرسم المائية دون تلكؤ او اي حرج. والادهى من ذلك ان خياله خصب

جدا، يرسم اي حركة بشرية او حيوانية بشكل عجيب، وكأنه يرسم عن موديل او نموذج امامه من دون اية معاناة، ولحد العجب وكذلك حركات الاصابع والايدي والاقدام. خياله لا يوازيه به احد. كان معجبا بمانشيتات السينما الايطالية المرسومة.. منذ ان عرفت صلاح ولحد يوم وفاته، يرسم ليلا ونهارا، ويوميا، بلا ملل ولا كلل، فهو منتج بشكل كبير، شأنه شأن ما انتجه فائق كمّاً ونوعاً. لم ترَ عيني رساما يخطط كصلاح وفائق، اضافة الى آخرين ليس على المستوى العراقي والعربي بل على المستوى العالمي. صلاح مفخرة فنية عراقية متميزة وقد تأثر به عدد كبير من العراقيين. بل استطيع القول ان الاغلبية مرّت بصلاح وفيصل ووليد والكل يدرك قولي هذا.. جيل يعتبر ظاهرة فريدة في الفن العراقي، لم ولن ولم يتكرر.

اضافة الى ذلك فقد كان صلاح يتمتع بصوت جميل. وكان يؤدي لنا اغاني لعبد الوهاب وصباح فخري وبشكل جميل ورائع جدا. صلاح اعتمد على نفسه في حياته. وكان يعمل دون هوادة لضمان توفير متطلبات عيشه. تفاصيل حياته منذ صغره، يعرفها فيصل لعيبي بشكل جيد ودقيق، كونهما اصدقاء منذ الصغر في محلة الجمهورية بالبصرة على ما اعتقد.

اعود الى صلاح، فأقول ان معرفتي بصلاح اعتبرها مرحلة مهمة، فقد كان المحفز للمنافسة الشريفة دون غيره من الاخرين، لتحقيق اعمال بنوعية طيبة، فكنا بمثابة الاخوة الاحبة لبعض، متابعين بعضنا لبعض، لما ننتجه ونحفز بعضنا البعض، لننتج الافضل. وصلاح هو من افضل اصدقاء العمر في حياتي فكلانا يحب الرسم بشكل خاص، ومخلصين له؛ فالرسم يجري في دمائنا وكذلك الحال مع فيصل.. وهكذا دامت علاقتنا الى يومنا هذا.

ما هو مؤلم ان صلاح قضى طفولة صعبة، كما ذكرها فيصل في احد منشوراته. كذلك كانت اموره صعبة، عندما كان طالبا في بغداد، والامرّ منها غربته في باريس، وحياته الصعبة ومسؤوليته تجاه زوجته وابنته.. ما اضطره للعمل في ساحة المونتمارت، التي استهلكته كثيرا في رسم بورتريهات السواح، لقاء مبالغ متواضعة، في حين اعماله تستحق قيماً كبيرة، لكن للضرورة احكامها، ما اثر على طبيعة اعماله وانصرافه عن انتاج ماهو اهم. وكل ما انتجه صلاح هو ذو قيمة متحفية بالحقيقة. وكان الواجب ان تتصدر قاعات العرض الرصينة. ولو يعود الزمن ويكون صلاح في وضع مناسب، كما يفترض، لأتحفنا باعمال خاصة ومتميزة، يقل نظيرها في كل الاحوال، فلصلاح وامكانيته نكهة خاصة ومتميزة فنيا، كظاهرة في الفن العراقي، لكن...! للاقدار طقوسها، فقد اختطف انظار جمع الفنانين العراقيين بشكل متميز جدا. فهو يتوافر على كل صفات الفنان المتميز بلا منازع. كان معجبا بالفن الروسي وبريبين بشكل خاص..

افتقده واذكره على الدوام وكاننا توأم.

كما احزنتني وفاته، وهو في الغربة فكان غريبا في حياته وغريبا في وفاته (رحمه الله): جسده في باريس وروحه تنتقل بين البصرة وبغداد، بين اهله واصدقائه الذين عرفوه واحبوه. رحمه الله بواسع رحمته. فهو سندباد الرسم العراقي، الذي اقوله بشكل متأكد: ان الفن العراقي خسر فنانا خاصا ومتميزا. له اثره في جيله والاجيال اللاحقة. ومن كان يراقب صلاح وهو يرسم كانه يرى حلما جميلا لا يريد ان يفوق منه.

صلاح كان متمكنا من الرسم بجميع المواد: قلم الرصاص والفحم والحبر، الذي لم يتمكن منه أحد كما كان صلاح. وطبيعي أيضا المائية والزيت .

صلاح كان حديث الكل، زملاء، وطلاب فن، واصدقاء، وفنانين عراقيين. وهو استحقاق له.

ما انتجه صلاح من اعمال حديثة تعبيرية تشخيصية هي اعمال مزدحمة بالمفردات والاشكال، لما يدور في راس صلاح فكريا، الا انها كانت على حساب الجمال المرئي.. تربك المشاهد في حل طلاسمها، في حين البلاغة في التعبير هي ما قلّ ودل؛ فمواضيعه بمثابة قصة بتفاصيل كثيرة. وهذا الامر يحسب سلبيا على صلاح حسب رأيي الشخصي. اي التقنين والاختزال هو امر واجب على الفنان، ما يمكن المشاهد من التركيز والادراك السريع للموضوع. اي بتعبير آخر اذا تمكنت ان تعبر عن امر ما بكلمة بدل من جملة، فالكلمة هي الاولى والاكثر قبولا.

بقي شيء واحد قد حيرني مع الراحل الفنان صلاح جياد المسعودي، هو انه كان يضع النظارات السوداء على عينيه ليلاً ونهاراً وحتى عندما يرسم. ولم أعرف سر هذه الحالة، فقد ذهب معه الى العالم الاخر.

بين اضواء باريس.. وأوجاع المنفى
الفنان صلاح جياد المسعودي!!

غسان فيضي

الذي اختبر المنفى وعاش يومياته.. ومواسمه.. همومه.. واوجاعه، تمكن ومن خلال تجربته الفنية الطويلة والمعمقة في تحويل هموم فعل الغربة، القاسي الذي كان يعيش لحظاته يوميا في مدينة النور باريس. وخلق منها مادته المشهدية المتحولة والمتغيرة المتميزة في ترتيب وابداع المواضيع الانسانية، وسط مناخ نفسي متقطع، يملأ به لوحاته بطريقة الإبداع الذي امتاز به فنيا. موزع بين الأمل والخلاص من الحزن والغربة في ان واحد. سيبقى في وجداني صلاح.. ذلك الفنان المليء بالانسانية، والذي رافقته طوال سنوات العمر في بغداد وباريس. وسيبقى دون ادنى شك، احد ايقونات الفن في عالمنا المعاصر.. المتميز باسلوبه الفني الذي ألتزم به، بتجسيد الجرح العراقي، الذي لا يندمل. يبدو لي أن ما كان يكتنز بدواخل صلاح جياد الفنان من حزن مأساوي، انعكس بشكل مباشر على انتاجه الفني. وعلى الرغم من الصعوبات التي عاشها في عالم المنفى، تمكن من تجاوز الوجع المزمن... الذي يصيب المنفيين وتمكن من تحويله، إلى وسيلة ابداعية، خلاقة. جسد ايضا ابداعه في رسم البورتريت في ساحة الفنانين حي مون مارت (Montmartre....) الباريسية ذات التاريخ الفني العريق... الذي طالما تقاسمنا فيه سعادة الرسم جنبا لجنب لمدة ٤٥ عاما، تجلت فيها اطيب الذكريات والمحبة. لم تقتصر تلك العلاقة النبيلة الطيبة في مونمارت، بل انها كانت مكملة لتواجدنا الدراسي في (البوزار معهد الفنون الجميلة الباريسي)، ومع الشلة الطيبة التي جمعتنا، من الصديق الفنان فيصل العيبي وكويان محمود.. وعلي فنجان وثامر القيسي والمرحوم عادل الطائي والاخت ياسمين.... حيث كان لصلاح جياد حضور مميز بين الطلبة كحضوره في المعهد والاكاديمية في بغداد.. حاز بتخرجه درجة امتياز كرفيق عمره فيصل العيبي، من مرسم الفنان الكبير جان برتول (Jean- Bertholle)، احد مؤسسي المدرسة الباريسية. صلاح جياد فنان يمتلك حب الوطن والانسان.. لم تخلُ مقاهي فرنسا وشوارعها من رسومه الجميلة وسرعة تقنيتها.. بعد ذلك نشرب كأس الوين الفان الفرنسي الذي احبه دائما،

ونعود إلى مرسمي المتواضع، كي ارافقه على العود، في اغنية (كَفنهو علّم الغزل) ثم لعبد الحليم: صافيني مره.. انها جمال روحه التي امتاز بها... نفترق لغد جديد مفرح.

ان رحيل الفنان صلاح جياد الموجع، ترك فراغا وحزنا كبيرا في قلوبنا جميعا (اتذكر ما كان يردده لي صلاح في ايامه الأخيرة: لقد رسمت الرفاق بعد رحيلهم المفجع، فمن سيرسمني بعد رحيلي؟) اتمنى ان لا يرسمني احد؟ صورتك يا رفيقي وصديقي الحبيب في القلب والروح خالدا إلى الأبد في قلوب وعيون رفاقك ومحبيك! بعض من إنجازات الفنان الكبير صلاح جياد في باريس وما قدمه من ابداع: جدارية مترو (métro Abbesses)، المتمثلة بشخصية الفنان الفرنسي (تولوز لوتريك) بالإضافة إلى الجدارية الضخمة في مدينة الكارو (la ville de Carroz Hout savoi)، وعمل فريد من نوعه، وهو الرسم على الثلج لمهرجان التزحلق في الكارو (ca-roz) اياد، وقد شاركته في تنفيذ هذا العمل المعقد فعلا.. شارك في معظم المعارض في فرنسا، وحصل على جائزة أفضل رسام في بلدية باريس في منتصف التسعينات.. يبقى ابداعه شاهدا حقيقيا على تلك الروح العراقية النبيلة، وعلى جراح الوطن في المنفى... لترقد روحك النبيلة بكل طمأنينة وسلام.

فرنسا 2020.

فسّخ الوجوه

محمد خضير

بين البصرة حيث ولد الفنان صلاح جياد عام ١٩٤٧، وبين باريس حيث توفي بمرض السرطان في منزله فجر يوم الإثنين المصادف ١٦ مارس ٢٠٢٠، مسافة طويلة من الوجوه التي حفّت ذاكرةَ الفن أو زحمَتْها بالصور والذكريات. قد يلجأ مؤرخُ الفن إلى الوجه الأبويّ أو الأموميّ الأول، الوجوه المسالمة بجمالها، أو المحرِّضة بشزراتها، لتفسير سرّ التلاعب والتحريف العميق لملامح الوجوه الأخيرة، وجوه الغربة البعيدة عن الموطن الأول، هذه التي صار حضورها في مخيال الفنان التصويري صعباً ونائياً وشاحباً كالموت نفسه. تلتحم الوجوه الأخيرة بقاع اللوحة مع أوشال الذاكرة وتصانيف الأشياء المسلوخة عن وظائفها الواقعية والطبيعية: تكوينات سريالية معتمة، قادمة من أقصى منطقة الأحلام. لم يبقَ من مادة الحياة الصلبة سوى ألوان سائحة، وخطوط متشابكة، وعيون جاحظة. لقد حلّت نهاية اللوحة بصورة مقاربة لنهاية فصلٍ من رواية أو قصيدة، فلتنا من قدرة التصور الإنساني على التركيز والمعقولية. نعم، فقد تحلّ نهاية اللوحة كما يحلّ الظلام على منظر ريفيّ، أو محطة قطار في مدينة غريبة. هذا مصير محتمل لنهاية فنانٍ "أصولي"، بدأ بتصوير الحياة وكأنها انعكاس فوتوغرافي دقيق وجميل، قبل أن يُفاجأ بأفول الانعكاسات الدقيقة، والتواء سكّة التصوير المستقيمة. لا معنى لوجود وجهٍ جميل، ثابت وصريح، صلبٍ وجامد كتفاحة معروضة خلفَ زجاج صقيل، ثم أصبح متعفّناً لطول تصويره واستنساخه من دفتر التمارين القديم. الإعادة، كما العودة للأصول، غير ممكنة تماماً، فالرسم الواقعي لا يُعاد إلا بقدرٍ كبير من الزيف والرداءة، وهذا ما لا ترتضيه حاسةٌ طريّة ونقيّة تربّت على الصدق الواقعيّ، لكنها تمرّدت على الحقيقة التشبيهيّة.

توصف رسوم صلاح جياد، في بداية هجرتها، باختبار اللون على فضح الفساد الستاتيكي للوضعيات الإنسانية المستقرة؛ ثم حدث ما يشبه الانقلاب على الأسس والتكوينات الإدراكية، في مرحلة المهجر الأوربي، بانقطاع الصلات العاطفية واستبعاد الوصف الوجاهيّ وتعتيم مصادر الضوء، عند رسمها من الذاكرة. لقد أصبح اللون عائقاً أمام انفلات اللوحة من ذاكرتها اللونية، كما كان الإيقاع الوزني قيداً على القصيدة المتحررة من صحرائها الرتيبة. أصبحتا- اللوحة والقصيدة- نوعين ضدّيين للسأم والتكرار، وتجربتين بدئيتين، حركتين انعكاسيتين على خلفية صامتة. فقد بلغ صلاح بتجارب المهجر، ما ظنّه تغييراً لإيقاع الخطّ

والمساحة، وتركيباً متحرّراً من الشكل الواقعي والتجريدي. كانت خلطته هذه، تعتمد على الإحساس بمهد الولادة، مهد اللوحة، المهزوز برياح قوية، وعنف رمزي، أنفاس الوجوه وهي تنفض عنها لونَها الترابي/ لون الأجداث، وصرخة النشور الجديد على الضفة المقابلة من مطهر العذاب والخلاص. والحقيقة إنّ لوحات الفنانين المهاجرين، كانت صرخات فرح/ عذاب، متقابلة على جهتي الوادي، المملوء بالأجداث التي قَضَتْ في حروب متوالية. وكان عبور الوادي، كما مثّله صلاح جياد في لوحاته، خلاصاً من نوع فريد: إعادة تمثُّل للوضعيات المشوهة، الوجوه المتفسّخة، منذ أمد طويل، لا عبرة للمسافة والزمن والحدود في قياس موتها. إنّها فقط أشكال نهضت على عجل، وجوه جافة، دخلت مساحات اللوحات وتكوّمت عليها، بلا ظلال أو حجوم أو ترتيب، مع الجزمات والأوسمة وأغلفة الرسائل وقصائد الموت. كانت الأجساد المتفسّخة تنشد موقعاً تعريفياً جديداً على اللوحة، بينما الاسم القديم للفنان - الاسم العائلي السعيد - يتساءل عن هويته هو بالذات إزاء مَهربٍ لا بد منه، يشقّ سبيله إليه بلا عنوان ثابت.

يختلف خلاص اللوحة المهاجرة عن تشكّل القصيدة أو الرواية؛ فاللوحة تشكيل لا تكافئه الكلمات، وتبايُن هندسيّ لا يراعيه التعبيرُ الأدبي بأيّ معيار. وكما تصوّر الشكلانيون "معيارَ" اللوحة الجمالي، فهي كالموسيقى المجرّدة من المحايثة الزمنية، قوامُها اللون والحركة الصامتة. كما أنّها تمثيل مسرحيّ بلا أبعاد ماضية، تحضر بكلّيتها أمام العين والإحساس، وتتجرّد من المنفعة والمفاضلة التأويلية. بلا معايير، سوى ما تُحدثه من أثر خاطف، ينفذ إلى الأعماق مرة واحدة، مع كل نظرة. تبدأ اللوحة حياتها مع النظر، وإعادة النظر مرات، ثم يختفي الأثر كشعلة في ظلام. وكان صلاح يتيح للوحاته أن تجذب النظر، بتشابه الأشكال وتعدّد لحظات المشاهدة، صامتةً كالقبور. ولا يمكن تأويل العتمة اللونية، والخلطة التعبيرية، في لوحاته الأخيرة، إلا بتركيز النظرة، مع ما تجلبه هذه من سأم ورتابة، كان قد فرّ من سلطتيْهما على لوحاته الواقعية الأولى. إذن، ما السبيل، لإضافة نكهةٍ لاذعة، تُقحِم اللوحات في قاطرة الهجرة البعيدة، من غير انتسابها الشكليّ للتجريد المطلق؟ لا مَهرب من شعور رسام، يُضطَر الى نقل لوحاته أينما ارتحل، مصاحبتها بحضوره الشخصي، المعنويّ والهوياتيّ، كسائق قطار، غير أن يملأ خلفياتها برذاذ أنفاسه، وحشاشة روحه. قد لا يعاني رسّامون، من منطقة غير منطقة الرسام صلاح جياد، المشغول بهاجس المعنى والمصير، ما كان يسكنه بأقوى حضور وأصدق هوية. غير صلاح من الرسامين، قد يجيب بهدوء مفتعل: "هذا هو الرسم. اللوحة انتهت، والباقي عليكم!". وليس هذا جواب صلاح عن لوحاته: "هذه لوحتي حقاً. وإذا كان فيها عيب فسأصلحه. أنا سائق قطار، وهذه سِكّتي". جواب مفترض طبعاً، لكن قراءة مركزة لأوضاع اللوحات وأشكالها، يضع صلاح جياد على السّكّة، كعين لا تنام، قطار لن يتوقف في محطة. يقظة دائمة، عينٌ هنا، وعينٌ على وجه يأبى أن يتخلّص من إلحاحه على الحضور، في أيّ محاكمة وجاهية، مؤسلَباً وحديثاً في الوقت نفسه. هذه هي النقطة الأساس، والمَهرب الصعب، طرْد الوجه المتفسّخ، وجه الوادي المقدس/ اللعين،

من القفز إلى عربة الرسامين المهاجرين إلى أبعد المحطات. يصرخ الوجه: "ارسمْني. بربّك أخرجْني. ضعْني في الواجهة. ثم ابتعدْ قليلاً كي يراني الآخرون، أو أرى نفسي على حالتي. ألستَ بصاحبي ونديمي؟!".

سيُضطَّر صلاح فعلاً الى تغيير موقعه، والاندفاع بعيداً عن حدود الرؤية والتقريب والمصاحبة الأبدية للوجوه. ستكون لهجرته فصول، ولصُحبته أقران، ولأخويّته شروط خاصة. ليس بعد الآن وقت للذات الراسمة/ المرسومة بعيون لصيقة. وليس للمشاهد، كذلك، إلا أن يقبل بهذه المسافة المفتَرضة. وليست لمثلي، أنا الشاهد البعيد، أيضاً، فرصة لمشاهدة لوحات صلاح جياد، وغيره من المغتربين، إلا الاستعانة بوسائل افتراضية متعددة للتقرّب منها. كما أنّ العين التي تنفصل عن موقعها لتلاحق الأثرَ الهارب، قد ترتدُّ كاسفة. ممّن نطلب العون؟ أمِن انعكاساتٍ هائمة، ارتداداتٍ أولية، افتراضاتٍ بحتة؟ يبدو أنّ البحث عن خلاص، عبور وادي الجثث، فريضة فارضة قهراً، لأيّ نظرة تحاول الالتصاق عن بُعد بلوحةٍ تظلّ سرّاً منيعاً بذاتها. ولا ضير من الاستعانة بقرائن شتى، حيّة وميتة، مقيمة أو مهاجرة، تُدخلنا الى المساحة المفقودة من لوحات صلاح جياد. ولحسن الحظ، فإنّ بعضها باق ومتوفر، رغم رحيل الفنان. فالخطوة تتبع الخطوة، بالقدر الذي تلوح فيه اللوحة قريبة المنال. وليس صلاح ممّن يمحو آثاره تماماً. إن شيئاً كثيراً تناثر على جوانب الرحلة. الوجوه تصطف على جانبي السكّة، كما قد تبدو في فيلم صحراويّ.

صارعَ صلاح جياد تبعات الأسلوب والغاية اللتين دَرَجَ عليهما في أول خطوة. وليس مثله فنان أحسَّ بثقل الاغتراب المشدود بخيط متوتر لضفاف وجوهه. أظهرت دفاتره المدرسية الأولى (المنشورة مؤخراً على الفيس بوك) ولعاً شديداً بتصوير الوجوه؛ هذا الولع الاستحواذي الذي سيوسّع إطار لوحاته ويعينها على الإفلات من مونولوجية الوجه الأول: صديق الطفولة، معلم المدرسة، فتاة المحلة، شحاذ الشارع والسوق المحلّيّ، شخصيات أفلام السينما، حيث ولِدَ ونشأ في محلة "الجمهورية" بالبصرة، فيزجّها في تركيبات حواريّة مع الذاكرة وطقس الغربة على وتيرة متصاعدة. لقد تغيّرت أمزجة هذه الوجوه بتغيّر المكان الجغرافي، وملامستها هواء الساحات المكتظة بوجوه غريبة الملامح؛ وأخرى ناهضة من أعماق المكان الأول، مصرّحة بالتوجس من الفقدان في مساحات اللوحات الحوارية الكبيرة.

لم تكن سيرة صلاح المهنية: دراسة الفن في بغداد، امتهانه رسم الوجوه في ساحات باريس، سوى امتداد لخطوط المحلّة، ثم لرسوم مجلة (ألف باء) التي عمل فيها مع فنانين آخرين، فيصل لعيبي وبسّام فرج، ورافق نعمان هادي وفيصل لعيبي في رحلتهما الباريسية، وهما اللذان سيحملان معه الولعَ القديم ويبرزانه في إتقان التعبير وتأصيل المهنة إلى أبعد الحدود والمسافات. فمن الخطّ العميق واللون الفحمي المحلّيين، ستواصلُ وجوهُ المنشأ- الأصل- وجوهُ المحلة والدراسة - ارتسامَها على منوالين فنيين. ستُشرق الوجوه، في مرحلتها اللونية الثانية، صافنة، مبتهجة، من دون أن تنفصل تماماً عن ظلال الخلفيات الغامقة وهالات العطف الرقيق، الشبيهة بهالات الرسُل والأنبياء. أمّا حين توغلت تلك الوجوه في مرحلتها

الأخيرة، فقد تعمقّت صفنتُها، واشتدّ زوغانُها واختفاؤها، حالما دخلت المساحات الموحلة بالألوان ومشتقاتها الكدِرة، حتى تعاظم توجسُّها بعد أن أحاطت بها خلفياتُ الأشكال الإضافية المحوَّرة، وظلالها الشبحية. وهذه حال لوحات صلاح بصورة خاصة، إذ عانت غربةَ الأصل بدرجة مضاعفة مرتين: الارتحال الهادئ مع حقيبة من "السكيتشات" المدرسية، والارتحال القسري بسحبها إلى بيئة لونية صاخبة بالمؤثرات التعبيرية الجديدة.

كانت وجوه/ بورتريهات الرفاق الثلاثة (صلاح وفيصل ونعمان) المرسومة بحرص متناه، حنونةً، متعَبة، محفورة بفرشاة التمازج والتعاطف الرفاقيّ، ثم أصبحت قلقة، متوجسة، مع ازدياد رغبتهم في تخليصها من روابط الماضي ومصادفاته الأليمة. ولعل هذا "التخليص" الواقعي من سيرة البدايات الأكاديمية، سِمة يشترك فيها أغلب فنانينا المهاجرين، الذين تركوا عيناً لهم على الداخل الجغرافي والروحي النائي، واحتفظوا بالعين الثانية لما تبقّى من حياة الرسوم المتحررة من ربقة البدايات، والمسرفة في تشوّف النهايات.

ومثل هذا "التخليص" الحرّ من قيود "الوجه" المحلّي، يتمثل بأقوى خطوطه وكتلهِ وألوانه لدى صلاح جياد، الذي أخذته "العزّة" الأكاديمية باقتراف "الإثم" التعبيري بهالته التجريدية "العالمية"، ورغبته في إقحام أشكاله بثيمات افتراضية حرة. نلمس هذا الابتعاد التدريجي عن الخلفيات "الرسولية" لوجه محلي منفرد، كثيفِ الظلال، موحّدِ التعبير، عندما يبلغ مداه في الحجم والاتساع واللون وتحطيم النِسب وتفكيك الروابط وتشويه الخِلقات واخفاء المقاصد. لم تبق لدى الفنان الذي جرّب "التوحُّد" وتركيزَ الخطّ والبؤرة والخلطة اللونية، إلا رغبة تحطيم النسبة الذهبية وتبديد الميراث؛ فكأن لعنة الوجوه البريئة قد حلّت على فرشاة "الحشر" الكوني الذي أحاط بالفنان وشتّت تركيزه واستلبَ عاطفته الأولى. وليس ما أجراه الفنان على لوحاته دليل انتقالٍ ثيماتي من بيئة مألوفة قاصرة إلى بيئة غريبة مشجعة؛ فقد كان فناناً واثقاً من إمكاناته التجريبية؛ إنّما كان ذاك استجابةً للخطوة الجديدة التي نقلت رؤيته من سيماء الوجوه المونولوجية إلى حواريات الأشكال التركيبية، حيث أصبحت الموهبة الأكاديمية أمام محاججة سيميائية أوسع وأسئلة وجودية أعقد. لقد أصبحت الموهبة المدرسية سؤالاً واجب التخلّص من تبعاته الجمالية والأخلاقية.

كانت "لعنة" الموهبة البريئة، المتراقصة كعيون ميدوزا، أو المتطيّفة بألوان الصيف العراقي اللاهب، قد أطاحت عن قُرب بموهبة فنان واقعيّ آخر، من جماعة المجددين الأكاديميين، محمود صبري. وأظن مثل هذه المقارنة واجبة في هذا المضمار، لتوكيد الشتات الجماعي، ببُعديه الواقعي والرمزي، لفنّاني حقبة الرسم الأكاديمي، ما بعد التفكّك المأساوي للروح الوطنية (ذات الأصول البغدادية البحتة). إنّ أيّ دليل جامع للاتجاهات المفكّكة هذه (تصفّح أيّ ألبوم مطبوع للوحات رسّامي تلك الفترة) سيُثبت حلولَ تلك اللعنة. ولا أرى رساماً من فناني الشرق الإسلامي، أشدّ قلقاً وانقلاباً على هويته الرسموية "الرسولية" من الفنان العراقي. إنّ صلاح جياد نفسه، كما تُظهره الصور

رافعاً فرشاته أمام لوحته المتسعة كصحراء متموّجة بالكثبان، قد واجه هذه اللعنة، لعنة المرسم/ المدرسة التي طاردته واضطرته ليحاور لغةَ المتحف والمتجر وفضاء الميديا المتشابك في افتراضاته وسرعة استجاباته للتحولات والمفاجآت الغريبة.

ليس في هذا الاستنتاج صعوبة مثل مشكلة ردّ النهايات على البدايات، في سيرة الفنان صلاح جياد الفنية. إنّه من أكثر الرسامين الثلاثة (أصحابه الموهوبين) اغتراباً وانقلاباً على هالاته الرسولية. لقد أمعنت لوحاتُه الأخيرة في خرق النسيج الشكلي واللوني، وتبديد الحدود والنسب، وخلط المقاصد والمواقف، كي يصل إلى سرّ التركيب الأمثل وضبط الزاوية البؤرية لوجوهه التي تتقلب تحت طيف ألوانه "الميدوزية" الخدّاعة. إنها الألوان الزُرق والرمادية بدرجاتها المتلاطمة في مياه نظرته المدرّبة على الغوص والالتقاط، لكنّها الألوان المعتمة لشدّة اختلاط الوجوه المتفسّخة داخلها. جعله التفسُّخ الأزرق يُمعن في تخليصها من شبكتها الموحِلة، إلا أنّه زادَ في ابتعادها عن شاطئها القريب، شاطئ الألفة والتأليف المتوازن/ هارمونية الهالات الرسولية. وفي هذا الصخب اللوني، والتأليف التعبيري المفكَّك، فقدت الوجوهُ اتصالها بمراقب/ مشاهدٍ يراها على حقيقتها. لقد اكتملت دورةُ الوجوه الصامتة، وبدا الفنان الذي طاردها مُتعَباً، متخلّياً عن بنوّتهِ العاطفية لها. صار مأسوراً لرغبته الوحيدة في الافتراق والاختلاف، الانفراد من دون هالاتٍ توديعية.

لو لم يكن صلاح جياد حدّياً في حلوله التشكيلية، لذهبَ مذهبَ زميليه، فيصل لعيبي في توطيد خلفياته البيئية الشعبية، ونعمان هادي في امتداده السوريالي. لكنه كان روحاً "مسكونة" بنظرات الوجوه التائهة عن مسارها القديم، زائراً لبيوت مهجورة إلا من روائح الأفرشة والثياب والأصباغ والتوابل وصدأ السلاسل والمسامير. وهذه خلطة يعسر على أيّ فنان تحضيرها من ذاكرته، ما لم يكن ابناً أصيلاً لصُنّاعها ومستعمليها الأوّلين. وبقدر ما أصبحت الخلطات القديمة نادرة، بل تافهة وساذجة، صار توق الفنان للتمدّد والاتساع على لوحته، وخوض تيارها الموحل، في ذروته.

إن الكلمة الرسولية، التي ارتسمت يوماً على شفتي وجهٍ مونولوجي وسيم، مترقرقٍ بلونه المائي، في كرّاسة محمولة تحت الإبط، أو على ورقة مُسنَدة إلى حاملها في قاعة المعهد، أخذت تبتعد وتضيع وسط صخب اللعنات الاحتجاجية على وضع حواريّ لم يتم إسناده برضا النفس الراسمةً قبل الرحيل النهائي. يغادر صلاح جياد الحياة (في ربيع 2020) وكان قد مدّ خيطاً دقيقاً إلى أصدقائه القليلين الذين يفهمون حُجَجَه الراحلة معه؛ خيطاً من حزنٍ ظلّ يرتسم على الوجه تحت القبعة السوداء، مدّه نحوهم بلا انقطاع. توارى الوجه الجميل، بقيَ الخيط سائباً. حقاً، الحزنُ شيء لا يمكن رسمه!

2020/3/20

صلاح جياد، حضور الموهبة وسحر الرسم

ستار كاووش

ها هو الرسام الأنيق صلاح جياد يرحل بعيداً، لتبقى لوحاته وتخطيطاته ورسوماته شاهدة على موهبة فريدة ونادرة، قلما يجود بها الزمن. مضى الفنان وحيداً وبقيت اعماله خالدة، تشير الى مسيرة استثنائية في الفن العراقي. انبثقت موهبة صلاح منذ صباه في العراق بشكل فاجأ الوسط الفني، وكأن هذه الموهبة زهرة نادرة وجميلة كبرت ونضجت مع الوقت لتتحول الى بستان عامر ومثمر وجميل، ليطغي عطر موهبته على كل الرسامين الشباب المجايلين له، والذين جاءوا بعده. وليس هذا حسب بل ان هؤلاء انجذبوا اليه متطلعين الى تلك الخطوط السريعة اللينة الواثقة التي يحركها على الورق برشاقة تتماهى مع حركة الفتيات الجميلات اللواتي يرسمهن بمهارة أستاذ وحساسية عبقري وروح موهوب نادر. ليس هناك الكثير مما يقوم به صلاح لينتج لنا هذه العجائب، فما عليه سوى الامساك بقلم التخطيط لتتحول أوراق الرسم الى أجنحة تطوف بين مريديه ومحبي فنه. والمهم أن يبدأ كي نشاهد الجواهر تتقافز بين يديه، وتستقر على السطوح التي يرسم عليها. لكن كيف تسنى لهذا الرسام أن يبقى شاباً الى الأبد؟ وكيف تحول الى ايقونة تتناقل اخبارها تجمعات الشباب والمنتديات الفنية ولقاءات الرسامين؟ كيف أصبح بطلا للرسامين الذين يخطون خطواتهم الأولى نحو عالم الرسم، وما هو سر هذه المكانة التي لم ينافسه عليها أحد؟ ما هي المقومات التي اعطته هذا التأثير والحضور الذي لم يتصنعه ابداً، بل ناله من خلال موهبته العظيمة وتقدير الآخرين لأعماله التي كان لها تأثير السحر لكل من اراد أن يتعلم الرسم. وباعتباري واحداً من محبيه، فحين عملتُ بضع سنوات رساماً في مجلة ألف باء، في بداية تسعينيات القرن العشرين، ورغم ان طريقتي في التخطيط مختلفة تماماً عما رسمه قبلي للمجلة، مع ذلك كنت ابحث في الارشيف عن أعماله القديمة هو وفيصل لعيبي لأقع على سر هذه المكانة الفريدة، التي لم تتغير مهما مضت السنوات. وهناك رأيت من خلال تخطيطاته ماذا تعني سرعة التخطيط، سرعة اعطت للرسومات لمحة كبرياء كسرعة عزف نيكولو باغانيني على آلة الكمان، سرعة تشبه من يريد ان يقول شيئاً دون تردد ويعرف أن النتائج ستكون باهرة، ولا تحتاج الى اعادة أو تصحيح! يا لها من مهارة مصحوبة بخيال ينثره على ملامح الشخصيات، حتى خيّل لي بأن صلاحاً يرسم أسرع مما يتكلم، بل ربما أسرع من اي شيء آخر يقوم به في حياته، ومع تخطيطاته عرفت معنى ان تبوح بكل

عواطفك الى ورق التخطيط، وتأتمنه على مشاعرك وجانب كبير من روحك. فحين يمسك صلاح أدوات الرسم، فهو كمن يفتح باباً سحرياً يقوده نحو عالم غريب، مليء بالفتيات الجميلات والموديلات التي تهيأت له بمحبة كي يأخذها معه الى عالمه الفني الرحب. بقي صلاح شاباً بوسامة خطوطه المليئة بالعاطفة ووسامة شكله الجميل، كذلك بشخصيته الوديعة الهادئة، بقي في الذاكرة وسيبقى الى الأبد كأي نجم محبوب لمع في سماء بغداد وباريس وباقي الاماكن التي احتوت جانبا من حياته وفنه، لكن من المؤكد أيضاً أن ظله الملون سيعيش ايضاً في ساحة مونمارتر. وسيبقى طيفه محلقاً فوق اصدقائه الرسامين هناك ليطمئن على وجود موديلات جميلة، وسأبقى اتذكر لقائي الوحيد به في تلك الساحة وهو ينهض من مكانه بمحبة وتواضع، مادا يده المبدعة للتحية، بينما نظرته الودودة التي برزت من تحت قبعته الداكنة، تعيدني الى تلك الايام التي كنت ابحث فيها بالأرشيف عن تخطيط له هنا وهناك، كي أصدق بأن هذا الرسام العظيم كان هنا يوماً يرسم في ذات المكان الذي أرسم فيه.

الفنان صلاح جياد المسعودي وإشكاليات العمل الفني

فيصل لعيبي صاحي

مقدمة لا بد منها

اظن ان من أسباب تخلف الكتابات الفنية عندنا عن اللحاق بلوحة الفنان العراقي، هو طبيعة طرق التدريس في المعهد والأكاديمية، حيث هيمن المنهج الغربي في الدراسة والتطبيق. وتوطدت الأفكار المصاحبة للأساليب الغربية التي جاء بها فنانونا الأجلاء من أوربا بعد دراستهم هناك. وبسبب عدم وجود تاريخ تشكيلي يمتد الى أبعد من نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين. فمعهد الفنون الجميلة وخاصة قسم الرسم، كان قد تأسس عام 1939. وولد الفنان العراقي، وهو لا يملك تاريخا فنيا ممتدا مثل الفنان الأوربي مثلاً، ولا يوجد لديه متحف للفن التشكيلي العراقي يمكن العودة إليه، إذا استثنينا متحف الآثار الذي تأسس في ثلاثينيات القرن الماضي، والذي لم يلتفت له الفنان العراقي إلا متأخراً، فصار ينهل من الأساليب الغربية المختلفة وطرق تدريسها تهيمن عليه. ويعتمد معظم الكتّاب عندنا على مفاهيم الفن الحديث الغربية بينما الحداثة نفسها، التي انتجت تلك المفاهيم، قد تم توجيه النقد الحاد لها، ووضعت في الأرشيف الحضاري للتاريخ البشري، وجاءت مابعد الحداثة، لتزيح المركزية الأوربية و"آيديولوجية الرجل الأبيض" كما يسميها المفكر الفرنسي جاد داريدا، لتفسح المجال لشعوبنا للتعبير عما يمور في داخلها، ويعبر عن تطلعاتها، ومن خلال أساليبها الخاصة بها، وليس المستوردة مثل الطعام المعلب. وظل الكتّاب عندنا عاجزين عن استنباط نظرية او فلسفة وحتى وجهة نظر من اللوحة المحلية نفسها، ومن خلال واقعها وظروفها وعلاقاتها المختلفة بالفنان والبيئة والمجتمع. فالعمل الفني العراقي يفتقر الى الجهد النظري الخاص به، والمنطلق من العمل القائم بالذات، أي ان المفكرين الجماليين والمنظرين عندنا وخاصة محمود صبري وشاكر حسن آل سعيد والمعمار رفعة الجادرجي. وهم أبرز من نظّروا للفن والثقافة عندنا، وكتبوا كتباً في هذا الخصوص، قد إنشغلوا بالأفكار العامة والشاملة. فبالنسبة لشاكر حسن كان الجانب الديني إذا توخينا الدقة والذي منعه في النهاية من مصافحة النساء، وترك اللباس الغربي وإرتداء الملابس التقليدية، هو المهيمن عليه وعلى أعماله، رغم ما كتبه عن جواد سليم وعن جذور الحركة التشكيلية العراقية التي حاكمها من خلال الفكر الجمالي الأوربي والأساليب الغربية كذلك. بينما نجد محمود صبري منشغلاً بنظرية الكم والجانب الذري

للمادة. وإتجه المعمار رفعة الجادرجي الى فكرة الوجود والعدم، التي تواجهها البشرية، فاعتبر الفن كشكل من أشكال التعويض والحل النفسي.

ونجد أيضاً، عدم إهتمام بعلم إجتماع الفن أو جدلية العلاقة بين الفنان وبيئته أو بين الفنان واللوحة أو الفكرة التي تقوده الى إنتاج مثل هذه اللوحة. ويرى البعض أن تعبير الفنان عن فكرة ما، يضعف فنية العمل، ويقلل من شأنه كعمل إبداعي، ولا أعرف أين نضع (نصب الثورة) لجواد سليم او (نهضة مصر) لمحمود مختار، أو الـ (جيرنيكا) لبيكاسو، وما انتج من اعمال فنية خالدة لفنانين من امثال دييغو ريفييرا وسيكوريوس المكسيكيَيْن وغيرهم؛ فتاريخ الفن يؤكد ان للفن دوراً هاما في حياة الشعوب ويقظتها وحتى تحررها. وان هناك اكثر من وظيفة يمكن القيام بها من خلال العمل الفني. أي ان الفن متعدد الاهداف والوظائف. ولا يمكن ان يُحْبَسَ بوظيفةٍ واحدةٍ وحيدة او هدفٍ محددٍ لا غير. فالصلة بالواقع والمحيط والجو الثقافي والمعرفي وحتى العلمي، ظلّت قائمة بين الفنان وعمله بكل أبعاده.

إن الكتّاب والمتابعين للمعارض الفنية عندنا لهم وجهات نظر تحمل تأثيرات الأفكار المتعلقة بحركات فنية مختلفة وبنى مجتمعية وثقافية أخرى. فيتعرض الفنان عندنا الى محاكماتهم غير العادلة، ويتوجه له نقد من خارج لوحته بطريقة تبدو موضوعية، لكنها تناقض ثقافته، ولا تتماشى مع أعماله. وهي عادةً ما تلغي فردية الفنان والظروف التاريخية والثقافية وحتى الإقتصادية التي رافقت ظهوره. أي انه نقد بمفهوم البنيويين يتجاهل المبدع ويعلن "موت المؤلف" كمنتج للعمل الفني، وتتنكر لطبيعة المرحلة، وظروف الفنان وعلاقاته وحتى أفكاره وقصديته تنكراً تاماً. وتتركز الكتابة على العمل خارج كل تلك العوامل والأسباب، وتقدمه مجرداً من كل ما يحيط به. فيتحول العمل الفني الى شيء معلق، وبعيداً عن أي مرجعية.

الفنان صلاح جياد المسعودي في بغداد

وصل الفنان صلاح جياد المسعودي الى بغداد عام 1964 قادماً من البصرة الفيحاء، وهو مليءٌ بالحماس، ليصبح اسماً متألقاً في الحركة التشكيلية العراقية. ومنذ البداية ادرك أساتذته وعلى رأسهم ملك الرسم العراقي فائق حسن قيمة صلاح. وكانت تاثيرات الفن الروسي والحركة الرومانتيكية الفرنسية ورائدها يوجين دولاكروا بالذات، واضحة عليه، فإختط له طريقاً مختلفاً عن طلبة المعهد وقتها والذين كان معظمهم يحاول تقليد الفنان فائق حسن أو مجاراته في التقنية والأسلوب أو يولي وجهه نحو الحداثة الأوربية، محاولاً تقليدها، تخلصاً من قيود وصعوبة الرسم الأكاديمي. ووصول صلاح الى بغداد اقترن كذلك بتغيير سياسي نقيض لما كان عليه العراق في العهد الجمهوري الأول؛ إذ صاحب وصوله صعود التيار القومي (البعثي - الناصري) الى سدة الحكم، وتدميره القوى اليسارية والديمقراطية والمنظمات المهنية والنقابات والجمعيات والنوادي ومؤسسات المجتمع المدني، فإنحسرت السلطة كما هو الحال في العهد الملكي بفئات محدودة وبجهات مناطقية، ومدن عراقية معينة، تنتمي معظمها الى قيم القرية والريف والبداوة وليس الى قيم المدينة.

وكان ظهور مؤسسة الصحافة الرسمية

وقتها، قد فسح للفنان صلاح جياد المجال واسعاً للعمل كرسام صحفي مهم، في مجلة (ألف باء) المجلة الرسمية للدولة و(مجلتي) و(المزمار) المخصصتين لثقافة الطفل واليافعين. فبرز دوره المميز من خلال أسلوبه الرشيق والمتين في آن. فصلاح يرسم بطريقة مختلفة، ولا تقل جودة ومهارة عن أساتذته. وكان لصلاح - لحسن الحظ - زملاء مهمون، لا يقلون عنه جدية وحماسا، مثل الفنان والأستاذ وليد شيت طه، والفنان والأستاذ نعمان هادي سلمان. فأصبح وجودهم مع صلاح حافزاً مهماً جعلهم بعد ذلك يلتقون في (جماعة الأكاديميين العراقيين) الذين جمعهم فيها الفنان كاظم حيدر، إضافة للفنان عقيل عبد الرزاق الأوسي، وكاتب هذه السطور. وتمت إقامة معرضهم الأول عام 1971 على قاعة متحف الفن الحديث ببغداد (قاعة كولبنكيان). لكنهم تفرقوا في بقاع الارض، ولم يعد في الإمكان تجميعهم بمعرض خاص بهم، خاصة بعد تبدل الأوضاع في العراق وقيام الحرب واتخاذها مساراً مأساوياً ودموياً.

تطورت ادوات صلاح التعبيرية والخامات التي يستخدمها وتنوعت واخذت تنمو في داخله مميزات اعمال تعبيرية ملفتة للنظر، وجديدة على الرسم العراقي المعاصر. تستمد عناصرها الأساسية من التراث العراقي القديم وخاصة الفن الآشوري، الذي يُظهِرُ الجسد البشري والحيواني بتشريح مختلف عن سائر فنون حضارات تلك الفترة. وأصبحت شخصيات لوحات صلاح هذه قريبةً من ملامح شخوص الفنان كاظم حيدر، خاصة في لوحته الشهيرة (الشمر) ولكن بعنفوان أكبر وحركية مندفعة، لا يمكن صدها عكس شخوص كاظم حيدر الساكنة، رغم ضخامتها، مع مهارة ودقة ومتانة أكثر نضجاً، وهي تذكرنا أيضاً بشخصيات الفنان الإنكليزي الرمزي وليم بليك. فتميزت لوحة صلاح في هذه الفترة بالإنفعالية والتمرد والتجريب المقصود مع مساحات عريضة وممتدة أبعد من تلك المساحات التي شهدتها اللوحة قبل ذلك. وصلاح يقدم لك عالماً مشخصاً، لكن مع اقترابك من نسيج اللوحة تجد حركات فرشاته مفعمة بالمادة واللون والكثافة والحيوية. وكل جزء من عمله، يمكن ان يشكل عالماً قد يتحول الى لوحة لوحده، لو اراد له صلاح ذلك. وهو سريع الإنجاز في بناء اللوحة وموضوعها، لأنها تكون قد اختمرت في ذهنه قبل ان يرسمها على القماش الأبيض الذي امامه وهو مثل زملاؤه في جماعة الأكاديميين، يقوم بدراسات مصغرة لأعماله، قبل تنفيذها على اللوحة المقصودة. وهذه الطريقة هي المتبعة طبعاً في كل الأعمال الفنية، غير المعتمدة على الصدفة والعشوائية. وكانت هذه الأعمال في ظني، هي ردة فعل مباشر لما جرى من جرائم وحشية بحق المناضلين الشرفاء من اليساريين والشيوعيين والديمقراطيين المستقلين الذين دخلوا قصر النهاية، ولم يخرجوا منه خلال الإنقلاب الدموي الفاشي يوم 8 شباط عام 1963 وظلت تصرخ وتعلن إدانتها الواضحة لكل ما جرى وقتها، مثل كراس الفنان محمود صبري عن الإنقلاب نفسه، ومعرض كاظم حيدر (ملحمة الشهيد) كذلك. إذ تمثل جميعها انحيازاً للناس والقيم الإنسانية النبيلة وكذلك تعبر عن جهود الفنان العراقي في بلورة تجربة فنية تلامس وتكشف موقف المثقف من احداث المجتمع الذي يعيش

فيه، تضاف الى جهود الفنانين الذين ربطوا الفن بمشاعر الإنسان ومشاكله الإجتماعية الملتهبة.

كان صلاح مدركاً لإشكالية اللوحة وعلاقتها به وبالمجتمع وبالتاريخ والمرحلة التي يعيشها. وقد عبر عن هذا الوعي بجدارة وإخلاص، كما انه نجح في تجاوز عثرات الفنانين الذين انتجوا اعمالاً لها صلة بالواقع الإجتماعي للفنان، لكنها سقطت في المباشرة وكانت تنقصها مهارة صلاح ودقته و– ربما - اخلاصه، لأن معظم تلك الأعمال التي أنتجت خلال فترة وجود صلاح في بغداد، وقبل سفره الى فرنسا. واقصد هنا السبعينات وما تلاها، كانت بأوامر سلطوية عليا وغير نابعة من رحم المعاناة الحقيقية للفنان، تجاه مجتمعه وما يدور فيه وهناك من أُكرِهَ على تنفيذها أيضاً مثل لوحة الفنان فائق حسن عن التأميم، والفنان حافظ الدروبي عن نضالات حزب البعث، ولوحة الفنان فرج عبو عن نفس الموضوع. ومن شاهد او عرف أعمال صلاح التي نفذها ضمن هذا التوجه، يدرك الفرق بين أعمال صلاح واعمال الفنانين الذين انتجوا اعمالاً ضمن هذه الموضوعة ممن طلبت الدولة منهم رسم ما يناسب توجهها الفكري والسياسي وقتها، أستثني هنا أعمال الفنانين: نزار الهنداوي في جدارية (التأميم) وخالد الرحال في (نصب المسيرة)، وإسماعيل فتاح الترك في (مقام الشهيد)، وعلاء بشير في (نصب اللقاء)، والتي هُدِمَتْ مع الأسف، بعد احتلال قوات التحالف الأمريكي الغربي للعراق عام 2003، بإستثناء مقام الشهيد للفنان إسماعيل فتاح الترك، حيث كانت تملك حضورها الإبداعي الذي قدم رؤية فنية مختلفة للنصب السابقة عليها. ويضاف لها - ربما - إيمان هؤلاء الفنانين الحقيقي بالمعاني التي ارتبطت بمنجزاتهم تلك. أي انها نفذت بدون إكراه وبرغبة من الفنان نفسه للقيام بعمل ملحمي يضاف الى ما هو قائم من نصب، رغم إشراف الدولة عليها.

مع صلاح وصحبه برز اتجاه آخر من الواقعية في الرسم، متحرراً من هيمنة أسلوب الفنان الكبير فائق حسن، ومرادفاً له في نفس الوقت، وأصبح بمقدورنا التمييز بين الأساليب وحتى معرفة فرادة كل فنان في ملمح مغاير لملمح صاحبه الاخر. كانت واقعية الفنان الكبير فائق حسن واعمال هؤلاء الفنانين الواقعية، خطوة مهمة للرسم في العراق، لأن هذه الأعمال تعتبر جديدة على الرسم العراقي، قياساً لما قبلها، لكنها تصبح تقليدية وغير حديثة لو حاكمناها بمفاهيم الفن الغربي الحديث. وهذه المقارنة تشمل معظم نتاجات فنانينا حتى الحديثة منها. وهنا يظهر التناقض واللاموضوعية في حالة مقارنتها بالمدارس الغربية، لأن هذا سيخرجها من سياقها التاريخي والإبداعي بالمعنى المحلي. ويجعلها تنتمي الى عصر آخر ومجتمع مختلف وتقاليد فنية مختلفة.

الفنان صلاح جياد المسعودي في باريس

أدرك الفنان صلاح جياد عند وصوله الى باريس، بان ما قدمه من أعمال ذات واقعية عالية وبمميزات عرف بها شخصياً، لا يكفي هنا في باريس، وهو ليس بصدد منافسة الفن الغربي بواقعية لم تعد مطلوبة، وعليه ان يخطو الخطوة الثانية والضرورية نحو البحث عن أسلوب يميزه ويعطي لأعماله فرادة، فكان التراث الفني العراقي القديم، هو الملاذ الأكثر اماناً وثقة والذي سنراه في أعماله خلال

الوجوه والعيون التي تنتمي الى الحضارات العراقية القديمة، وكذلك أشكاله التي تنتمي الى الفن الإسلامي من خلال الأهلّة والأقواس والزخارف التي اخذت تظهر في بعض أعماله، مع بقائه مخلصاً لتقنيته التي عرف بها من حيث حركة الفرشاة وطبيعة اللون والخط وملمس اللوحة وسطحها، فكان يجري عليه العديد من التجارب حتى يستقر على حل مناسب. واتجهت أعماله الى التجريدية التعبيرية مع إشارات ودلالات شكلية لملمح بشري او رمز تاريخي من حضارات وادي الرافدين المختلفة، دون نسيان منجزات الفن الغربي المعاصر.

كانت اللوحة عنده تحمل وعيه ومشاعره ونظرته التي استقر عليها في سنواته الأخيرة وصارت هذه اللوحة عالمه الذي يهرع إليه، كلما تنتابه حالة من القنوط او الاكتئاب والحزن. فهو رغم تظاهره بالمرح واللامبالاة كان يخفي تحته بركانا من الغضب واللوعة والخذلان.

فالورطة الذي وجد نفسه فيها – أقصد العمل في ساحة الرسامين في مونمارتر في باريس - لم يعرف كيف يتخلص منها. وكانت امامه اكثر من وسيلة للخروج منها لكنه لسبب ما آثر البقاء في الساحة. وهذا يذكرني بمقالة نشرها في مجلة (ألف باء) في السبعينات، إن لم تخني الذاكرة، يتحدث فيها عن العقرب عندما تحاصره النار ويدرك نهايته، فيلدغ نفسه ليموت قبل ان يحترق فيها. هل كان الفنان صلاح يفكر بذاك العقرب الذي كتب عنه مرة، وهو ينتظر زبائنه في ساحة الفنانين؟

أي خسارة فادحة تلك التي ألمت بالرسم العراقي وحتى العربي التي ساهم فيها صلاح بنفسه، وأي جهد ضائع كان يمارسه وهو يحلق وجوه زبائنه في ساحة الفنانين تلك، كما كان يصف ساخراً عمله فيها؟ عشرات الألوف من الوجوه مرت على موسى صلاح، لكنها لم تضف شيئاً لفن البورتريت الذي أبدع فيه صلاح أيما إبداع، ولم تعط لصلاح ما يمكن توظيفه في لوحاته الفنية الخاصة. جهد اكثر من أربعين عاما ذهب هباءً منثورا !!! لماذا لم يفكر بالتوجه للبلاد العربية التي تعرفه، ونال منها جوائز ذهبية عديدة في مهرجانات الفن العربي في العديد من عواصمها في سبعينات القرن الماضي؟ لماذا لم يفكر بإقامة معرض له في واحدة من هذه العواصم التي يهرع إليها كبار فناني الغرب وكلرياته الشهيرة أو حتى يشارك في نشاطاتها ومواسمها الفنية المختلفة والمتكررة؟ أسئلة لا اجد لها جوابا مقنعا بالنسبة لي. وكان يتهرب من دعواتي له لإقامة معارض مشتركة في العديد من عواصم عالمنا العربي مثل بيروت وعمّان، الكويت، المنامة، دبي او الدوحة. هل كان يستنكف العرض هناك وهل كان عمله في الساحة المليئة بالمشاكل والمنازعات والغيرة بين رساميها مع انتظار ممل لزبائن مختلفي الأمزجة والاهواء ومجاملتهم والنزول لتلبية رغباتهم هو الافضل؟

بعد ان ينهي عمله في الساحة، يمر على الساقي ليرطب الروح والقلب بالصهباء، ويعود منهكاً لبيته، فينغمر بالرسم حسب الوقت المتاح له. يضع هنا بقعة وهناك ضربة فرشاة وهنا يصب قليلاً من القهوة ويضيف بعدها شيئا من الحبر الملون على الورق، محدثاً تقنية تقودها الصدفة والمراقبة معاً. قد يستمر في محاولاته حتى وقتاً متأخراً من الليل او يكتفي بهذه العملية ليرى نتائجها صباحاً،

بعد ان تجف وتصبح جزءاً من اللوحة.

كان يجرب كثيراً، يبحث عن اللوحة التي اخذت تبتعد عن ماضيها التشخيصي، وعما يعبر عنه ويلبي رغبته او مبتغاه من العمل الفني. ترك اللوحة تقوده وأهمل قاربه السكران يتمايل بامواج روحه الملتاعة، متخذاً من الخدر الذي كان يسري في بدنه والضبابية التي تتكثف في مخيلته فتأخذ طريقها الى سطح اللوحة. هل فقد الإتجاه الذي يبحث عنه وأختلط الوضع عليه؟ هل ادرك صعوبة الإنتقال من التشخيص الى التجريد، وهو المتمكن الجريء؟ هل ضاق بكل هذا واخذ يخوض غمار بحره الصاخب دون بوصلة؟ الأعمال التي نفذها في سنواته الأخيرة توحي بذلك ولا توحي معاً. فهي معمولة بحرص ودقة وبعفوية متناهية معاً، مع حذر اعرفه عند صلاح اكثر من غيري. ففي تلك الأعمال يختلط المعنى باللامعنى، وتمتزج الدقة المتناهية مع العفوية والصدفة. تبدأ الرحلة من مكان غير محدد في لوحة ليس فيها مركز او نقطة، يمكن ان تجتمع فيها الدلالات. وهي تتصف بالغزارة التي عرف بها الفنان صلاح والمتانة والرهافة الى جانب التفجرات والتشظي والفلتان. عاكسة بذلك الغضب الداخلي او المرارة والغصة التي تعتمل في صدره، وهو يرى نفسه يبتعد اكثر فاكثر عن الهدف الذي جاء من اجله الى باريس. فآلاف الصور الشخصية التي رسمها للسواح في ساحة الرسامين، لم تضف له ما كان يصبو له، غير ان تجعله مكتفياً مادياً فقط. هل جاء الى باريس من اجل هذا؟

كانت الساحة هي السجن الذي إرتضاه لنفسه أو أُجْبِرَ عليه لأسباب عائلية ربما! فله زوجة صحتها متوعكة دائماً، وطفلة تحتاج رعاية خاصة وتكاليف مدرسة، وما عليه إلا ان يوفر لهما الحياة النظيفة والكريمة كزوج وأب. وهذا ليس بالأمر الهيّن في مدينة مثل باريس.

تقول الفنانة مليكة حاتم (ام يمامة) عن زوجها الفنان الفذ صلاح جياد المسعودي (أبو يمامة) انه لم يعد يقرأ ولا يرسم منذ اكثر من عشر سنوات إلا نادراً. ترى بماذا كان يفكر هذا الجهبذ وما هي الصور التي تتوارد على مخيلته؟

بعد تيقنه من مرضه الخبيث وخضوعه للعلاج الكيماوي، انقطع عن الرسم في الساحة، وعاد الى تخطيطاته السريعة، بعد ان توقف عن تناول الكحول والتدخين اللذين قد انهكاه وقللا من قوة مناعته وتحمله. وفي واحدة من زياراتي له في مرضه الأخير وجدته يرسم بالحبر رسوماً ساخرة بخطوط سريعة وقوية كعادته، ففرحت بذلك، لكني كنت حزينا في داخلي وأنا أراه يذبل امامي دون ان أستطيع مساعدته بشيء. وفي مهاتفاتي له كنت احثه على الرسم وانتاج اعمال كبيرة. وكان يوافقني على ذلك، لكنه لم يفعل. ليس هذا فقط، بل اخذ يمتنع عن تناول الطعام ولا يحب ان يجبره احد على تناوله، فقد تيقن من عدم خلاصه من دائرة النار، وعليه ان ينهي حياته، ويتخلص من عذابات الآلام التي يسببها له هذا الخبيث.

فجر يوم 16 آذار، وجدته رفيقة دربه الفنانة مليكة حاتم، جالساً على كرسيه وبين يديه كتاب. ولكنه كان قد غادر عالمنا، تاركاً لنا عالمه الذي علينا تفكيك شفراته واسراره وخفاياه. ويا لها من تركةٍ.

لاروش بوزيه – فرنسا 17/ 08/ 2020

صلاح جياد.. حرية الخط وجمالية اللون

منصور البكري/ فنان تشكيلي عراقي مقيم في برلين

حالفني الحظّ في بداية السبعينات لأكون أحد رسامي "مجلتي" و"المزمار" فزاملت أروع شباب من خيرة فناني العراق، وتعلمت منهم الكثير، ومنهم الفنان القدير صلاح جياد، الذي كان ما زال طالبا يدرس الفن في اكاديمية الفنون الجميلة/ بغداد، رغم كونه طالبا كانت قدرته الفنية في مستوى عالٍ جدا، بل كان يفوق أغلب اساتذته في درس التخطيط والألوان. كنا نقف خلفه لنراقب حركة فرشاته خطوة بخطوة، ونتابعها بكل اهتمام، لنكتشف سحر ضربات فرشاته على اللوحة وهو ما اشتهر به بضربات صلاح (تسمية قد شاعت عليه وسط الأجواء التشكيلية العراقية وقتها)، كان ساحراً للّون، وله بصمته الخاصة التي تميزه بجدارة عن كل زملائه من الفنانين العراقيين.

في "مَجلتي" تعرفّت إليه عن قرب أكثر من السابق، وكان دوامنا مسائيّا لان اغلبنا كان طالباً فوجدت في صلاح نعم الأخلاق العالية والثقافة الشاملة. له هدوء مثير للدهشة ويكمن في داخله بركان معرفي يساعده في مخيّلة خصبة، يرسم فيها القصص والسيناريوهات الأكاديمية دون أن يلجأ الى مصادر مصورة او وسائل ايضاح، مبتكراً طرقا جديدة في تكنيك الرسم على الورق الذي بقيَ يلازمه حتى النهاية، وهي طريقة حسر اللون بواسطة ورق ملفوف يضعه على اللّون قبل ان ينشف فيحدث بقعاً جميلة تبين الصخور والتضاريس الطبيعية، كنت أقف خلفه متكئاً على حافة باب مشغلنا، وأتعلم منه هذا التكنيك وغيره، دون أن يشعر، لانه كان منسجماً جداً بالرسم وما زلت أستعمل هذا التكنيك الهائل أحياناً لحد الآن. كان يرسم نصوص القصص والسيناريوهات بطريقة جريئة ومن زوايا صعبة، وكاننا نشاهد فلما سينمائياً وخاصة السيناريوهات المتعلقة بالمعارك الحربية وقصص التاريخ. مرة رسم سيناريو عن محمد علي كلاي، فأدهشني كيف يعرف كل عضلات شخصيات الملاكمة من الخلف. وهذا أكد لي بأن صلاح كان يرسم الموديلات بدقة فائقة، وحكى لي زميلي الفنان فيصل لعيبي والذي كان رفيق دربه، بانهما كانا يحملان دفاتر رسم واقلاما ليرسما كل ما وقع تحت نظرهما مثل الخيول والمارة وجلساء المقاهي، فاتقنا التشريح وقوة الخط.

في منتصف السبعينات كان قد غادر بعض من رفاق دربه الذين زاملوه في

العمل في مجلات "الف باء" و"مجلتي" و"المزمار" الى خارج العراق، وكانت الاحداث لا تسر؛ فسطوة حزب البعث اصبحت لا تطاق، بنظام شمولي قسري، يفرض على المثقّفين العراقيّين والناس جميعا افكاراً قومية عنصرية، فضاقت في قلب صلاح جياد الفنان الملتزم وطنيا بمبادئ اشتراكية كبيرة لا تخضع لقومية واحدة على حساب الآخرين، كذلك توقه لاستنشاق الحرية بمفهومها الصحّيح. كنت أرى حزناً واضحاً على وجهه، واصبح قليل الكلام مع الآخرين، وكنا وقت الظهيرة هو وأنا في الصيف القائظ أثناء الاستراحة، نسير في شوارع الوزيرية التي كانت مليئة بالاشجار والظلال طولاً وعرضاً وهو صامت وحزين جدا، وحينما أسأله عن سبب هذا الصمت والاكتئاب يقول لي انها مصيبة وقعنا فيها مع هذا النظام الفاشي، كان يأتمنني جداً ويبوح لي ما في صدره من ألم، لأنني صديق مقرّب له، ولست بعثياً. وكانت تربطنا علاقة عائلية أيضاً. وفي آخر لقاء تلفزيوني معه في برنامج مقهى الفيحاء قبل سنوات، كان يتحدّث مع السيدة أنعام عبد المجيد مقدمة البرنامج، وعيونه تحت على الأرض، وحينما سألته عن سبب حزنه، قال حتى زوجتي تقول لي متى تخرج من هذه الأزمة. ويضيف انها (التركة)، التي تغلغلت فينا ودخلت اعماقنا. حينما غادر صلاح الى باريس ليدرس الفن هناك في البوزار، أخذ يرسم أعمالا كبيرة على الكانفاس مليئة بالألوان المبهرة وحركة فرشاة مذهلة. كنت أزوره قادما من برلين وكان صلاح كما عرفته في العراق مضيّفاً وحنوناً، ويعرف جيداً معنى الصداقة والإخوّة ورفقة الدرب والمهنة. وبكل تواضع كان يريني لوحاته الزيتية الواحدة تلو الأخرى، ويجلب رسومه المائية وتخطيطاته المذهلة من فوق الرفوف العالية، ويفرشها أمامي ليدهشني بكرمه واحترامه وقدرته الفنية التي فيها بصمته المعروفة، والتي اشتهر بها وميّزته عن كل الفنانين. شيء واحد تمنيته أن يرسمني بورتريه. كنت أحتفظ ببورتريه رسمه لي سريعا اثناء عملنا في "مجلتي" ولكني رحلت عام 1981 الى ايطاليا وثم المانيا، ولم اعد للعراق، الا عام 2007 بعد التغيّير الذي حصل في العراق، لكني بحثت في بيتنا البغدادي فلم اجده. ويبدو عائلتي بعد سفري قد اضاعوا هذا البورتريه، وكذلك لوحة زيتية كبيرة للفنان فيصل لعيبي، كنت اقتنيتها من معرضهم المشترك (نعمان هادي وصلاح جياد وفيصل لعيبي) في متحف الفن الحديث (كولبنكيان) عام 1978، بعدما عادوا من باريس الى بغداد. وكانت هذه آخر زيارة لهم الى بغداد حتى تم تكريم صلاح ونعمان قبل حوالي 3 سنوات في بغداد عن طريق دعوة من وزارة الثقافة العراقية. وبهذه الزيارة عادت القلوب المحبة لصلاح ونعمان من زملائهما، ومن الشباب الذين سمعوا بهم وهذه فرصة كبيرة لملتقى الاجيال، وحينما كنت أزوره في باريس، وفي كل المرات اطلب منه ان يرسمني بورتريه، بل ألحّ مؤكدا ان جزءا كبيرا من سفرتي الى باريس، سببها اقتناء لوحة جميلة من أناملك الذهبية، فيأخذني الى مقهى في ساحة المونومارت لنشرب القهوة قائلا (هسّه خليك من البورتريه ودعني أسمع أخبارك)، ولم أحصل على

هذه الأمنية وضاعت هباءً منثوراً، ولا أعرف لحد الآن ما سبب عدم رسمي، لكني احترمت رغبته. وأملك الآن سيناريو اصليا من رسومه ايام بغداد السبعينية. كنت وجدته مهملا بين النفايات التي أرادوا أن يتلفوها بحجة الأعمال ملك الدولة، وليس ملك الفنان. وهكذا كانت تضيع أعمال الخالدين، مثل صلاح جياد ورفاقه الفنانين، بسبب جهل الدولة والمجتمع بموروث الفن العراقي.

يوم من الأيام، منتصف السبعينات، أخذ الطلبة يتحدثون عن فتاة جميلة جداً قد قبلت في الصف الأول في فرع المسرح، وحينما كنا صلاح وأنا في مقهى أكاديمية الفنون الجميلة نحتسي الشاي، قلت لصلاح (تعرف صلاح أكو طالبة جديدة في قسم المسرح، جميلة شكلها يختلف عن باقي الطالبات هل شاهدتها؟) ابتسم صلاح وأخذ ورقة مني ورسمها بروفيل بقلم الرصاص وقال هل تقصد هذه الفتاة؟ طبعا، اندهشت جدا وقتها لامكانية صلاح على رسم اي شيء يصادفه، وعرفنا لاحقاً بأن هذه الطالبة الجديدة من الناصرية، واسمها سناء عبد الرحمن والتي أصبحت اليوم من خيرة كادر حركة التمثيل العراقية.

في رحيله هذا العام، لم نكن نحن متفاجئين بذلك، لاننا على علم مسبق بمرضه الذي اتعبه كثيراً، وحاولنا مراراً الاتصال الهاتفي معه دون جدوى، لأنه التزم الصمت وكعادته لا يبوح عن آلامه، وكنت دائم الاتصال برفيق دربه فيصل، واتابع أخباره، وآخر اتصال هاتفي بيننا، حدثني فيصل بأنه زار صلاح، والأمور عال، وطمأن جميع زملائه، لكن صلاح غادرنا وفي وقت حرج ايام بداية وباء كورونا، فلم يكن في يوم دفنه غير زوجته وابنته، وعدد قليل من رفاقه، تطبيقا للالتزام بقانون عدم الاختلاط.

فيرحل هذا الفنان ليتخلص من هذا العالم الكئيب المليء بالكراهية والحروب، هو الآن في أمان، ربما يرسم الملائكة والناس الطيّبين في العالم الآخر ... من يدري؟

28 . 8. 2020

صلاح في الساحة.. صلاح في المرسم

زهير الجزائري

أذهب إليه هذه المرة بدلا من أن يأتي إلي، كما في الحلم الذي راودني وأنا أكتب عنه: يدقق في تفاصيل وجهي ثم يمس بالفرشاة نقطة بين حاجبي فاغمض عيني خائفا من الطرف الحاد. أذهب إليه في قلب باريس في (ساحة مونمارتر) وهو جالس في مكانه وسط الدائرة، بين زحمة الرسامين والعابرين، ثابت تحت قبعة سوداء، تخفي الوجه ووراء نظارة سوداء تخفي عيوناً، ترى الوجه الذي لا يرى عينيه وراء النظارة السوداء. هو الثابت وانا المتحرك بين القارات. أعرف اني سألقاه في المكان والهيئة، وأنا أريد أن ارسمه وأترسم اللحظات التي جمعتنا معا فأجدني جالساً على كرسي واطئ إلى جانبه. والساحة مسرح لأحداث كثيرة معروضة للنسيان.. يمر بها السواح دون أن يتركوا أثراً. الثابت الوحيد فيها بالنسبة لي هو صلاح جياد المسعودي صديقي منذ الستينات.

في الستينات، وربما في نصفها الأول تعرفت إلى صلاح جياد. وما زلت اعتقد أن ستينيات الرسامين أهم من ستينيات الكتّاب. لأن وراءهم مؤسسة كبيرة هي معهد الفنون الجميلة، وفيها جيل من الأساتذة الذين عادوا تواً من بلدان الدراسة محملين بالتجارب الطليعية التي شهدتها سنوات ما بعد الحرب الثانية. أسلوبهم في التدريس يعتمد المشاركة بدلاً من المحاضرة. يجلسون جنب طلابهم، بدلاً من أن يقفوا في مواجهتهم ليلقوا المحاضرة. يرسمون معهم وفي كل لوحة لطلابهم لمسة منهم. لذلك أثروا في طلابهم على عكسنا نحن الكتّاب نعتبر أنفسنا بلا آباء. كان (فائق حسن) الوالد الفني للتوأم فيصل وصلاح. كلاهما أخذ من واقعيته الماهرة ثم غادرها.

في فترة الدراسة والغرف الفقيرة تعرفت إلى صلاح في بيت بغدادي قديم في الكسرة، تحول إلى قسم داخلي لطلاب الفنون الجميلة. مكان متعب للحكومة وعمادة الجامعة، لانه تحول إلى وكر للشيوعيين ومسرح للفوضى وغير المألوف، فالطلاب القادمون من المحافظات، وقد تخلصوا من عادات مدنهم وعشائرهم، أميل لصرعات الحداثة في سلوكهم وملابسهم ولوحاتهم.

أتردد على مقهى البلدية فالتقي صلاح جياد ومعه دائما رفيق عمره فيصل لعيبي، وشلة من رسامي الستينات في مقاهي الميدان الفقيرة، يقلدون الانطباعيين الفرنسيين، منكبين على دفاترهم ليرسموا حركة الشارع أمامهم أو جلاس المقهى

حولهم، حيث الكآبة المستتبة والعطالة بلا أمل، وأحيانا يرسمون بعضهم. يرسمون ويطورون تقنياتهم بينما مواضيعهم ساكنة ستنفجر لاحقاً وتتغير معها اتجاهاتهم

بعد عقدين ونصف أذهب إليه في المكان نفسه وفي وسط الساحة. جلست على كرسي واطئ إلى جانبه. خلال فترة مكوثي كان يرسم صبية بوجه طفولي على شيء من البدانة، تعطيها النظارة المبكرة قليلاً من الجد. منذ متى هي جالسة هكذا بصبر؟ ومنذ متى ينتظرها والدها؟ ومتى سيبدأ صلاح؟ الورقة البيضاء خالية. اعتقدت أن نظارتها ستعطيه مدخلًا للشبه، لكن صلاح خالفني فطلب منها أن تنزع النظارة. أرادت أن تضع النظارة في حقيبة الظهر، لكن صلاح قاد يدها لتستقر على قماشة البنطلون الزرقاء. نظرت الصبية الخجولة إلى وجه صلاح كما أمرها بلطف لترى نفسها من خلاله. ينظر صلاح الى وجهها لحظات. يبدو الوجه الجاد قناعا يخفي أكثر مما يكشف. يأخذ من القناع خطوطه العامة. حين يستدير باتجاه اللوحة يتلاشى الوجه ويصبح ذكرى. لم يعد وجهها إنما ما يراه صلاح وما يخفيه خلفه. خطوط صلاح دقيقة وشديدة الاختزال. خط واحد يختصر استدارة الوجه ودقة الذقن. أترك اللوحة وأستدير إلى زحمة العابرين وهم يكسرون الدائرة، يصرفون قليلا من الوقت والنظر للوحات الرسامين في طريقهم الى المقاهي والبارات والمعالم حولها، وإلى المتوقفين وهم يرون ما يفعله الرسامون بصفته جزءا من أحابيل السياحة. أنظر للرسامين وقد تزاحموا حد العراك على مساحة كل منهم، وعلى كسب الزبائن. انظر لصلاح وأساله دون صوت: لمَ بدد كل هذه العقود الثلاثة من عمره وكل قدراته الفنية في رسوم لن تذكر له، ولن يمتلكها، ولن يعرف المالكون صانعها. لن يعرفوا حين يغادرون الساحة إلا ذكرى مرور عابر؟

أعود للصبية وقد ضاق صبرها من الجلوس الطويل ومن زحمة المتفرسين بوجهها واللوحة: هل تشبهها فعلا؟ وما الشبه في النهاية بين وجه من لحم ودم وعصب وآخر من خطوط على ورقٍ؟ حين انتهى صلاح من الوجه، جرّ خطاً واحداً منه الى الكتف فالذراع، وبسرعة المحترف ودقته رسم أصابع اليد اليمنى، وقد أمسكت بالنظارة بلمسة رقيقة.. هذا توقيعه!

ليس هذا الجالس في مركز الساحة على كرسي منخفض وتحت قبعة سوداء هو صلاح الحقيقي. الحقيقي هو صلاح الذي لن نراه إلا في مرسمه. يتنفس بصوت عال، كأنه وهو يرسم يصعد جبلا وتتحرك كل عضلة في وجهه، وهو يستحضر كل آلامه وآلام البلد الذي بقي وفياً له. أحار حين أنظر في لوحات صلاح بين دراما اللون ودراما الخط. أدوخ من ديناميكية هذا الساكن، من تداخل الأشكال والألوان ومن ضياعها وضياع معانيها وهي تهرب مني، حين أريد أن أحتويها بمعنى يحددها.

في النصف الثاني من الثمانينات. كانت الحرب العراقية الإيرانية قد أفلتت من أهدافها السياسية حين عجز الطرفان عن هزيمة بعضهما، فصارت حرب إرادات؛ كل واحد يريد ان ينزل بالثاني اكبر دمار ممكن. وتحولت من الجبهات إلى المدن. في هذه الفترة زرت باريس وذهبت إلى نفس الساحة، درت دورة، ثم دورة ثانية وذهبت

إليه مباشرة، عرفته من قميصه الأسود ونظارته السوداء. ترك المرأة التي تنتظر اكتمال وجهها، ترك أدواته وأخذني في جولة في المدينة التي تهدي لزائرها في كل لفتة، قطعة من الفن تليها قطعة من التاريخ. سيكون دليلي إلى المدينة، لكن الأمر انقلب حين بدأنا جولتنا.. صرت دليله للمدينة البعيدة التي تحترق. بافتراض أني في بيروت، أقرب المدن لبغداد، صار يسألني عن تفاصيل ما يحدث هناك وكيف يعيش الناس تحت سماء من جحيم. لم أر باريس في هذه الجولة، فقد أغلق بوجه صلاح المتوتر كل نوافذ الرؤيا أمامي، وهو يسأل ويصغي ويحول كلماتي إلى خطوط وألوان.

في مطبعة آل العياش طلب مني فجأة أن أقف: أبق هكذا ولا تتحرك! بين النافذة والمكائن أخذ يخطط وجهي وقد رسم الضوء الجانبي ثناياه. كنت اعتقد أن وجهي الطفولي عصيّ على الرسام لأنني بلا ملامح مميزة. لكن صلاح أثبت العكس.. يدقق في تفاصيل وجهي، وربما في الفكرة التي يخفيها هذا الوجه ثم يستدير للورقة. بين الوجه والورقة ينحل اللحم ويتحول إلى خطوط متقاطعة ومتداخلة. لم أعرف في النهاية.. أهذا قلقه أم قلقي أم تداخلهما؟ كنت أفكر وأنا أسير معه: لِمَ لم يحدثني عن نفسه، عن لوحاته وما تغير فيه التواضع حد إنكار النفس؟ حين سألته نحى الموضوع عنه جانباً بحركة اليد. لو تحدث سيخسر لانه لا يجيد الحديث عن نفسه وفنه. سيتبعثر ويبعثر كلماته و يبعثرني معه.

في الليل الباريسي الذي لا يفوّت. تركنا صلاح لأن لوحة تنضج في ذهنه. تخيلته يرى المدينة من فوق، من قمرة الطيار الذي سيقصف.. تذوب السطوح تحته والوجوه تنظر إلى الأعلى وهي هاربة من جلدها وملامحها، تختلط في غيمة من الفزع. لم أعش تلك الحرب، ولم أر الطائرات المغيرة في سمائها. ولم أر لوحة صلاح جياد التي رسمناها بكلماتي وريشته.

قويا كفرشاته .. رحل

الكاتب جبار ياسين

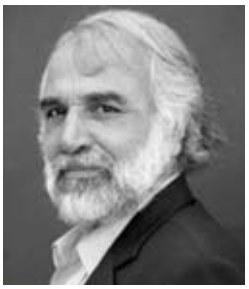

أذكر صلاح جياد يوماً ببغداد في الرصافة منها، في حي "الكرنتينة" تحديداً خلف كسرة النهر. كنّا سويا هناك، ليس بعيدا عن المقبرة الإنكليزية، حيث قبر الجنرال مود يتوسطها. كان الفصل صيف، ربما شهر آب. في مقهى بسيط التقينا: كراس قديم ومنضدتان وبائع الشاي كان صبياً. كان صلاح يرتدي نظارة شمسية غامقة السّواد، بعدها لم أره يومها دونها الا لماماً، إذ رافقته مثل تسريحة شعره وضربات فرشاته وانتمائه الشيوعي، حتى النهاية .

كان ذلك لقاؤنا الأول وكان صلاح خجولاً، وأذكر أيضاً أنّه دفع ثمن "استكان الشاي" مبتسماً. في صوته كانت رخامة جذع نخلة وخلف نظارته حزنٌ قادم من جنوب البلاد. يومها، كانت حرب فيتنام في أوجها. الفيت كونغ انتهوا من هجوم الربيع ذلك العام 1971. في العراق كنا في اوج اميتنا. هوشي مين كان قديس آسيا برمتها. على المتوسط، بين عجلون وبيروت، كنا نحلم بفيتنام جديدة، وصية جيفارا للثائرين "اصنعوا اكثر من فيتنام واحدة". وكنا نغني لثورات ستأتي عاجلا أم آجلا.

ذلك اليوم، طلبت من الرسام رسمة. رسمة واحدة بحبر الصين. بطاقة كي نشارك في جمع ما نستطيع، كي تبنى بهانوي مستشفى للصغار، ضحايا الحرب الأوائل. (قبل سنوات تقدم شاب فيتنامي نحو وزير حرب أمريكا، ماكنمارا. أطلق رصاصتين، لكنه اخطأ المرمى. بعد أيام شُنق. كان اسمه نغوين فان تروي. قبل اعدامه نزع عصابة عينيه وصاح: دعوني أرى وجه بلادي قبل أنْ أموت). كان على صلاح جياد أنْ يرسم صرخته.. مستشفى الصغار ستحمل اسم ذلك الشاب.

"في خدمة الحزب" قال لي صلاح. واتفقنا على موعد قادم، ثم مضى قبل انتصاف الظهيرة. كان رسام أغلفة وموتيفات في مجلة (الف باء) العراقية لسنوات طويلة، وفي مقهى يطلّ على ساحة الرّسامين في مونمارت باريس، ذكرته بذلك اليوم. هز رأسه، قال لي "أذكر ذلك اليوم لكنّي لا أذكر ماذا رسمت".

أذكره في مساءات لا تنتهي. كنا سويا نعمل في "دائرة" واحدة، في صحافة الأطفال، وصرنا نلتقي كل مساء. دارت الأعوام والتقينا في نقطة واحدة. كان شيخ رسامي المجلة "مجلتي"، وكنت وقتذاك أعمل محرّراً في تلك المجلة.

كنّا نشرب الشاي أحياناً، وكان يحبّ أبو عباس، ساقينا. يرسم وأنا اتبع اصابعه وعطر الشاي يجمعنا، وتجمعنا أفكارنا وربما مذاق الجنوب. كنت أرى فرشاته تسعى مثل أفعى تعرف طريقها. لون هنا ولون هناك، وحينا ابتسامة الشركاء في الفكرة. دعابتنا كانت خفية، لكن البعض يعرفها.

كنا مِن بيت مَن لا يملك الا ارثه الفكري. حريتنا كانت خفية، أحيانا تخرج بين الأصابع وأخرى مع الكلمات. وكنا نقيس حروف الكلام. كان صلاح ياتي بسيارته بعد الظهيرة، يدخل المرسم مبتسما كعادته. يحيطه البعض، المحبين طبعاً: بلاسم محمد وعبد الرحيم ياسر وعقيل مفتاح وأديب مكي. كان يرسم وهم ينظرون، وأحيانا يقف ويواصل الرسم وهو يرشفُ شايه ومعلّقاً على هذا وذاك. حديث في الفلسفة، حينا، حينما ينغمر بكتاب فلسفي. حديث عن الرسم، يمر بيكاسو ويمر بانجر وليجييه الشيوعي الفرنسي، ويكتفي صلاح بكلمات قليلة. يغمز حيناً، ففي الركن آذان تتنصّت: شرطة الفن في المرسم، في الزاوية، لا تنجز غير مختصر التنصت.. دائماً في المكان نفسه مثل سلة المهملات.

يوماً، في صباح ربيعي يعرفني على زوجته. كانا حديثي الزواج. مليكة تبتسم، تضحك، دائبة. كنا في بهو أكاديمية الفنون الجميلة. يداها ملطختان بالجبس. خرجت من ورشة النحت دقائق كي ترانا. سنوات بعد ذلك أراها بباريس ـ في مظاهرة ضد حرب العراق. لم تتغير: تبتسم، تضحك، دائبة. يداها تحملان لافتة. تتركني لتهتف ضد الحرب، وكان الغيم في سماء باريس رمادي اللون.

في مساءات كنا نغادر جمعاً، بسيارته الرينو 12. صخب وجدال حتى كرخ بغداد. كأن "جمعية الفنانين" تنتظرنا. هناك صداقات تنتظر تحت أنوار حديقتها الهادئة. نلتقي ونتفرّق بين موائد الأصدقاء. أيام لتشيلي وأخرى لشعراء العراق وأخرى لليال سينمائية. يحيى الشيخ ومكي حسين وفيصل لعيبي يقتسمون مائدة. يمر صلاح، يمكث ساعة ثم يمضي على عجل. أذكر هذا في شتاء بعيد.

يوما التقينا بباريس. وصلتُ قبله باسابيع. التقينا للمرة الاولى في بلاد غريبة وكان الشهر آب. فيصل يمضي لمطار اورلي، لياتي به. يترك غرفته الصغيرة في اعناقنا. ثم يأتي صلاح. لم يتغير منذ اول الشهر حين رأيته في العراق لآخر مرة. لم يكن متعباً وليس عليه غبار السّفر، بل فرح وحزن معاً في مزيج غريب. نأكل رزا ونشرب نبيذا ونحتفي بالمساء، كأن الارض دارت بنا سنينا، قبل أنْ يجمعنا شهر آب.

بعد شهور أراه ملتفعاً بمعطف داكن. كان شتاء باريس ذلك العام قاسيا. يقودني لساحة "التياتر" في مونمارات. أقول له "صرت تعرف باريس افضل منّي"، فيرد بعبارة فرنسية. سنين يفرقنا المكان ويجمعنا، بين حين وحين، تعب العراق. نتحدث في الفن حيناً. أعاتبه على عزلته. أقترح عليه مشاريع، لكنّه يبدو ساهماً. يبتسم ثم يقول "سنرى". التقيه هناك، في مقهاه المفضل، عند الركن في ساحة الرّسامين. نتبادل أخبارنا، نمر على الرسم مرور الكرام. كنت اعرف انه يرسم كل يوم. يده ما تزال بعنفوانها، ريشته القوية الضربات مثل مطرقة. أرى بعض لوحاته في منازل الأصدقاء. يوما يقول لي "للأسف لم أُهديك لوحة حتى اليوم". أقول له: "سأسرقها حينما أنظّم لك معرضاً".

من بعيد أراه ذات مساء ـ كان اليوم 31 آذار ـ شاحبا كان، حزينا. حين نضى نظارته، شيء من غبار اليأس غلّف عينيه. سألته لكنه لم يجب. غادر القاعة لليل. لم أره بعد ذاك المساء. لكن آذار آخر أتى وكنت بباريس. هاتفته. ردت مليكة. سمعته يقول لها "جبار؟". أخذ الهاتف منها. أسعدني بالحديث. أزاح عني شبح موت مؤجل. اتفقنا على موعد قادم.

بعد أُسبوع، نهضت مبكراً، وعلى هاتفي قرأت "توفي فجر اليوم الفنان الكبير صلاح جياد ...".

كانَ اليوم حزيناً رغم شمس النّهار في منتصف ذاك الشّهر "آذار". لم ينتظر نهايته كي أراه كما في كلِّ عام.

من اعمال الفنان الراحل صلاح جياد

من اعمال الفنان الراحل صلاح جياد

من اعمال الفنان الراحل صلاح جياد

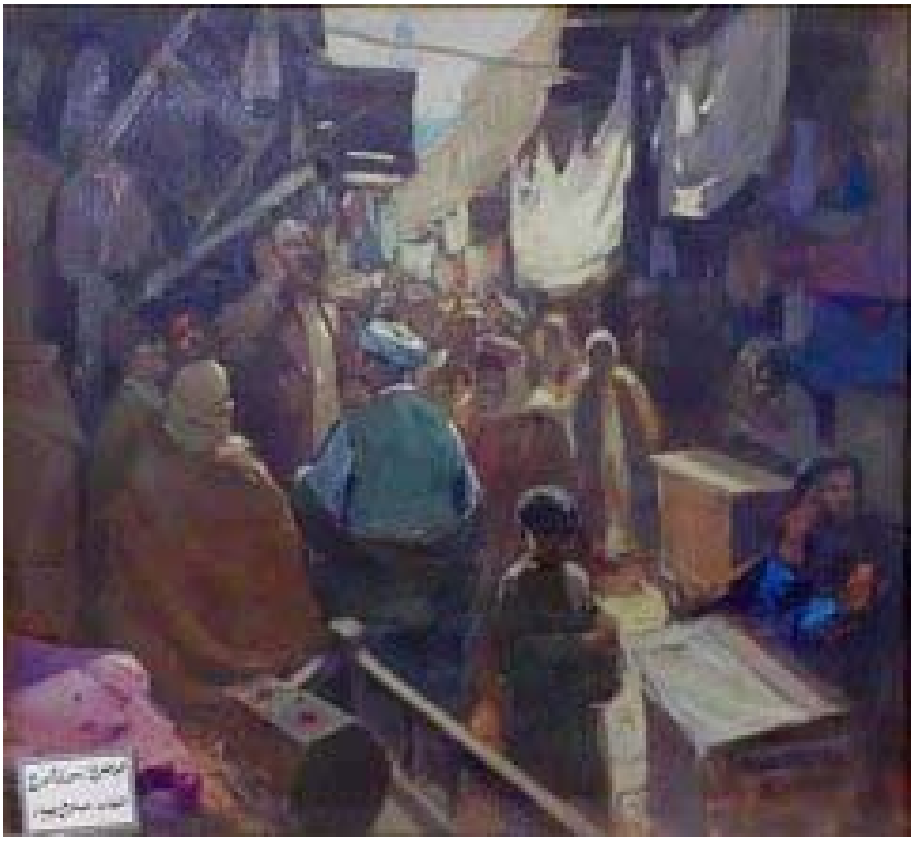

من اعمال الفنان الراحل صلاح جياد

نصوص قديمة

انتفاضة اذار 1991.. هذا النجاح المؤجل*

فالح عبد الجبار

- 1 -

في معاينة الماضي واسترجاعه ثمة خيط رهيف بين الحنين المرَضي، والاستذكار. الاول اقرب الى البكاء على الاطلال، العيش في الماضي لأجل نسيان الحاضر، نوع من الهرب المقلوب. الثاني اقرب الى محاولة الانغماس في الحاضر، بفهم ما جرى، والسعي الى الامساك بالحاضر في تلابيب الماضي.

صحافة المعارضة اختارت موقفا بين، بيّن، ووقفت، إذا حكمنا على سبيل ما نشر خلال شهر اذار 1994، على مبعدة خطوة من البكاء، وخطوة من التفكر. ماذا يصنع المرء في هذه الارض، التي بلا مولى، غير ان يمطر الانتفاضة بسيل من المدائح، ويثقل صدرها بالنياشين، حتى تنوء بأحمال الاطراء.

دعونا نعود الى الماضي من زاوية التفحص، لا التحبب، ولا الإشادة بمناقب.

من سؤات الفكر ثباته، أما ثبات الماضي فواحدة من اجمل حسناته. فبفضل هذا الثبات يمكن لنا فحص مختلف الاجزاء المكونة لظاهرة معينة (مثل الانتفاضة) وإعادة درسها ودرسها، كما لو كنا ندرس ظاهرة مختبرية. المعلوم ان ظاهرات الطبيعة أيسر على الدرس بسبب تكرارها، ولإمكان انتاج بعضها مختبريا، اما الظاهرات الاجتماعية فلا. انها في سيولة دائمة. من هنا ثبات الماضي، تجمّده في الزمن، فهو يعطي فسحة من أجل حركة الفكر.

- 2 -

الفشل، كما يقول جراهام جرين، هو نجاح مؤجل. لعل في هذه القولة اطراء للنفس، أو تسكين التياعات الفشل الذي يلمّ بالذات. لكن فيها أيضا قدر من حقيقة يصح على الانتفاضة بحدود.

ما من ريب في ان ظاهرة مركبة مثل الانتفاضة لا يمكن ان يختزل الى الى عنصر وحيد، رئيسي، مقرر للفشل او النجاح، كأن يكون، مثلا، طبيعة الانتفاضة نفسها، أي عفويتها، تشتتها، او غياب تمركزها ان شئتم، انفصال شقّيها عن بعض (الشمال، الجنوب)، أو جناحيها عن بعض (المدني، العسكري)، أو صمت الحملان في بغداد، أو خطأ الشعارات السياسية الدينية مثلا، أو عوامل اقليمية، عوامل الرفض العربي (رسميا وشعبيا لأول مرة) سيان ان كان محمولاً بدافع الخوف من "عراق ديمقراطي"، أو دفاعا عن البطرياك الكبير، وهو في خريفه، أو عوامل دولية "غير" مؤاتية، "تآمرا" او احجاما عن مدّ يد العون (لماذا يجب أن يمد الآخرون العون؟). بودي ان اخرج عن مألوف ذلك

كله الى حقلين صغيرين، الأول هو طبيعة الدولة العراقية، والثاني هو اشكالات النزعة الوطنية. تنتمي القضية الاولى الى حقل السوسيولوجيا السياسية والتاريخية. وتخص القضية الثانية حقل السوسيولوجيا الفكرية. سنتناول الآن القضية الثانية بإيجاز.

- 3 -

من باب التكرار، القول ان الدولة القومية (او الدولة الامة nation - state) الحديثة هي شكل جديد للتنظيم السياسي – الاجتماعي والاقتصادي، شكل اصبح شاملا في عالم اليوم، والانتماء إليه امر مفرغ منه، مثلما كان الانتماء في الماضي الى مدينة، قبيلة، طائفة، ملّة، هو الشكل السائد في حقبة ما قبل القومي (كلمة "القومي" هنا ترد بالمعنى السوسيولوجي لا الايديولوجي).

الوطنية، بهذا المعنى الموجز، هي الانتماء الى وطن محدد، الى دولة – أمة nation – stateمحددة، ويكتسب الانتماء في الميدان السياسي والاقتصادي والاجتماع معاني متنوعة، من هنا فإن كل جماعة (طبقة، فئة، حزب، فرد) داخل الدولة – الأمة يمكن ان تحمل تصورات وآراء حول معنى هذا الانتماء، وشكله. وبتعبير آخر ان هذا الميدان هو ميدان صراع، حتى حين ترتفع عقيرة البعض بوجود "ثوابت" وطنية أزلية (رأينا كيف ان اصحاب "الثوابت" انقلبوا مرآت عديدة حيال ثوابتهم بالذات!)، ولا شك ان النخب الحاكمة هي الاكثر تمسكا بفكرة وجود ثوابت وطنية عليا.

ويأتي اختبار ذلك في فترات الحروب، ان الحروب (الخارجية طبعا) تشير، في العادة الى استجابة داخلية عفوية او محرضة للتلاحم. سيان ان اضفنا الى هذا التلاحم صفة "الوطني" أو "القومي" أو "الداخلي".

يفترض هذا التلاحم في صورته الرسمية، انشاء ثنوية بالغة البساطة: "هم" (الاجانب، الاغراب ... الخ) و "نحن" (ابناء العراق). الـ "هم" تصبح كتلة لا تمايز فيها، انها العدو، الآخر، الغريم، والـ "نحن" أيضا تتحول (في الدعوات) الى كتلة صوان، لا تمايز فيها ولا اختلاف، انه "الشعب" أو "الأمة" أو "العراق" أو "السيادة".

هذا الالغاء لكل وأي تفارق وافتراق يكاد يكون نزوعا ثابتا في فهم النخب الحاكمة لمعنى "الوطنية" أو "الانتماء للأمة" المعطل والملغى للتصادمات الاجتماعية والسياسية الداخلية. ويصل هذا التصور للوطنية الى حالة من المماهاة بين الوطن والحاكم، وبين الأمة والسلطان، فهما واحد، أو ينبغي ان يظهرا وكأنهما واحد!

ان دراسة المكونات الاجتماعية والسياسية والثقافية - الشعورية للنزوع الوطني تتيح، في أية حالة مدروسة تمييز النزعة القومية الدولتية، أو الحكومية، عن النزعة الوطنية الشعبية.

بمعنى من المعاني يمكن القول ان النزعة القومية الحكومية تتمثل في توجهات وسياسات النُخب الحاكمة، بصرف النظر عما اذا كانت هذه السياسة، في شتى الميادين، نافعة أو ضارة، حسنة أو سيئة.

اما النزعة الوطنية الشعبية، فهي في ابسط صورها، انتماء المرء لوطن، لثقافة، لرقعة محددة، لتاريخ، حب المرء لوطنه، الخ.

اذا قبلنا بهذا التقسيم البسيط، فان حالات

الالتحام الوطني الشامل تعني اندماج هاتين النزعتين معا، أو توافقهما الى حد كبير، توافقا يوجه طاقاتهما نحو الخارج، نحو "العدو"، سواء الوهمي أم الحقيقي، وسواء تحقق الاندماج طوعا أو قسرا او بمزيج الاثنين.

ان القبول بفكرة التوافق أو الاندماج يعني ايضا قبول احتمال حصول تفارق بل مواجهة بين الاثنين، أي ان تجد النزعة الوطنية الشعبية ان المعنى الذي تنسبه النخبة الحاكمة للوطنية مغاير، أو زائف، أو مدمر. ويحصل ان تتحرك النزعة "القومية"، الرسمية، الدولتية، لتشد الاعنّة الى الخارج، طالبة من "الجميع" السير وراءها، فيما تنقلب النزعة "الوطنية" الشعبية الى الداخل، وسرعان ما يقود التفارق الى المجابهة بعد ان تشرع النزعة الوطنية الشعبية حرابها ضد دولتها بالذات.

ان انتفاضة اذار 1991 هي مثال على هذا الانفصال بين النزعتين وتقابلهما في ساحة النقد بالسلاح.

لقد أنمت المعارضة أملا بحصول مثل هذا الانفصال والتفارق خلال سنوات الحرب العراقية – الايرانية. فقام الأمل، في جانبه الماركسي، بأن يحظى الصراع الاجتماعي الداخلي بالأولوية على الصراع "القومي" الخارجي. وحصلت مغالاة في جانبين: امكان ان يحصل الانفصال بين النزعتين بصورة تلقائية، أولا، والتقليل من جبروت الدولة الجديدة بسبب الفهم الناقص لطبيعتها، ثانيا.

لقد هوجمت النزعة القومية للنخبة الحاكمة (التي احتكرت، داخل العراق، حق تفسير معنى الوطنية في الممارسة) من ثلاثة مواقع ضعيفة تماما.

أولا: الموقع الاسلامي الذي يضع الانتماء الديني أو تعبيراته المثالية فوق الهوية الوطنية، في وقت غدت فيه الدولة/ الامة أساس التنظيم السياسي المعاصر، حتى في إيران الاسلامية.

ثانيا: الموقع الكردي، المنطلق من حقوق قومية مميزة تؤكد الثنائية القومية في تضاد مع الواحدية الرسمية.

ثالثا: الموقع الماركسي، المنطلق من ارضية اجتماعية – سياسية (السلام/ الديمقراطية)

هناك تيار رابع يشمل قسما من الماركسيين رأى في الاندماج مع النزعة القومية الرسمية أما وسيلة لاكتساب مشروعية معارضتها لاحقا، أو مجرد واجب "وطني" لأن الوطن يتعرض الى "عدوان".

التياران الاول والثاني توجها الى ميدان السياسة العملية، الى التحالف العملي مع إيران، أي مع أحد طرفي الحرب، فيما رغب الاتجاه الرابع في "التعاون" أو "المصالحة" مع النخبة الحاكمة.

خلاصة ذلك، ان الهجوم على التقارب والاندماج "الوطني"، أو الدمج للنزعتين الوطنية/ الشعبية والقومية/ الحكومية، كان أضعف ما في المعارضة، فهو مشتت على أربع جبهات ايديولوجية، وعلى ثلاث جبهات سياسية (مع ايران أو مع العراق أو ضد الاثنين).

انتهت الحرب ولم يحصل الانفصال لا بقوة الانتماء الديني، أو النزوع الديمقراطي، أو أية قوة دافعة اخرى.

خرجت المعارضة من الحرب العراقية

– الايرانية بخفى حنين. واستقبلت حرب الخليج وهي مثقلة بمخاوف اندماج النزوع الوطني الشعبي بالنزوع القومي الحكومي في "معركة ضد الامبريالية".

حلمت المعارضة بانفكاك الاثنين في الحرب العراقية – الايرانية فحصل تقارب. وخشيت من التحام الاثنين في حرب الخليج، فحصل الانفصال بينهما والتصادم. وفي الحالتين وجدت المعارضة نفسها في الموقع الخطأ. وكانت مباغتة الانتفاضة من دلائل ذلك.

لم تقدر المعارضة ان النزعة الوطنية الشعبية التي اندمجت (بالمعنى التلقائي) ودُمجت (بالمعنى القسري) بالنزعة القومية الرسمية خلال الحرب العراقية – الايرانية، أخذت أواصرها تتفتت وتتآكل بفعل عوامل داخلية وخارجية شتى. مع ذلك ارتعبت المعارضة من فكرة "تجدد" التجربة. والواقع ان السلوك الآيديولوجي للنظام قدّم الى المعارضة لمحات من خوفه، هو من قدرته على ادامة زخم الاندماج المذكور، أو خشيته من انقطاع الأواصر التي أحكم ربطها. وقد ركز الرئيس العراقي خلال تلك الفترة، من بين أمور عديدة، على صياغة دعواته الآيديولوجية بالاعتماد على الرموز الدينية (وضع شعار "الله أكبر" على العلم العراقي مثلا) مستمدا الكثير من ترسانة تحالفاته مع الحركات الاصولية في العالم العربي. لقد تحولت "الوطنية" العراقية، الى مزيج من الرموز الاسلامية (العربية والكردية – صلاح الدين)، والرموز العراقية ما قبل الاسلامية (نبوخذ نصر)، والرموز العروبية. وكان المطلوب من الخليط الميثولوجي ان يشد، في الفكر الاجزاء العراقية المتنوعة في مماهاة قسرية مع النظام.

ولا مغالاة في القول ان المعارضة، أو أي مراقب لم يكن في وضع يتيح الحكم بدقة على مجرى التيارات الظاهرة او الخفية في المجتمع العراقي، فالكل، عموما، كان مقطوعا عن نبض الحياة اليومية في المجتمع العراقي، والكل كان غارقا في رؤية قوام الدولة والمجتمع بمفاهيم وأقانيم ميثولوجية، أو قديمة، لم تعد قائمة.

- 4 -

عند هذا الحد أود تناول طبيعة الدولة state في العراق.

توصف هذه الدولة في عدد من الأدبيات السياسية والاكاديمية بنعوت شتى: دولة دكتاتورية، فاشية، دولة تسلطية، دولة الراسمالية البيروقراطية والطفيلية، الخ.

ان هذه وغيرها من المفاهيم تُستخدم بالارتكاز إما الى نظرة تاريخية – مقارنة (مقارنة الدولة العراقية بالنازية الالمانية أو الفاشية الايطالية – مع وجود عناصر حقيقية للمقارنة) أو بالاستناد الى نمذجة سوسيولوجية (فكرة الدولة التسلطية كما عند الباحث خلدون النقيب) أو الطابع الاجتماعي – الطبقي للنخبة الحاكمة وسياساتها الاقتصادية الاساسية (رأسمالية – بيروقراطية- رأس مال طفيلي).

إن هذه المفاهيم والمقارنات تخدم في إنارة جوانب وخصائص معينة في طابع الدولة الحالية، وفي سياساتها.

وبودي الانطلاق من نقاط مغايرة.

أولا: ان الدولة كيان قائم ذاته، مستقل الى حد كبير عن المجتمع الذي تنبثق منه.

وثانيا: ان الدولة في حركة ارتقاء تاريخية صاحبت وما تزال الانتقال التاريخي من المجتمع الزراعي، ما قبل الحديث، الى مرسمل، حديث، صناعي. وان هذه النقلة تسير في ثلاثة اتجاهات متوازية.

أولها: تحول في بنية المجتمع، وبالذات ضمور وتفكك وتحول الفئات والطبقات ما قبل الحديثة، ونشوء طبقات وفئات وجماعات جديدة.

الثاني: تحول في بنية الدولة ومؤسساتها، وعوامل التحامها تحول في وظائف الدولة.

الثالث: تغاير في العلاقة بين المجتمع والدولة.

دعونا نوضح ذلك بأمثلة وجيزة:

لقد نشأت الدولة العراقية (1920)، من مركّب ثنائي حديث – تقليدي، وكانت الثنائية في الوقت ذاته خارجية – خارجية، اعني جهاز الادارة والقمع البريطاني، من جانب، ونُخب الجماعات المحلية التقليدية (نقباء، اشراف، ملاكون، تجار، رؤساء قبائل، وممثلو طوائف). ينضاف الى ذلك بالطبع عنصر ثالث هو ما اسماه حنا بطاطو بالضباط الشريفيين أي نبتات اصحاب المهن الحديثة (الضباط النظاميون) المنحدرون من فئات متعددة (عليا، وسطى، ودنيا).

وكانت هذه العناصر مجتمعة تواجه مجتمعا زراعيا، شديد الانقسام والانغلاق، ما تزال عوامل الالتحام الصغيرة، (للطائفة، الملّة، القبيلة، المحلّة - داخل المدينة- أو للمدينة) أقوى من عوامل الالتحام الكبرى (الأمة). وان تفكك الكيانات الصغيرة كتنظيمات اجتماعية – اقتصادية وثقافية culture، كان نتاج بناء الدولة الحديثة المركزية: جيش دائم (نظام سيطرة) جهاز اداري دائم، نظام تعليم مركزي، الخ.

لست بصدد استعراض هذا التطور بل الاشارة بلغة البرقيات الى ما أظن انه الملمح الجوهري فيه.

ولنلاحظ ايضا ان الدولة الاولى (الحكم الاهلي) حلّت مشكلة تشظّي المجتمع الزراعي باستيراد ملك من عائلة اشراف، وارتكزت ليس على فكرة التمثيل الحديث (الانتخابات) حصرا بل ايضا وأساسا على مفهوم ديني قديم: الخلافة في قريش. ومعلوم ان فكرة ارجاع الخلافة للعرب دارت في المناخ الفكري للمنطقة منذ القرن الـ 19 (الكواكبي مثلا). إذن تعمدت الشرعية بصورة مزدوجة هي الأخرى: الشرعية الدينية للحاكم، والشرعية السياسية (الانتخابات).

لقد بقيت الدولة في يد مجموعة صغيرة من طبقة الكبار، دون ان تتكيف مع واقع ان تحديث الدولة، والمجتمع، قد خلق طبقة عاملة كبيرة نسبيا، وطبقة وسطى ضخمة جدا. وكانت هذه الاخيرة عماد الدولة الحديثة، إلا انها دخلتها من أسفل وبقيت مُستبعدة من أعلى.

وأريد المجازفة بطرح فرضية مغايرة نوعا ما لبعض المألوف.

إن الدولة المعاصرة في العراق تعيد انتاج ثنائية التحديث – التقليدي، لكن بصورة مختلفة بعض الشيء.

ان الدولة الجديدة مركّب من عنصرين: تقليدي وحديث، الأول جماعة قرابية ترتبط بأواصر الدم والقربى. والثاني جهاز بيروقراطي وعسكري يقوم على عوامل ضبط والتحام مستمدة من التراتب الهرمي للاجهزة، وخضوع المراتب، ومن علاقات

التضامن العضوي الحديث، الى العلاقات السلعية – النقدية (خدمة – اجور).

ان الدولة العراقية هي مزيج جماعة قرابية ومنظومة بيروقراطية/عسكرية، مما يكسبها تلاحما فريدا، أو في الأقل، أقوى من المعتاد. وهذا يقف في تضاد مع الطابع الاجتماعي للنخب الحاكمة في بلدان اخرى: حكم الاسر التقليدية، أو حكم النخب البيروقراطية أو العسكرية (حزب واحد، نظام عسكري) المنحدرة عموما من الفئات الوسطى.

الدولة في العراق تقوم على مزيج من حكم الاسرة وحكم الحزب الواحد.

غير ان ثنائية التقليدي – الحديث مولّدة داخليا، ولا تعكس تضادا خارجيا – داخليا كما هو الحال في العقود الاولى لنشأة الدولة في العراق.

اذا كان هذا هو تركيب الدولة من الوجهة السوسيولوجية، فينبغي الآن الالتفات الى قضايا اخرى:

ان الدولة في العراق تُعيل نفسها كما ترشو قسما كبيرا من شتى الفئات الاجتماعية بالاعتماد على الريوع النفطية.

ينضاف الى ذلك، ان الدولة في العراق تتميز، خلافا للدول الريعية، بأنها أكبر مالك/ منتج. ان هذا الدور، يختلف عن دور الدولة كرب عمل. فكل الدول في العالم هي أكبر رب عمل في مجتمعها. ان عدد العاملين لدى الحكومة البريطانية مثلا يصل الى ثلاثة ارباع المليون، حسب مذكرات ثاتشر. وإن ميزانية "القيادة المركزية" (سنتكوم) الامريكية توازي ميزانية بلدان الخليج النفطية مجتمعة، حسب قول الجنرال شوارزكوف.

بيد ان الدولة هناك تعيل هذا الجيش الضخم من الموظفين عن طريق تحصيل الضرائب. بتعبير آخر ان الثروة التي تقيم أود الدولة انما ينتجها المجتمع المدني.

في العراق، الحال مغاير. ان الدولة العراقية تنتج الثروة التي تعتاش عليها كدولة (اضافة لما تقدم لفئات واسعة كرشوة) بصورة مستقلة عن الثروة التي ينتجها المجتمع بطبقاته وفئاته، وان تضاؤل عنصر الضرائب في المداخيل الحكومية ينطق لوحده بما يكفي.

ان الدولة العراقية تتجاوز حدود الفعالية المتعارف عليها: احتكار وسائل العنف المشروع، حماية الاقتصاد الوطني، والثقافة الوطنية، الخ. انها تتجاوز هذه الادوار التي تقوم بها الدول عادة لتحتل الشطر المؤثر، والاعظم من الانتاج الثقافي، وانتاج وتوزيع الثروة المادية، وميدان المؤسسات والتنظيمات الاجتماعية.

انها دولة الاحتكار الشامل، مثلما هي كيان الجماعة القرابية المنظمة في الدولة.

لقد تحدّت الانتفاضة ثلاثة من الاقانيم المقدسة في عالمنا العربي: أولا تحدت فكرة الاجماع القومي مع سلطتها وخلقت تعبيرها الخاص عن الوطنية، الوطنية المنفصلة عن مصالح النخبة الحاكمة. وثانيا انها تحدّت النخبة الحاكمة في قلب معركة خارجية. وثالثا انها واجهت اعتى نموذج من الدولة الجديدة، دولة الاحتكار الشامل في العالم الثالث.

*** (الثقافة الجديدة)، العدد 258/ت 2 1993 – اذار 1994، ص 60 – 67.**

الانتفاضة الكبرى في السليمانية*

علي ميرخاص

عصر يوم الأربعاء (6-3-1991)

انحدرت الشمس ببطئها المعهود نحو المغيب، ورمت عباءتها الرمادية فوق جراح السليمانية، تاركة جدائلها الذهبية فوق الجيد العاري لـ (سه وكلّه زه رده)[1]، وظلت المدينة كما هي، تسهر على جرحها الغائر أربعا وعشرين سنة بأيامها ولياليها وساعاتها العجاف. مع كونها من المدن الصعبة، لكنها مدينة العري والعفة المهدورة، مدينة التجويع والتعذيب. مدينة ترك الغرباء في صدرها الحاني نصل موت بطيء مرير.

هذه الليلة يطبق ظلام مرعب على كل القلوب الواجفة للعملاء والمخربين ومصاصي دم فقراء الكرد ومناضليه، (اذاعة صوت شعب كردستان)[2] تعلن بين حين وآخر نداءاتها ورموزها الى الانصار والمسلحين الثوريين، أمّا مواعيدها الغامضة فتفجر في قلوب العملاء وسماسرتهم بركانا من الخوف على مصيرهم المجهول. هواجس قلق مجهول دفعت بمسؤولي النظام ومن اقتات على موائدهم، نحو قلعة (مديرية أمن المحافظة)[3] الحصينة ذات الطوابق الثلاثة، والمشيّدة أساسا لا للبطش والإعدام والتنكيل بحق المناضلين فقط، بل وللدفع إزاء كل المخاطر المحدقة بالنظام.

اطبقت المدينة اجفانها التعبى، كل القلوب تنبض بانتظامها المعهود، سوى قلبين متباعدين في كل الحيثيات، قلب يسري في عروقه وأوصاله نسغ الثورة التي تحرق في غدها القادم كل مَن صبغوا شوارع المدينة وأزقتها وساحاتها بالدماء والدموع، وقلب الخونة مصاصي دماء الابرياء، الذي لا يخفق لحظة إلا للمذابح والقتل والفجيعة.

الضياء الاول ليوم الانتفاضة الخميس (7-3-1991)

عادت الشمس مرّة اخرى من رحلتها الابدية وكأنها تبرعم فجأة وسط جليد الانتظار، حاملة في زوادتها بشائر يوم يدخل باحة تاريخ شعبنا الكردي المعاصر من أوسع أبوابه، يوم يترك بصماته على منغصات كل الذين دونوا ايقاع حياتنا لا بسيوفهم الصدئة فقط، بل وبفوهات المسدسات والسايونيد وموارد البترول. اليوم تصحو السليمانية كمارد جريح من مدفن التأريخ، وينهض الاشبال اليتامى تحت حوافر الظلم المغرورة.

السابعة صباحا الخميس (3-7-1991)

عامل متقاعد في العقد السادس من العمر (ع.ع.م) مع خمسة من الفتيان وعلى مشارف (سرجنار)[4] يشعلون النار في جدارية الدكتاتور، مرتلين نشيد (ئازادي

خواين كوردين ايّمة)، يتجمع الناس حول الجدارية المتفحمة، الهتافات تعلو من هنا وهناك، عجوز تترقرق الدموع في قاع عينيها الحزينتين وتهتف بملء شدقيها: هلّموا ايها الشباب، اليوم نثأر لابني الشهيد (سامان). فتاة بيديها العاريتين تلوح للجموع الثائرة وتتقدمها صوب فندق (ابو سناء)[5] المخصص لمسؤولي النظام ليحتسوا نبيذ الدم واللهو البريء! لم ألمح مع المقتحمين الا بندقيتين ومسدسا وقنبلة يدوية. أما البقية فمدججون بسلاح سحري عجيب، اسمه الثأر المقدس، والفهم العميق لحركة التاريخ والحياة. شرع تبادل اطلاق النار يزداد كثافة بين الجموع الثائرة وبين الرتل المدافع عن الفندق. الجمهور يقتحم الفندق عنوة، يتمازج خلالها الدخان والصياح والجلبة ودوي الطلقات ونشيد (ئه ي ره قيب)[6]، طوابق الفندق تستسلم واحدا اثر آخر. احد الضباط المستميتين للدفاع عن الفاشية يتساقط أسيرا بين يدي العجوز، بعد ان نفذ ما في جعبته من ذخائر. أما الجنود فبعد ان استسلموا وألقوا اسلحتهم، عانقهم الجمهور وتبادلوا القبلات، وعلت هتافات الجنود بسقوط الدكتاتور، حيث استضيفوا في البيوت وكأنهم ابناء عائدون من المنفى.

شرقي المدينة

(7-3-1991، السابعة صباحا)

تجمع الناس شيئا فشيئا في أزقة وشوارع محلة (خه بات)[7]، حاجز الخوف الذي بناه النظام وسيّجه بعملائه ومخبريه وجلاديه زهاء اربع وعشرين سنة تداعى مع أول هتاف بالسقوط للدكتاتور، نشيد (ئه ي شه هيدان)[8] شق اعنان السماء، مرددا صداه على مسمع الكون اللانهائي. تقدمت الجموع صوب قلب المدينة، وكأن كل المتاريس والقلاع الحصينة للنظام قد اضحت طريقا مفروشا بالورد والياسمين أمام تلك الاقدام الراسخة. يلتحق رتل من البيشمه ركَه بالجمهور الزاحف. ارتدت النسوة، امهات واخوات وزوجات الشهداء والسجناء والمفقودين (السروال الرجالي) استعدادا للكر والفر. يتساقط مخفر (سرشقام) امام هدير الجماهير في دقائق، وكأن الشهداء خرجوا من أضرحتهم في مقبرة (سيوان) [9] القريبة من المخفر، وعادوا للمشاركة في الانتفاضة، يرتلون للجموع الثائرة سورة الثأر المقدس، لضحايا الانفال وحلبجة والمظلومين. الاسلحة وُزِّعت على الجمهور. تتقدم الجموع صوب قلب المدينة باحثة عن رموز النظام القابعة في مقرات الانفال – حطين – السراي - مديرية الامن.

مقر الانفال [10]

فتيان محلة (بختياري) تجمعوا في المعهد الفني القريب من (مقر الانفال)، خطب فيهم شاب ملتح، تعالت الهتافات بالموت والسقوط للدكتاتور من كل صوب. الاشبال الثائرون كخلايا النحل يبحثون عن شهد الثورة والخلود، الجماهير تنشد (ئه ي ره قيب). يلتحق بالجموع الثائرة عدد من البيشمه ركَه، تقدّم الكل صوب (قلعة مقر الانفال) السيئّة الصيت، حيث يقبع اعضاء ومسؤولو الفرقة. تبادل اطلاق النار يزداد ضراوة. مسؤولو الفرقة وزبانية جحيم التعذيب والموت المجاني يصوّبون،

كعهدهم، اسلحتهم نحو الجمهور المتحدي. يتساقط اول مقتحم شهيدا يتضرج بدمه وهو (عثمان ملا صالح) أحد كادحي شعبنا. ينشغل البعض من الجموع باخلائه، لكن شقيقه الاصغر (صدّيق) يصرخ في الجمهور، هيا نحو القلعة، انه هو الشهيد وكفى، فاتركوه. وفي منتصف الطريق هوى الشقيق الآخر، تخترقه رصاصة، فيخر مهيض الجناحين كنسر جريح. حوصر المبنى الكبير من قبل الجمهور. دوي الانفجارات بأنواعها يتمازج مع الاناشيد والصياح والهتافات. عدد الشهداء والجرحى يزداد لحظة اثر اخرى. يسقط الفنان الثائر (ئه ريوان عمر ده وله ن) شهيدا. الخناق يضيق على شذاذ الآفاق القادمين من جحور العار والرذيلة، لا لشيء إلا للمغانم وتكديس الثروات والابادة البطيئة المريرة لشعبنا الكردي. وفي أقل من ثلاث ساعات تتهاوى هذه القلعة الاجرامية تحت الاقدام الراسخة لثوار محلة (به ختياري).

مديرية أمن المحافظة

(7-3-1991 الساعة الثانية عشر ظهرا)

يقترب عقربا الساعة من محطات العناق، وشمس فتيان السليمانية تنتعل ظل كل المقرات الحزبية المسكونة بأضابير الموت والعار والرذيلة، حانت الآن لحظة قطاف تلك الرؤوس التي تعشعش فيها غربان العنصرية والفاشية. فحتى هذه اللحظات الحاسمة من التاريخ، تؤكد الادمغة التنظيرية لهؤلاء المغفلين المعتوهين ان طريق القدس يبدأ من السليمانية، وطريق الاسكندرونة يبدأ من (قنديل)[11] و(دهوك) و(سه ركه لو)[12]، وازالة المستوطنات التي اقيمت في الجولان وغزة والخليل وطبريا ينبغي ان تتزامن مع اقتلاع مخيمات مُهجّري الكرد المظلومين في (زه راين) و(به حره كه) و(صمود) و(قوشته به)[13]. مئات الفتيان المسلحين بعمر الورود يقصدون قلب المدينة، حيث سجون دائرة الامن ومديريتها، بطوابقه الثلاثة ودهاليزها وخفاياها وازلامها المحترفين لحصد الارواح وهدر الكرامة واستباحة كل المحرمات. تزداد المقاومة المستميتة من هذه القلاع الحصينة. محترفو القتل والإعدام الجماعي يتحصنون وراء اكوام من اكياس الرمل، لحصد كل من يقترب من تخوم قلاعه. حتى جسد وقلب كل منهم محشو برمال القسوة والكراهية، لكل خير وحق وجمال.

ويسألونك عن يوم الخميس وما يوم الخميس؟! انه يوم الرعب والمتفجرات، يوم الارواح الغاضبة الجريحة التي اضحت صرخاتها مكتوبة بلغة الحديد والنار على وجه السماء. ما أعظم هذه العاصفة في تاريخ الشرق!

لمحت الشهداء يعودون من (سيوان) ويهمسون في آذان الاطفال والنساء والشيوخ اقاصيص (حلبجة) و(الانفال)[14] والبارزانيين[15] الموؤودين.

لمحت شهداء بلا رؤوس يركضون في أزقة السليمانية الحزينة، بحثا عن رؤوسهم التي قُطعت في المحاكم الصورية بأبي غريب و"الهيئة" وطوبزآوا ومنافي السماوة ونقرة السلمان.

لمحت الانامل المقطعة تبحث بين الجموع مرفوعة بالاتهام نحو جلاديها.

لمحت الرؤوس التي تبحث عن ألسنتها التي انتُزعت لأنها تنطق بالحق.

لمحت رؤوس شهداء تبحث عن عيونها المفقوءة، لأنها تطالع لأوجه كردستان حزينة فقط، بل وصفحة الحياة كما هي دون تشويه!

لعلعة الرصاص ودوي المتفجرات بأنواعها تصمُّ آذان السماء. حوصرت كل الابنية المتبقية. عواصف من الطلقات والهاونات والدوشكات تتوجه صوب المعتدين. شاهدتُ فتاة خلف أحد الجدران وفي يديها قنبلة يدوية تخاطب المحاصرين ملء فمها: استسلموا... نقسم لكم بأرواح الشهداء وبحلبجة الجريحة: ألا يمسكم مكروه، اطلقوا سراح سجنائنا اتركوا مدينتنا ايها الغرباء، لا نريد منكم إلا الملفات والوثائق. وما هي إلا دقائق حتى فجرت طلقة قناص حاقدة تلك القنبلة التي تبرعمت في كف تلك الثائرة، فأضحت أشلاء ممزقة. ارتفع نداء آخر: لا نمسكم بسوء، استسلموا... كفاكم قتلا بشعبنا. بعد دقائق ردّوا عليه: ألقوا بأحد السجناء من الطابق الثالث بعد أن مزقوه بحراب بنادقهم. لم أر في المواجهة سوى مئات النوافذ المشقوقة في الابنية الشاهقة لمديرية الأمن. انهم يوجهون فوهات بنادقهم وهاوناتهم ورشاشاتهم صوب البيوت الامنة والشوارع والازقة دون رحمة. تمكنت الجموع المقتحمة من السيطرة على السجن الرئيسي لدائرة الامن، وأطلق الشعب بمرسوم الدم سراح كل السجناء والمعذبين والمنتظرين حتفهم على ايدي الجلادين. جاءت طائرتان مروحيتان من طراز (كوبرا) لنجدة المحاصرين، وما ان وصلتا الى مشارف السليمانية حتى وُجّهت اليهما فوهة عشرات مدافع الدوشكا فوليتا هاربتين. أحسَّ المجرمون انهم بمنأى عن النجاة فركعوا صاغرين، وتهاوت هذه القلعة الأخيرة للظالمين تحت أقدام الجموع الثائرة.

مرة اخرى عانقت شمس الاصيل جبال ملكه زه رده، واقفة بقلب خاشع فوق جبل (سكرمة) لتحني هامتها اجلالا لهذه المدينة التي لم يرحمها الحكام الجائرون منذ مئتي عام، لأنها لم تغفُ على الضيم لحظة، ولم تغفر لجلاديها قيد شعرة.

لقد قرأت (جون ريد) وهو يؤرخ لـ "عشرة ايام هزت العالم"، حيث تساقطت صروح القيصر، وشاهدت سجن (الباستيل) يسقط تحت اقدام ثوار فرنسا، وبكيت ملء العيون حينما دخل ثوار فيت كونغ سايغون[16] الممتلئة فجيعة وحزنا. واشهد اليوم صرح ظلم يبلغ اسباب السماء قهرا وفظاعة ووحشية، لكنه لا ينهار في عشرة ايام كقيصر، ولا خلال ايام كالباستيل، ولا كسايغون في سنوات، بل خلال اثنتي عشرة ساعة فقط، وكأنها تكثيف قياسي غريب لظلم أمده اربع وعشرون ساعة.

منفذو السيناريو والاخراج والمونتاج والاكسسوار لهذه الساعات الاثنتي عشرة الملحمية، هم ابناء هذه المدينة التي سيظل وجهها بادي العز والجلال والإكرام.

ملاحظة: عدد شهداء المدينة (60). عدد القتلى من ازلام الدكتاتورية (487).

*** (الثقافة الجديدة)، العدد243، آذار 1992، ص 130 – 135.**

الهوامش

1- جبلان شامخان يقعان غربي السليمانية.
2- اذاعة محلية يديرها حزب (الاتحاد الوطني الكردستاني).
3- اربعة ابنية كل منها مكون من ثلاثة طوابق. فيها سراديب عميقة، وغرف التعذيب والاعدام واماكن خاصة للاعتداء على الشرف، ومحطة وقود السيارات وافراد للخبازة وورشة السيارات وكل المستلزمات الاخرى، ويحرسها اكثر من (300) من قوات الامن الخاصة. انها اقوى القلاع المحصنة في مدجينة السليمانية.
4- احدى المحلات السكنية تقع على مشارف السليمانية وفيها مصايف.
5- فندق ضخم مكوّن من اربعة طوابق يقع في بداية سرجنار.
6- نشيد ثوري يُردّد في المناسبات الوطنية والقومية.
7- احدى المحلات التي تسكنها الطبقات الفقيرة والتي تقع شرقي السليمانية.
8- نشيد قومي يمجّد شهداء القضية الكردية.
9- تل كبير شرقي السليمانية، تقع فيه مقبرة واسعة، تضم آلاف الشهداء، وكذلك الشعراء وعظماء الكرد، حيث تغطيها مئات من اشجار الارجوان الجميلة التي تحمل في فصل الربيع ازهارا حمراء يشبهها الشعراء بدم الشهداء.
10- احد المقرات الكبيرة لأعضاء حزب صدام وهو (مقر الفرقة الحزبية).
11- جبل شامخ تلتقي فيه حدود سوريا- تركيا – العراق – ايران. فيه مقرات المعارضة العراقية والايرانية انه شديد الوعورة، عميق الوديان فوق قممه الشماء تلوح ثلوج دائمة.
12- قرية كردية تقع ضمن محافظة السليمانية، مشهورة بفواكهها، وبالأخص العنب قصفها حزب البعث الحاكم
13- بالأسلحة الكيماوية وأباد معظم سكانها.
مجمعات سكنية اجبارية بناها حزب البعث للقرويين المهجرين عنوة، حيث انها تفتقر الى ابسط متطلبات الحياة، وبين حين وآخر وتحت شتى الحجج تجبرهم الحكومة على الاسكان في مناطق جنوب العراق ضمن حملات التعريب الاجمالية.
14- عمليات اجرامية ألقت الدولة فيها القبض على مئتي ألف كردي (200,000) قروي اطفالا ونساء ورجالا وقتلتهم في المناطق الصحراوية بصورة جماعية.
15- افراد لإحدى القبائل الثورية الكردية التي قادت النضال القومي المسلح اكثر من نصف قرن، بقيادة مصطفى البارزاني. القى الحزب الحاكم القبض على (8000) رجل وشاب وقتلهم دون رحمة.
16- اشارة الى الحرب الفيتنامية التي انتصر فيها جيش هوشي منه الثوري.

حـــــــــــوارات

في الذكرى الأولى لانتفاضة تشرين المجيدة..

(الثقافة الجديدة) تحاور الرفيق رائد فهمي (ابو رواء)، سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي

الثقافة الجديدة: منذ انطلاقها في شباط 2011، امتازت الحركة الاحتجاجية في العراق، بتنوع اشكالها، وتباين سعتها ومضامينها الاجتماعية. ومع انطلاق النسخة الاحدث والأضخم من هذا الحراك الاحتجاجي في تشرين الاول 2019، اطلق الحزب الشيوعي العراقي في إعلامه، وفي كل أدبياته عليها تسمية "انتفاضة تشرين".

ومع اطلالة الذكرى الاولى من عمر هذا الحدث، الذي يكاد يكون واحدا من أبرز اللحظات التاريخية في تاريخ العراق المعاصر، مثله مثل ثورة العشرين، ووثبة كانون، وثورة 14 تموز، تكاد تغيب وتنسى أو هي في طور التلاشي كل المسميات والنعوت الاخرى التي اطلقت على أحداث تشرين الاول 2019 وما تلاها.

- السؤال هنا: هل كلمة "انتفاضة" التي اطلقها الحزب على احداث ووقائع تشرين 2019 هي مجرد تسمية اصطلاحية سياسية ودعائية، تتناسب مع حجم ووقع الظاهرة، ام ان الانتفاضة هنا هي مفهوم تحليلي ذو اصالة نظرية، مكّن - وسيمكّن- الحزب

من قراءة وتحليل هذه الظاهرة، بأبعادها ومستوياتها المختلفة، وبالتالي فهم كنهها وإمكانياتها ومآلاتها؟

(ابو رواء)- يدور جدل في أوساط القوى والحركات السياسية، الشيوعية واليسارية والتقدمية بالدرجة الرئيسية، وكذلك بين الباحثين والأكاديميين المختصين بالعلوم السياسية والاجتماع والتاريخ بشأن توصيف الحركات المجتمعية التي تهبُ في مواجهة الأنظمة الحاكمة رافعة إمّا، مطالب فئوية أو قطاعية تخص شرائح اجتماعية معينة من المجتمع، أي يطغى عليها الطابع المطلبي المحدود من دون أهداف ومطالبات تتعلق بإصلاح النظام السياسي أو تغييره، أو أن تكون أكثر جذرية، ذات أهداف وشعارات ترفض الظلم والاستبداد والاستغلال والفقر وتطالب بالتحرر والحرية والعدالة الاجتماعية وتحقيق إصلاحات عميقة في النظام السياسي أو بتغييره. فالمنظرون والباحثون والسياسيون لم يتوصلوا إلى تعريفات وتوصيفات متفق عليها تحدد بوضوح الخطوط الفاصلة بين اشكال الحراك الشعبي المختلفة كالهبّة الشعبية والحراك الاجتماعي والتمرد والعصيان والانتفاضة، وبينها وبين الثورة. ويدور جدل مماثل أكثر اتساعا وعمقا وامتدادا في الزمن حول مفهوم الثورة. ولستُ بصدد الخوض في هذا الجدل الفكري والسياسي المتجدد، ارتباطا بالأحداث والتطورات التي يشهدها العالم، وظهور حركات جماهيرية ذات خصائص اجتماعية وصيغ تنظيمية وأساليب عمل متميزة عن تلك المعروفة تاريخيا. وتشمل مطالب ومجالات جديدة تصنف ذات طبيعة اجتماعية - ثقافية، كقضايا البيئة والمساواة الجندرية ومكافحة العنصرية وغيرها. وقد نشرت دراسات عديدة حول هذا الموضوع، منها بحث معمق للرفيق الدكتور صالح ياسر، تناول بالعرض والتحليل مفاهيم الثورة والانتفاضة ارتباطا بدراسته للانتفاضات العربية.

الحاجة الملحة لضبط وتدقيق المفاهيم والمصطلحات

فما يهمنا بشكل أساسي عند التأكيد على ضبط وتدقيق المفاهيم والمصطلحات واستخدامها في الخطاب السياسي، هو التمكن من تحديد أسباب وجذور الحراك الاجتماعي الذي نحن بصدده وتشخيص القوى والشرائح الاجتماعية المحركة له، وذات المصلحة في تحقيق أهدافه، ما يساعد في بلورة تصور بشأن إمكانيات تطوره وسقوفه، إن وجدت، وآفاقه. وأود ان اشدد ابتداء على أننا كحزب شيوعي يتبنى مصالح شغيلة اليد والفكر. ويدعو ويعمل عبر اشكال نضالية سلمية متعددة ومتنوعة من أجل التغيير نحو إقامة نظام سياسي واقتصادي - اجتماعي يضمن الحقوق السياسية والاجتماعية، ويصون منظومة الحريات، ويوفر العيش الكريم والعدالة الاجتماعية للمواطنين في اطار دولة مواطنة، مدنية ديمقراطية، سنكون على الدوام إلى جانب الحراك الشعبي، على اختلاف توصيفاته ومسمياته، إذا كان يعبر عن مطالب مشروعة، سواء أكانت فئوية أم شعبية واسعة، وتنخرط فيه قوى تعبر فعلا عن آراء ومشاعر ومطالب الفئات الاجتماعية التي تعاني استلاب الحقوق والظلم والتهميش والتمييز والإهمال وضعف الحال أو الفقر.

ولأجل توضيح وفهم موقف حزبنا من أحداث ووقائع تشرين الأول 2019 كما ورد في سؤالكم، سأتناول هذه الوقائع في سياقها الزمني والتاريخي.

إن تفجر انتفاضة تشرين بالشكل الذي حدثت فيه، وتطورها اللاحق شكّل مفاجأة للجميع، ونحن منهم. واذا ما استعدنا مسار الأحداث، لوجدنا أنه في الأيام التي سبقت الأول من تشرين انطلقت دعوات إلى تظاهرات احتجاجية بوسائل التواصل الاجتماعي من جهات متعددة وتحت شعارات متنوعة، أبرزها "نازل آخذ حقي"، وأخرى تشدد على مكافحة الفساد وتوفير الخدمات، وبعضها ذو مطالب فئوية كالمطالبة بالتعيينات وإنصاف المفسوخة عقودهم وغيرها، ولكن بعض هذه الدعوات رفع شعارات اسقاط العملية السياسية والنظام السياسي وحل المؤسسات التمثيلية كمجلس النواب ومجالس المحافظات. بينما روّج بعض الكتابات الداعية للتظاهر، لا سلمية التظاهرات. وجاءت هذه الدعوات إلى التظاهرة الاحتجاجية على خلفية سلسلة من التظاهرات والاعتصامات التي سبقت وتزامنت مع هذه الدعوات لشرائح اجتماعية مختلفة كالخريجين، ومتعاقدي وزارتي الدفاع والداخلية المفسوخة عقودهم، والكسبة من أصحاب الجنابر وأهالي المناطق المتضررين من حملة رفع التجاوزات التي اطلقتها الحكومة حينذاك، وتم تطبيقها أحيانا بطرق قسرية وعنيفة. وقد أتيح لي كنائب زيارة العديد من هذه الفئات المعتصمة في مناط مختلفة من بغداد، منهم المفسوخة عقودهم في ساحة التحرير، والمهندسين المعتصمين أمام نقابة المهندسين، كما ألتقيت بوفود من صحاب الجنابر المتجاوزين.

إذن، للأول من تشرين كانت هناك دعوات من جهات مختلفة غير موحدة المطالب والأهداف إلى تظاهرة احتجاجية، ترفع فيها شعارات مطلبية وسياسية، بعضها مشروعة ومقبولة تحظى بدعمنا ومؤازرتنا كحزب، وأخرى تقف وراءها مجاميع ذات اجندات سياسية نتقاطع معها نحن، وقسم غير قليل من مطلقي الدعوات إلى التظاهرة. ومع ان هذه الدعوات بشكل ما تنسجم مع مشاعر عدم الرضا السائدة والمزاج الشعبي العام المتذمر والساخط لدى بعض الفئات والشرائح. كانت هناك بعض المخاوف تغلب على التظاهرة، بعض الشعارات السياسية المطالبة باسقاط النظام والعملية السياسية من منطلق الحنين إلى الماضي الدكتاتوري وليس باتجاه الخلاص من المحاصصة وبناء دولة المواطنة المدنية الديمقراطية. وبات واضحا من مسار الأحداث اللاحق أن السلطات تعاملت مع التظاهرة كعمل معادٍ تقف وراءه قوى خارجية، وتغافلت عن البعد الآخر والأساسي للتظاهرة المعبر عن مطالب مشروعة وبصورة سلمية. ورغم ذلك، فإن عشية الأول من تشرين كانت التقديرات بأنها تظاهرة اطلقتها جهات متعددة ذات هويات سياسية غير متجانسة قد ترافقها خروقات، إلاّ أنه لم يكن هناك ما يشي بأن تتحول هذه التظاهرة الاحتجاجية إلى هبّة شعبية عارمة، وإلى انتفاضة باسلة معمدة بالدم.

إنّ هذا التحول حدث بعد فترة زمنية من تجمع بضعة آلاف من المتظاهرين، بعد ظهر يوم الثلاثاء الأول من تشرين، عندما شرعت القوات الأمنية وقوات مكافحة الشغب باستخدام مختلف وسائل القمع

المفرط لتفريق التظاهرة بقسوة وشراسة في مواجهة متظاهرين سلميين: الهراوات، القنابل الصوتية، خراطيم المياه الحارة، الغاز المسيل للدموع، الرصاص المطاطي وانتهاء بالرصاص الحي، ما أدى إلى سقوط قتلى وعشرات الجرحى. أدى هذا القمع الدموي إلى احداث فرز وتغيير في طبيعة الحراك؛ إذ التحق بالتظاهرة بعد ساعات مئات، إن لم يكن آلاف من الشباب الغاضب، من الأحياء الشعبية المحيطة ببغداد، وبشكل خاص من مدينة الثورة - الصدر، بروح اقتحامية عالية، متضامنين مع أبناء مناطقهم، ومتماهين مع الشباب الذين استشهدوا والذين ينحدر معظمهم من ذات البيئة، ويقاسون ظروف عيش مماثلة.

عندما تتحول التظاهرة الاحتجاجية إلى هبّة شعبية - الشروط والمستلزمات

عندئذ بدأت عملية تحول التظاهرة الاحتجاجية إلى هبّة شعبيّة لحمتها وسداها الأساسيون أبناء المناطق الشعبية من الشباب العاطل عن العمل، أو من الكسبة اليوميين أصحاب البسطات وسائقي (التك التك) والعاملين في تقديم الخدمات البسيطة وبائعي السكائر وقناني الماء عند مفترقات الطرق، وهم الأغلبية، إلى جانب شريحة أصحاب الشهادات من خريجي المعاهد والجامعات العاطلين عن العمل.

في مساء الأول من تشرين الأول، اصدر حزبنا تصريحا رفض فيه استخدام الوسائل العنفية من قبل الجهات الأمنية في التعامل مع التظاهرات، مؤكدا ضرورة الالتزام باحترام الحق الدستوري بالتظاهر السلمي. ودعا فيه الحكومة والقضاء ومفوضية حقوق الانسان وجميع الجهات ذات العلاقة، إلى اجراء تحقيق عادل وشامل ومحايد ومحاسبة المقصرين.

وتوالت خلال الأيام اللاحقة التظاهرات، واتسع نطاقها في بغداد وبعض المحافظات، وحظيت بتعاطف شعبي متنام من مختلف الشرائح الاجتماعية، فيما واصلت السلطة استخدام وسائل العنف المفرط والقمع الشديد، وسقط العشرات من الشهداء بنيران قناصي "طرف ثالث" حسب ادعاء الحكومة حينذاك. وفي خضم هذه المواجهة بين هذا النهج القمعي للحكومة وللجهات الميليشياوية المنسوبة لطرف ثالث، مقابل روح التحدي والجرأة في مواجهة الرصاص بصدور عارية للشباب المتظاهر والإصرار على مواصلة التظاهر والاحتجاج والرفض للحكام الفاسدين والخاضعين لإرادة الخارج، أخذت الشعارات والمطالب تتبلور وتتركز على تحميل منظومة حكم المحاصصة والفساد، ما حلّ بالبلاد من تدهور وتردي في أحوال الشعب وخصوصا الواقع المأساوي للشباب، وانسداد آفاق مستقبله وانتهاكات لسيادته الوطنية ولتغول الفصائل المسلحة والميليشيات، فارتفع سقف المطاليب السياسية، وتعمقت القطيعة مع المنظومة الحاكمة، وتوحدت مطاليب المتظاهرين، الذين تحولوا إلى منتفضين في مواجهة قمع السلطات واعتصموا في ساحات الاحتجاج في مختلف محافظات وسط العراق وجنوبه.

لقد واكب حزبنا عن قرب هذه التطورات والتحولات التي شهدتها الحركة الاحتجاجية، واندفع بحكم مسؤوليته النضالية إلى المشاركة والالتحام بهذا الحراك المجتمعي المتصاعد، وأن يعمل بكل طاقته لدعم سيرورة هذا

الحراك وتحولاته نحو التجذر في المطالب والتنظيم والأساليب والمساهمة في توفير مقومات النجاح لتحقيق أهدافه، ولا سيما في ما يتعلق بالآليات التنظيمية من أجل تنسيق وتوحيد أهداف وعمل ساحات الاحتجاج، وما بين الجماعات والتنسيقيات المخالفة المشاركة في هذا الحراك المجتمعي.

ومع استمرار التظاهرات وصلابة مواقف المتظاهرين والمحتجين وشجاعتهم المبهرة في مواجهة القمع وتقديمهم لكواكب من الشهداء والجرحى والمخطوفين والمعتقلين، أخذت تتبلور بوضوح متزايد الهوية الوطنية والعادلة لمطالبيهم السياسية في التغيير وتشديدهم على الحلقات المركزية التي تفتح مسارات التغيير المطلوب. وفي مقدمتها الخلاص من نهج المحاصصة الحاضن للفساد وإزاحة المنظومة السياسية الحاكمة، والانفتاح على الفضاء الوطني والهوية الجامعة، بعيدا عن الطائفية السياسية والتعصب الديني والطائفي والقومي والعشائري، وتجسيدهم لذلك في ممارساتهم وسط ساحات الاحتجاج.

في ضوء كل ذلك، قام الحزب بتحريك موقفه، وعمد إلى تقديم نوع من برنامج عمل ورؤية للمهمات الآنية لسيرورة هذا الحراك الاحتجاجي، والهبّة الشعبية، وتحولها إلى انتفاضة ذات اهداف ومطاليب، تلتقي مع المشروع الوطني الديمقراطي وبناء الدولة المدنية الديمقراطية الكفيل، بإخراج البلاد من أزماتها.

ففي الثاني عشر من تشرين الأول 2019، اصدر الحزب تصريحا للمكتب السياسي تحت عنوان "التغيير الشامل بات ضرورة ملحة"، وفيه استخدم أول مرة توصيف الانتفاضة للحراك المجتمعي الاحتجاجي. وقد اعتبر التصريح أن الأول من تشرين هو تاريخ انطلاقها. والمقصود بذلك بداية سيرورة تحولها إلى انتفاضة شعبية.

فالانتفاضة، كشكل من أشكال النضال، لجأت إليه فئات وشرائح اجتماعية تعاني من البطالة والتهميش، وتردي ظروفهم المعيشية وغياب الخدمات الأساسية عن مناطقهم، ونسبة كبيرة منهم تحت خط الفقر أو قريبة منهم، كما شارك فيها الشباب بشكل بارز، لا سيما جماهير الطلبة الذين كانت لهم اهم مشاركة في فعل سياسي جماهيري على مدى عقود، وقوى وشرائح اجتماعية تنتمي إلى الفئات الوسطى، من أصحاب المهن الحرة وبعض فئات الموظفين والمثقفين المدنيين والناشطين في النقابات العمالية والمهنية ومنظمات المجتمع المدني. وبذلك اكتسبت الانتفاضة بُعداً شعبيا لا لبس فيه، خصوصا بعد 25 تشرين الأول، عندما شارك مئات الآلاف في التظاهرات والاعتصامات التي دعت اليها قوى الانتفاضة.

تفجرت الانتفاضة بعد تراكمات من اشكال الحراك الشعبي الاحتجاجي منذ أكثر من عشر سنوات، ولا سيما في السنوات 2011 و2013، وتظاهرات السنوات 2015 - 2017، تنامى خلالها وعيها السياسي، واكتسبت الجماهير خلالها تجربة نضالية مهمة، وانخرطت في الفعل الاجتماعي والسياسي، متجاوزة حواجز الخوف والتردد، وتعززت لديها روح المطالبة بالحقوق ورفض الظلم والفساد، وسقطت في مجرى هذه الحركات الاحتجاجية قدسية الكثير من القيادات التي انكشف فسادها

وتضليلها وتلفحها بالدين والتقاليد زورا. لعل من أهم انجازات هذه الانتفاضة هو الارتقاء بالوعي الفكري والسياسي لأقسام واسعة من شعبنا، ولا سيما بين فئات الشباب المحروم من ابسط مقومات العيش الكريم، وزج أقسام واسعة منهم في الفعل الاجتماعي والسياسي الاحتجاجي والمعارض. ويكتسب ذلك أهمية كبيرة في سياق رؤيتنا للتغيير المطلوب، الذي يتطلب تعديلا في موازين القوى السياسية، وضغطا شعبيا قويا.

وقد شهدنا مع انطلاق الانتفاضة ترنح المنظومة السياسية المحاصصاتية الحاكمة، وتعمق انقساماتها وصعوبة تحقيق التوافقات ما بين كتلها وداخلها وتفكك تحالفاتها الطائفية، واضطرارها إلى التضحية بحكومة عادل عبد المهدي وإعادة هيكلة مفوضية الانتخابات وتمرير قانون انتخابات جديد، انحناءً امام العاصفة، وكسبا للوقت لترتيب أوضاعهم. وكشفت الانتفاضة عن قوة تأثير الضغط الشعبي، عندما يتوحد في مطالبه المشروعة وتتسع قاعدة الفعل السياسي. وقد أحدثت الانتفاضة قطعا في مسار نهج المحاصصة لقوى الطائفية السياسية وشكلت محطة فارقة في الوضع السياسي، بحيث لم يعد ممكنا إدارة الأمور من قِبل المنظومة الحاكمة بنفس الطريقة السابقة.

هناك مسألتان موضع جدل ونقاش أيضا بشأن الانتفاضة؛ الأولى توصيفها بالثورة، والثانية امتدادها بالزمن واستمرارها. فيما يتعلق بتسميتها كثورة اشرت في ما سبق الى ان لمفهوم الثورة تعريفات وتفسيرات مختلفة. واتسع نطاق تطبيق المفهوم، بحيث اصبح بعض المفكرين والباحثين، يشكك في جدوى المفهوم.

لكن اذا ما اعتمدنا المفهوم الماركسي للثورة، والذي يعني تغييرا في النظام الاقتصادي - الاجتماعي عندما لم يعد هناك توافق بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج وأصبحت الأخيرة معيقا لتطور قوى الإنتاج، ويقترن ذلك بإسقاط او إزاحة النظام السياسي الذي يعبر عن المصالح الطبقية للطبقة أو الائتلاف الطبقي الحاكم؛ فالثورة اذن تشمل التغيير في المجالين السياسي والاجتماعي. على وفق هذا المفهوم، فإن وقائع احداث الأول من تشرين وما تلاها لا تمثل ثورة، لأنه لم يحدث التغيير الهيكلي، لا في النظام السياسي، ولا في النظام الاقتصادي -الاجتماعي، ولكنها يمكن أن تندرج ضمن مفهوم الثورة، اذا ما نظرنا إليها كعملية وكصيرورة. ومن مهمة القوى الثورية، المشاركة الفاعلة والالتحام بالحراك الشعبي والعمل على توفير عناصر تطورها ونجاحها في تحقيق مطالبها وأهدافها. ولكون الانتفاضة فعل كفاح ومقاومة، فيمكن اطلاق توصيف الثوار على المنتفضين، وخصوصا بعد أن قدم المنتفضون مئات الشهداء وآلاف الضحايا.

بعض الباحثين والاكاديميين العراقيين يطلقون على الانتفاضة ثورة وفق مفاهيم أخرى للثورة، منها اعتبار ما حفزته الانتفاضة من تغيير في السلوك الاجتماعي وعلى صعيد منظومة القيم السائدة، كالنظرة والموقف من المرأة، وتجاوز التعصب الهوياتي الديني والمذهبي نحو الهوية الوطنية الجامعة، التعامل مع السرديات والشعائر الدينية والمذهبية، وخصوصا الشيعية، ضمن منظور انساني ووطني، وليس طائفيا منغلقا على نفسه، إضافة إلى ما سبق ذكره بشأن

رفع الوعي الفكري والسياسي المجتمعي. وضمن هذا المفهوم الذي يميز بين الفضاءين والمجالين السياسي والاجتماعي، وبذلك تكون قد حققت قطيعة، ويصبح جائزا اطلاق صفة الثورة على انتفاضة تشرين، كما يستند البعض الآخر في توصيفها كثورة إلى اتساع القاعدة الاجتماعية للانتفاضة خصوصا بعد 25 تشرين الأول، ومشاركة فئات واسعة من الطبقات الوسطى.

رغم كل العسف والقمع ومحاولات الاختراق ...
"النار ما تزال تحت الرماد، ويمكن أن تشتعل مجدداً"

وإزاء التساؤل فيما اذا يظل توصيفها كانتفاضة في حال استمرارها لآماد زمنية طويلة وخبو أفعالها وتقلص القوى الاجتماعية المشاركة فيها، نرى من غير المنطقي أن يستمر التوصيف رغم ما تشهده مساراتها والمشاركة الشعبية فيها من انحسار وتقلص. وبشكل عام نادرا ما تبقى، أو تستطيع أن تحافظ الانتفاضة على شكلها الأولي، ويصعب الحفاظ على المزاج الثوري للمنتفضين ما لم يتم تطويرها والتحول إلى اشكال نضالية أخرى كالعصيان المدني، وإذا ما كانت شروط الوضع الثوري الموضوعية، ما تزال قائمة والعامل الذاتي. أي الاستعداد الجماهيري للطبقات والفئات اجتماعية ذات المصلحة في التغيير، متوفر أيضا، فيصبح ممكنا العمل على تطويرها إلى انتفاضة مسلحة.

وما يخص انتفاضة تشرين، لا شك انها شهدت انحسارا، بسبب جائحة كورونا، وأيضا بسبب عمليات الاغتيال والخطف والاعتقال التي طالت ناشطيها الفاعلين. ولعوامل ذاتية ترتبط بضعف التنظيم وعدم وجود رؤية مشتركة لطبيعة النظام البديل لمنظومة المحاصصة والفساد وكثرة الانقسامات بين صفوف المنتفضين، والعمل المكثف للقوى المتنفذة والجماعات المسلحة لاختراق صفوفها وتفتيتها بانشاء واجهات سياسية شبابية مرتبطة بها.

بالمقابل، ما تزال عوامل انطلاق الانتفاضة قائمة، والدولة والحكومة وقوى المحاصصة عاجزة عن تقديم الحلول للخروج من الأزمات، ونواتات قوى الاحتجاج تواصل نشاطها، كما تظهر نشاطات وفعاليات احتجاجية خارج ساحات الاحتجاج، فشهدت مختلف محافظات العراق تظاهرات واعتصامات واضرابات ووقفات ذات طابع مناطقي او شرائحي أو قطاعي، شملت الريف والمدينة وفئات اجتماعية متنوعة. لذا يمكن القول تماما ان النار ما تزال تحت الرماد، ويمكن أن تشتعل مجددا.

- **الثقافة الجديدة**: بمقابل ما انجز من جهود على صعيد تجذير الحركة الاحتجاجية منذ 2011 ولاحقا، واتساع قاعدتها وتعاظم تأثيرها، فانه قد عاد مجددا، وتحت ذرائع مختلفة، السجال الذي لم يخبُ يوما عن "ضرورة" ابعاد الاحزاب السياسية عن الحركة الاحتجاجية (من دون تمييز ومن دون تحديد ملموس لتلك الاحزاب ومن المقصود منها.. والهدف واضح: خلط الاوراق)، وهذه "الضرورة" غير بريئة. فلا يجوز التعميم في ظروف الغليان، لأن ذلك يحمل دلالات عدة ويستوجب التوقف. فإشكالية العفوية/ الوعي في الحركة الاحتجاجية والانتفاضة الشعبية

ليست جديدة وليست قضية ثانوية بل تقع في صلب النضال من اجل تطوير وتجذير الحركة الاحتجاجية والحراك المجتمعي عموما، ولا يجوز التقليل من اهميتها تحت اية ذريعة كانت.

ان المقاربة العلمية الصحيحة لما جرى من انتفاضات وحركات اجتماعية ووضعها في سياقها الصحيح، تستلزم التخلي عن النظرة المباشرة للظواهر المجتمعية – وهنا الانتفاضات التي حدثت مثالا – وتجنب النظر الى بعض تمظهراتها، واستبدال ذلك بالدخول الى عمق تلك الظواهر من خلال تخليص الاحداث التي وقعت من قيود اللحظة والقوالب التحليلية الجاهزة وادراجها في السياق المجتمعي الاوسع، بربط ذلك كله بالديناميات الاعمق والاكثر فعالية على المديين المتوسط والبعيد. هذا مع العلم ان غياب القيادة المسبقة المفترضة للانتفاضة أو للحركة الاحتجاجية، لا يفسر عفويتها، فهو ليس خاصية بالعراق، بل هناك تجارب أخرى مماثلة.

نطمح هنا الى مزيد من التدقيق لإشكالية العفوية/ الوعي في الحركة الاحتجاجية في عراق ما بعد 2003 عموما، وانتفاضة تشرين 2019 على وجه الخصوص.

(ابو رواء)- كما ورد في منطوق السؤال، ان السجال بشأن العلاقة بين العفوية والسيطرة او التوجيه الواعي من قبل تنظيم أو حزب ليس حديثا، وخصوصا في الحركة العمالية العالمية؛ إذ كان يشكل احدى المسائل المركزية للتنظيم السياسي منذ بدايات نشوئها. وقد دارت هذه السجالات على مستويات متعددة واطراف مختلفة. فهي كانت موضوعا رئيسيا للسجالات الفكرية والسياسية بين الماركسيين والفوضويين، وما بين الماركسيين أنفسهم في إطار الفكر الماركسي. وتجدد الاهتمام بهذا السجال في العقود الأخيرة، في ضوء التحول نحو أساليب أكثر لامركزية في مقاومة الرأسمالية والابتعاد عن المقاربات التقليدية التي تركز على الحزب والدولة، ورافق هذا التحول تهليل وترويج وابتهاج بعفوية الجماهير. وفي منطقتنا العربية، يعتقد دعاة العفوية انتفاء أهمية دور التنظيمات الحزبية وأن انتفاضات "الربيع العربي" اتسمت انطلاقتها وانتشارها وفعالياتها بالعفوية.

كيف تفهم العلاقة بين العفوية والوعي في الحراك الاجتماعي

إن إشكالية العلاقة بين العفوية والتنظيم الذي يقوم بنشر الوعي وتطويره، قد تمحورت في النقاش داخل الحركة العمالية العالمية في بدايات القرن العشرين، حول طبيعة الحزب الثوري للطبقة العاملة، ودوره في الفعاليات الاحتجاجية والمقاومة الجماهيرية ضد الاستغلال الرأسمالي كالاضرابات والانتفاضات وغيرها من الاشكال النضالية. وابرز السجالات بهذا الخصوص تلك التي دارت بين لينين وروزا لوكسمبورغ، القائدة الشيوعية والعمالية الألمانية. فقد كانت روزا ترى أن الوعي الطبقي للعمال لا يأتي من خارجهم، إنما يتبلور لديهم مع تطور الرأسمالية وتنامي شعور العمال واحساسهم باستغلال ارباب العمل لهم، والذي يتراكم وقد يصل إلى حد التفجر كفعل جماهيري، كالاضرابات العمالية التي عمت روسيا خلال السنوات 1902 - 1904 ومهدت لثورة 1905 التي تفجرت نتيجة قمع تظاهرة

توجهت إلى قصر القيصر. فالوضع الثوري وتحديد موعد انطلاق الفعل الجماهيري الثوري ليس من مهمة الحزب وخارج امكانيته، عدا أن المزاج الثوري والوضع الثوري لا يتحقق بفعل إرادي وإنما نتيجة تفاقم تناقضات النظام الرأسمالي، كما أن هذه الاشكال النضالية الجماهيرية، يزداد تأثيرها كلما اتسعت قاعدة المشاركة من الجمهور الواسع للعمال، وهذا ما لا تحققه الفعاليات النضالية التي ينظمها حزب شديد المركزية، وعالي الانضباط، يضم مناضلين يملكون وعيا متقدما وخبرات تنظيمية عالية. وهي لا تلغي دور الحزب عند الالتحام بالحراك الثوري والعمل على توجيهه والسعي لقيادته، إنما لا ترى له دورا أساسيا في رفع الوعي الطبقي. فالعمال يجب أن يحرروا أنفسهم بأنفسهم، لا أن تقوم بذلك منظمة أو حزب نيابة عنهم. ويجد هذا الرأي سندا وتأسيسا له في النظام الداخلي المؤقت للأممية الأولى، الذي كتبه ماركس في عام 1866، وجاء فيه بأن: "تحرير الطبقات العاملة يجب أن تظفر به، الطبقات العاملة نفسها"، إذ يمثل مبدأ التحرر الذاتي بالنسبة لماركس، السبيل الواقعي الوحيد نحو المجتمع الاشتراكي.

لم يكن لينين يختلف مع روزا لوكسمبورغ في أن الطبقة العاملة يجب أن تتحرر بنفسها، ولكن في ظل دولة استبدادية قمعية، دعا إلى قيام منظمة تضم شريحة العمال الأكثر وعيا طبقيا في الطبقة العاملة، تكون مهمتها تيسير عملية التحرير الذاتي للعمال. أما بالنسبة للوعي الذي يكتسبه العمال نتيجة تنامي شعورهم وإحساسهم بالاستغلال الطبقي بعد تمكنهم من اكتشاف حقيقة الرأسمالية، نتيجة افعالها وانحسار تأثير وسائلها لحجب هذه الحقيقة وتزييف الوعي، إلا أن الرأسمالية تبتكر أشكالا جديدة متطورة للتضليل والتمويه على طبيعتها الاستغلالية، ودور الحزب هو المساعدة في التغلب على هذه الحواجز وتسهيل تشكّل الوعي الطبقي.

وقد اعتبر لينين حركة الطبقة العاملة العفوية هي نقابية وتطورها التلقائي يؤدي إلى خضوعها للأيديولوجية البرجوازية، لذا يتوجب على حزب الطبقة العاملة "محاربة" العفوية.

وينبّه المفكر الماركسي جورج لوكاتش الذي وقف إلى جانب لينين في هذا السجال، إلى أن الوعي لا يتشكل كنتاج لأفكار وإنما لأفعال، ولذلك كان لينين مصيبا عندما ألزم عضو حزب العمل في إحدى منظماته كشرط للعضوية على خلاف أحزاب الأممية الثانية التي تكتفي في شروطها للعضوية بقبول عضو الحزب للبرنامج والنظام الداخلي ودفع الاشتراك.

مع ظهور الحركات الاجتماعية الجديدة أواخر ستينات القرن الماضي المتمثلة بالحراك الاجتماعي الذي قاده الطلاب والنقابات العمالية في مايس 1968 في فرنسا، والذي احدث انعطافا ثقافيا واجتماعيا واخلاقيا في المجتمع الفرنسي ما تزال ترددات حاضرة حتى يومنا هذا، والتي تطورت أشكال عملها وتنظيمها وأساليب تواصلها مع أعضائها والجمهور الواسع بالارتباط مع التطور المتسارع لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات ونشوء شبكات التواصل الاجتماعي، ساد التصور بغلبة البعد العفوي على نشاط هذه الحركات وبأنه عامل أساس في النجاحات التي حققتها بعض هذه الحركات في التعبئة الواسعة لفعاليات

وتظاهرات جماهيرية، وفي الترويج لأفكار وبرامج ومواقف سياسية، ولعبت دورا حاسما في الفضح والتعرية، والتحشيد لحركات احتجاجية وانتفاضات ضد أنظمة دكتاتورية استبدادية قادت إلى اسقاطها، كانتفاضات ما يسمى بالربيع العربي. وقد وجد هذا التصور تعبيره في المواقف الرافضة للأحزاب بشكل مطلق وللتعاون والتنسيق معها، بما في ذلك الأحزاب والقوى السياسية الوطنية والديمقراطية والتقدمية والشيوعية التي لها مواقف ثابتة ومشهودة في الماضي والحاضر دفاعا عن الوطن والشعب وحقه في العيش الحر الكريم، وتعارض مشاركتها في الحراك الشعبي الاحتجاجي وفي الانتفاضة. وتتبنى بعض جماعات وشخصيات انتفاضة تشرين الباسلة مثل هذه الطروحات والمواقف التي تعيق عملية توسيع قاعدة القوى المشاركة والمساندة للانتفاضة، وبناء أوسع اصطفاف سياسي ممكن على قاعدة اهداف ومطالب الانتفاضة الشعبية، وتوحيد عمل قوى الانتفاضة وبلورة رؤية برنامجية مشتركة لها.

ولأجل إرساء السجال على قاعدة مفاهيمية سليمة، من الضروري التدقيق أولا في مفهوم العفوية.

في بحثهما عن العفوية في الحركات الاجتماعية المنشور عام 2015 يعرّف الباحثان Snow and Moss العفوية بأنها "فعاليات وأحداث وخطوط عمل، لفظية وغير لفظية، لم يتم التخطيط لها أو قصدها أو ترتيبها مسبقا أو تنظيمها مسبقا قبل حدوثها"، أي أن غياب التخطيط هو العنصر الأساسي في مفهوم العفوية. فهل كانت انتفاضات الربيع العربي حقا عفوية بهذا المعنى؟ لقد أظهرت نتائج بحث علمي استقصائي ميداني للاحتجاجات في تونس ومصر بأنها لم تكن لا عفوية ولا منظمة بالكامل، إذ عملت منظمات رسمية وجماعات غير رسمية وعفوية مترابطة بشكل صارم على إدامة الاحتجاجات ودعمها. ففي مصر، وفرت شبكات خيرية إسلامية قائمة القاعدة الهيكلية للجان الشعبية للمشاركة في احتجاجات عام 2011، كما كان للمجموعات العمالية المتشكلة عفويا في البداية، والتي تمأسست لاحقا، دور حاسم في تنظيم الاحتجاجات الوطنية الواسعة التي حدثت طوال عام 2011. أما في تونس فقد كان دور الاتحاد العام التونسي للشغل، اتحاد النقابات الرئيسي في تونس، ضرورياً لتعبئة العمال في المراحل الأولى من الاحتجاجات، لكنه كان مدعوماً من قبل مجموعات غير رسمية وعفوية من العمال أثناء عملية انتشار الاحتجاج. وخلصت نتائج البحث إلى أن الانتفاضتين التونسية والمصرية 2010 - 2011 كانتا ترتكزان جيدا على هياكل تعبئة وسيطة قادرة على البقاء والاستمرار في مواجهة قمع سلطة استبدادية.

وما توصلت اليه هذه الدراسة يأتي تصديقا لما كتبه غرامشي بشأن العفوية في مؤلفه "دفاتر السجن": أن "العفوية" النقية "غير موجودة في التاريخ... ففي الحركة "الأكثر عفوية" هي ببساطة حالة لا يمكن فيها التحقق من عناصر "القيادة الواعية، لعدم وجود ما يوثقها بالتالي، ولم تترك أي وثيقة موثوقة. يمكن القول أن العفوية هي بالتالي سمة من سمات "تاريخ الطبقات التابعة أو(الثانوية)" subaltern classes"، والمقصود

بالطبقات التابعة حسب فهم غرامشي أنها طبقات ثانوية تركت، بحكم وضعها المهمش، آثاراً قليلة لنشاطها الواعي.

ونخلص من كل ما تقدم إلى أن عنصر التنظيم والنشاط الواعي كان موجودا في انتفاضات الربيع العربي، بعضه صريحا تقوم به شبكات تنظيمية واجهية لتيارات سياسية، كالإخوان المسلمين، أو لتنظيمات نقابية ولمجاميع تشكلت عفويا مع بدايات الحراك الجماهيري، والبعض الآخر تقوم به جهات وجماعات غير معلنة، عن قصد أو غير قصد. لذا فإن ما يبدو ظاهرا بأنه عمل عفوي، يكون من تنظيم مجموعات اجتماعية تابعة، حسب مفهوم غرامشي.

ومن جانب آخر، تبين الأبحاث العلمية والدراسات الميدانية للحركات الاجتماعية أن أعمالا جماعية عفوية من المرجح أن تحدث في الحركات غير الهرمية التي تلتزم بعمليات صنع القرار الديمقراطية التداولية. إن العفوية ليست فاعلة دائما في ميدان الاحتجاج، كما لا يوحد استثناء متبادل ما بين العفوية من جهة، والتنظيم والتخطيط من جهة أخرى؛ إذ من الممكن أن تحدث أعمال عفوية ضمن فعاليات احتجاجية مخطط لها، أو أن تستتبعها وأن تلعب دورا مؤثرا على مسار وطابع الحراك أو الفعل الجماعي.

فكل ما تقدم يؤكد ان عنصر التنظيم والتخطيط كان حاضرا في الاحتجاجات الجماهيرية، إلى جانب العفوية وبصورة متداخلة. وان الاستجابة الجماهيرية التلقائية لدعوات التظاهر والاحتجاج في الأول من تشرين، ولاحقا في تطورها إلى انتفاضة، كان البعد العفوي حاضرا من دون استثناء، كذلك وجود التنظيم الميداني على المستوى اللوجستي والتحشيدي والتعبوي من قبل، أما شبكات وجماعات قائمة تحت مسميات مختلفة تقف وراءها قوى سياسية منظمة، أو جماعات تشكلت في مجرى الحراك الشعبي الاحتجاجي بصورة عفوية. إلا ان التنظيم بأشكاله المختلفة التي اشرنا اليها، ذو طابع جزئي محدود، لا يلبي حاجة الانتفاضة إلى وضع مطاليبها وأهدافها ضمن رؤية استراتيجية لطبيعة التغيير المطلوب ومشروعه السياسي والاجتماعي، والتي توفر الخطوط المرشدة التي تعين الانتفاضة في وضع تكتيكاتها على الصعيدين السياسي والاجرائي في تعاملها مع السلطة ومع القوى والحركات والتنظيمات السياسية واذرعها العسكرية المتواجدة في ساحات الاحتجاج. والنهوض بهذه المهمات يتطلب وعيا سياسيا متقدما بالأوضاع العامة للبلاد، وتقديرا دقيقا لموازين القوى السياسية والاجتماعية وللعوامل المؤثرة في تغييرها، وإقامة اشكال التعاون والتنسيق والتحالف بين القوى والتنظيمات والجماعات والشخصيات التي اتخذت مواقف داعمة للانتفاضة، وتلك التي يمكن التحرك لاجتذابها.

ولا يمكن أن يتحقق ذلك من دون الارتقاء بمستويات التنظيم نحو إيجاد اطر تمتلك صلاحية ممارسة هذا الدور التوجيهي والقيادي، والذي يعتبر احد مستلزمات وشروط تمكين الانتفاضة من تحقيق أهدافها. ولا يوجد تعارض بين وجود اطر تمارس دورا قياديا في اتخاذ القرارات وبين بنية الانتفاضة التعددية والطريقة التداولية في صنع واتخاذ القرارات. ولكن هناك ضرورة في المزاوجة ما بين اللامركزية والطبيعة الافقية للحركة الاحتجاجية وبين شكل أو

صيغة من المركزية تتوافق عليها قوى الانتفاضة التي تفرضها متطلبات خوض الصراع بنجاح.

حذارِ من التشديد على العفوية وإضفاء هالة من التقديس حولها

وانطلاقا من هذه المهمات والتحديات التي تواجه النضال الصعب والمعقد للإنتفاضة، يتضح مدى الضرر الذي يمكن أن تلحقه بالانتفاضة طروحات التشديد على العفوية واضفاء هالة من التقديس حولها، دون أن يعني ذلك الانتقاص أو تغييب الدور العفوي وفق الفهم الذي اوضحناه، ويندرج ضمن ذلك موقف الرفض المطلق للأحزاب الذي تتخذه بعض قوى الانتفاضة. هناك من يروج هذه المواقف من المعادين للانتفاضة بقصد اضعافها وتشتيت قواها وافتعال الخلافات والنزاعات بين المناصرين للانتفاضة، ولسنا معنيين بهؤلاء، لأنهم يتحركون وفق اجندات معينة، ولكن تتبنى مثل هذه الطروحات بعض الجماعات، ومن الشباب المنتفض الصادق في مشاعره الوطنية، وفي اندفاعه وحماسه. فمن المفهوم أن لا تجد صيغ العمل الحزبي قبولا لدى البعض، والحذر والتوجس من الأحزاب، اللذين يستثيرهما فيهم ما احدثته أحزاب السلطة من خراب وفساد في البلد، ولكن التعميم والاطلاق غير جائز؛ إذ أن فساد بعض الأحزاب أو القائمين عليها لا يعني فساد فكرة الحزب كشكل متقدم للتنظيم السياسي، كما أن فساد برلمانيين او قرارات برلمان معين لا يعني المطالبة بإلغاء البرلمان. ثم أنه لا بديل عن الصيغة الحزبية في خوض العمل السياسي وفي البناء الديمقراطي للحياة السياسية. وشهدنا مؤخرا قيام العديد من المجموعات الشبابية المشاركة في الانتفاضة بتشكيل أحزاب أو العمل على تشكيلها، وهو مسار طبيعي ومرحب به.

ومن وجهة نظرنا كحزب، فنحن لا نستأذن أحدا في نصرة شعبنا وفي خوض النضال والصراع من أجل مطالبه وحقوقه المشروعة والخلاص من منظومة المحاصصة والفساد وتحقيق التغيير نحو دولة المواطنة والعدالة الاجتماعية، الدولة المدنية الديمقراطية. لذا شاركنا في جميع تظاهرات وفعاليات الحراك الشعبي الاحتجاجي، وبشكل خاص منذ عام 2011، وكذلك الحال في انتفاضة تشرين الباسلة، وقدم الحزب العديد من الشهداء والعشرات ممن تعرضوا إلى أنواع مختلفة من القمع، من اعتقال وخطف وملاحقة وتهديد. ويسعى الحزب من خلال مشاركته الفاعلة في الحراك الاحتجاجي المتواصل في مختلف المحافظات، إلى تأمين شروط نجاح الانتفاضة في تحقيق أهدافها، والعمل على توحيد عمل قواها وتشجيع ودعم اطرها التنسيقية والارتقاء بعملها على المستويين المحلي والوطني والمساهمة في بلورة رؤى وبرامج عمل موحدة لها. ونحن نرى ان الأشكال التنظيمية المناسبة يجب أن تنبثق بصورة ديمقراطية من رحم الانتفاضة، لا أن تفرض عليها من خارجها، على أن يجري العمل الحثيث لإيجاد تلك الاشكال وتطويرها.

الثقافة الجديدة: اعادت انتفاضة تشرين رسم خارطة موازين القوى السياسية والاجتماعية، وذلك لأنها اعادت ادخال الجماهير كأحد ابرز اللاعبين الى الساحة السياسية، والذين غُيب دورهم عن عمد

طوال السنوات الماضية. وبالتالي، سلطت الانتفاضة الضوء من جديد على الجدل الدائم بين الاصلاح والتغيير. فنظريا، عاد الى دائرة الاهتمام ذلك الصراع الازلي بين اصلاح النظام باتباع الاليات والادوات السياسية المتعارف عليها "التغيير من فوق" وبين عملية يضطلع فيها الضغط الجماهيري بأشكاله ووسائله المتنوعة بالدور الرئيس في عملية التغيير "التغيير من اسفل".

ان البقاء ضمن هذا المستوى من التحليل، يفترض تعسفيا ان الآليتين منفصلتان، وان بينهما حاجزا صلدا لا يمكن تجاوزه، وليسا عبارة عن لحظات جدلية في كل متحول متطور، يجب النظر إليه في شموليته، وضمن ظروفه وملابساته المختلفة. فمن جهة، لا اصلاح سياسي ممكن في أي نظام، دون ان يكون له عمق مجتمعي حقيقي ودون دعم جماهيري. ومن جهة اخرى، لا يمكن للجماهير احداث أي تغيير في النظام السياسي مهما كانت البطولات التي تجترحها دون ان يكون لها تعبير وتمثيل سياسي، ودون ان يسبقه وان يلحقه حراك ونشاط سياسي اصلاحي بهذا المعنى او ذاك، وضمن أطر متعارف عليها غالبا.

هل من تعميق لهذه الاطروحة عبر اضاءة جوانبها المختلفة؟

(ابو رواء)- للإجابة على السؤال بشكل واف، علينا الإحاطة بالظروف والتطورات التي طرحت ضرورة الإصلاح على صعيد العملية السياسية، وفي الدولة ومؤسساتها المدنية والعسكرية والاقتصاد، وفي التشريعات.

جدل العلاقة بين "التغيير من أعلى" و"التغيير من اسفل".

بعد التغيير الذي حصل في عام 2003 وسقوط النظام الدكتاتوري وانهيار الدولة، دخل العراق مرحلة الانتقال الديمقراطي التي تمهد لعملية التحول الديمقراطي، وتم تدشين عملية سياسية هدفها في نظر الحزب، انجاز عملية الانتقال بالعراق من الدكتاتورية ونظام الحزب الواحد، إلى نظام دستوري يضمن الحقوق والحريات لجميع ابناء الشعب، واستكمال سيادته كبلد ديمقراطي اتحادي موحد مستقل.

وشقت العملية السياسية طريقها عبر مسارات متعرجة، وفي خضم صراعات حادة بين القوى المشاركة فيها، محورها الأساس التنافس على السلطة والثروة والقرار، وعلى تحديد شكل الدولة الجديدة ومضمونها. وقد أفضى اعتمادها على نهج المحاصصة الطائفية والإثنية إلى التعامل مع الدولة كغنيمة، تتصارع الكتل والقوى السياسية المتنفذة، على تقاسم سلطاتها ومغانمها، وإلى تشظي الدولة وترهلها واستشراء الفساد في المؤسسات الحكومية والتدهور المريع في الخدمات العامة، وتصاعد نسب الفقر، وتفشي البطالة، واتساع التدخلات الخارجية في شؤون بلادنا الداخلية. وتحول ذلك كله، بالتدريج، إلى ازمة عامة ذات طابع بنيوي تشمل شتى المجالات والمستويات. وبات واضحا ان العملية السياسية خرجت عن المسار السليم. وطرحنا في مرحلة مبكرة ضرورة اجراء مراجعة نقدية لمسيرتها وحصيلتها، بغية اصلاحها وتصويب مسارها، عبر

العمل على تخليصها من نهج المحاصصة الطائفية – الاثنية، اس أزمات البلاد.

ولكن القوى السياسية المتحاصصة لم تكن مستعدة للتخلي عن "الاوزة التي تبيض ذهبا"، لم تتمسك فقط بنهج المحاصصة بل عمدت إلى ترسيخه وتعميقه بحيث لم يعد تقاسم المواقع مقتصرا على توزيع الوظائف العليا في الدولة والدرجات الخاصة، بل امتد إلى المستويات الأدنى في السلم الوظيفي، وتحولت بعض الوزارات والإدارات الحكومية إلى اقطاعيات شبه مغلقة للأحزاب الطائفية السياسية وأنصارهم وزبائنهم. وأدى توالي الأزمات وتفاقمها وتأثيراتها، الى تشديد معاناة الملايين المحرومة، وتغذية مشاعر الاحباط والقلق والسخط في اوساطها، وتصاعدت مطالبات الفئات الشعبية الواسعة بمعالجة المعضلات المعيشية والخدمية والاجتماعية التي تطحنها. وتحولت تلك المطالبات، بمرور الوقت، إلى حركات احتجاجية ضاغطة، تشارك فيها وتدعمها قوى شعبية وسياسية ومنظمات مجتمع مدني واتحادات جماهيرية ونقابية، ساهمت في رفع الوعي ونشره، ما ساهم في أن يتسع ادراك قطاعات شعبية متزايدة من الناس، ان تحقيق مطالبهم مرهون بإصلاح النظام، وإعادة وضع العملية السياسية على السكة السليمة للانتقال الديمقراطي، وفقا لمعايير وأسس جديدة، وتوازنات واصطفافات سياسية تنبذ نظام المحاصصة، وتعتق البلاد من تركته الثقيلة.

وفي ضوء موازين القوى السياسية والاجتماعية القائمة ومستوى تطور الحراك الشعبي الاحتجاجي، وضعف القوى المدنية الديمقراطية والتقدمية وتشتتها، والآثار الوخيمة للبنية الريعية للاقتصاد العراقي على القطاعات الإنتاجية، ولا سيما تهميش واهمال الصناعة والزراعة وانعكاسها على واقع الطبقة العاملة وتنظيماتها النقابية وانحسار دور جماهير العمال الفاعل في الحياة السياسية، تقدم شعار الإصلاح السياسي على التغيير إلى جانب مكافحة الفساد وتوفير الخدمات ومطاليب فئوية وقطاعية.

لم تكن هناك أوهام بشأن إمكانية تحقيق اصلاح جذري في نظام المحاصصة نحو دولة المواطنة من داخل منظومة أحزاب الطائفية السياسية الحاكمة، لتجذر ارتباط مصالحها بنهج المحاصصة، وإنما كان شعار الإصلاح يمكن ان يجتذب شرائح اجتماعية أوسع، بما في ذلك بعض القوى والعناصر التي لها حضور وتمثيل في الدولة. ولم تكن القطيعة بين القطاعات الشعبية الواسعة وأحزاب وقوى المحاصصة الحاكمة قد بلغت المستوى الذي وصلت اليه الآن. ويدرك حزبنا أن تحقيق التعديل المطلوب في موازين القوى هو عملية سياسية واجتماعية – اقتصادية تشمل عوامل موضوعية وذاتية، كاشتداد أزمة حكم المحاصصة وفشل المنظومة الحاكمة في إيجاد الحلول لمشاكل البلاد من جانب، وانكشاف حقيقة الأحزاب والقوى الماسكة بزمام السلطة ومسؤوليتها عما آلت اليه أوضاع والتدهور في الأوضاع المعيشية لشرائح اجتماعية متنامية، وخصوصا الشباب والنساء. ومن شأن ذلك كله دفع أقسام جديدة من المجتمع إلى ساحة الفعل الاجتماعي، المطالب بالإصلاح والتغيير.

نجاح الانتفاضة في تحقيق أهدافها مرهون بإحداث التغيير في موازين القوى

والحزب الشيوعي العراقي يدرك جيداً أن التغيير في موازين القوى يفترض بالضرورة حدوث انتقالات في مواقف شرائح اجتماعية، بما في ذلك من القواعد الجماهيرية للأحزاب الطائفية السياسية الحاكمة، إلى جانب القوى المتطلعة والساعية إلى التغيير. ولذلك عمد الحزب، في اطار الاستراتيجية التي رسمتها مؤتمراته الوطنية، الى العمل على الصعيد الشعبي والجماهيري، أي من تحت، وفي مؤسسات الدولة التنفيذية والتشريعية في الحكومة الاتحادية وفي الحكومات المحلية في المحافظات، وبصورة متزامنة ومترابطة. وكان ينصب عمل الحزب من خلال مشاركة ممثليه في الحكومة ومجلس النواب ومجالس المحافظات، على تأدية مهامهم بنزاهة وكفاءة، وبعيدا عن التمييز وبروح ونهج المواطنة النابذ للطائفية والعشائرية والمناطقية والحزبية الضيقة. كما يتيح وجود ممثلي الحزب في هذه المواقع تكريس وجوده الشرعي وكسر الصورة المشوهة عن الحزب التي رسمت في اذهان أوساط اجتماعية واسعة نسبيا، وتم الترويج لها من قبل النظام الدكتاتوري البائد ومن القوى المعادية للحزب وللقوى المدنية وللفكر التقدمي التنويري والحداثي. وقد اصبح ممثلو الحزب فعلا مثالا يشار إليه بالبنان لنزاهتهم ونظافة أياديهم ولحسن أدائهم، ما انعكس في الصورة الإيجابية عن الحزب التي تكونت في الفضاء العام لدى عامة الشعب.

كما اوضحنا في اجابتنا على الأسئلة السابقة، اعتبر الحزب انتفاضة تشرين الباسلة قد شكلت نقطة فارقة في الواقع السياسي، ولم يعد ممكنا للقوى المتنفذة إغفال صوت الشعب ومطالبيه، التي عبرت عنها الانتفاضة بجرأة وعنفوان، وأن تحكم وتدير شؤون الدولة بنفس النهج السابق للإنتفاضة، وان ثمة قطيعة كلية قد حدثت على المستوى الشعبي مع المنظومة السياسية الحاكمة، وبات التغيير مطروحا في مقدمة جدول اعمال الحياة السياسية للبلاد.

واتخذ الحزب في ضوء هذه القراءة والتحليل لتطور الأوضاع قراره بالتضامن التام مع الانتفاضة والانحياز لها والمشاركة الفاعلة فيها، وأعلن ممثلوه في مجلس النواب ومجالس المحافظات استقالتهم, فقد أكدت التجربة أن المنظومة السياسية الحاكمة عاجزة عن تنفيذ أي خطوة أو اجراء إصلاحي جدي لأنها ستجد فيه تهديدا لمصالحها، ويعرضها للمساءلة والمحاسبة لتورطها جميعا في الفساد ومنظوماته، ولوجود وشائج لها مع الجماعات المسلحة والجهات التي ارتكبت الجرائم بحق المتظاهرين والمنتفضين. فأصبح الجهد الأساسي للحزب مكرسا لتطوير نشاطاته وعلاقته بالجماهير، وتعزيز دوره في الحراك الشعبي الاحتجاجي ونسج روابط أوثق مع قوى الانتفاضة، وإعادة بناء وتنشيط اطر التيار الديمقراطي وتكثيف الجهود من أجل توحيد عمل القوى المدنية الديمقراطية باتجاه بناء اصطفاف وطني ديمقراطي واسع، يمكن أن تنتج عنه ائتلافات سياسية وانتخابية.

ـ **الثقافة الجديدة**: ستبقى انتفاضة تشرين 2019 كما قلنا احد ابرز معالم تاريخ العراق المعاصر، ستدرسها وتحللها الاجيال القادمة كثيرا، وتستخلص منها العبر والدروس.

لكن هذا لا يمنعنا من التساؤل ـ وبعد ان انقضى من عمر الانتفاضة عام واحد ـ عن ابرز الدروس التي يمكن استخلاصها أوليا من الانتفاضة؟ خصوصا في ظل الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية القائمة وآفاقها المفتوحة.

(ابو رواء)- سيسجل تاريخ العراق المعاصر انتفاضة تشرين 2019 كإحدى اهم صفحات نضال الشعب العراقي المشرقة. كتبت حروفها من الدماء الزكية مئات الشهداء وعشرات آلاف ضحايا القمع الوحشي، الذي تعرض له المنتفضون، وجلهم من الشباب، بصدور عارية.

دروس وعبر الانتفاضة

الحاجة ملحة الى التنظيم ومغادرة العفوية

فإلى جانب المآثر البطولية التي اجترحها المنتفضون، فان الانتفاضة أعادت رسم اللوحة السياسية السائدة وتوازناتها بحيث لم تعد المنظومة الحاكمة، قادرة على أن تواصل حكمها وفق النهج ذاته، الذي سبق الأول من تشرين الأول وادركت، مرغمة، أن عليها مغادرته. وإذ نجحت الانتفاضة في اسقاط الحكومة وتمرير بعض التشريعات الانتخابية، وفي ادراج مطاليبها الأساسية ضمن برنامج وتعهدات الحكومة الجديدة، أهمها اجراء انتخابات مبكرة حرة ونزيهة تشكل رافعة ووسيلة لتغيير المنظومة السياسية الحاكمة التي تتحمل وزر أزمات البلاد والأوضاع المأساوية التي آلت إليها.

إلا أن التناقض يكمن في أن المنظومة الحاكمة المطلوب تغييرها، تتولى هي نفسها إعادة هيكلة وتشكيل المنظومة الانتخابية! أي أنها مطالبة بوضع الآلية التي تضمن وضع حد لوجودها في السلطة! ومن غير المتوقع أن تسرع قوى المحاصصة والفساد القابضة على السلطات في انجاز هذه التغييرات بهمة وحماسة!

فالتغيير الذي يواصل المنتفضون تظاهراتهم واعتصاماتهم وأعمالهم الاحتجاجية المتنوعة من أجله، لا يمكن أن يتحقق على يد المنظومة الحاكمة المستهدفة بالتغيير، ما يتطلب من القوى المشاركة والمساندة في الانتفاضة مراجعة مسيرتها بعد عام على انطلاقتها وتفحص بشكل دقيق بعيون ناقدة أساليب عملها ونضالها الكفاحية، وخطابها الفكري والسياسي والإعلامي وسلوكها وتعاملها مع القوى والتنظيمات السياسية والتيارات الفكرية والسياسية الفاعلة في الحياة السياسية وتشخيصها للأصدقاء والحلفاء المحتملين، من جهة وللخصوم والأعداء من جهة أخرى. فإنجازات الانتفاضة على أهميتها الكبرى، لم تأخذ مداها كاملا على الصعيد السياسي لافتقارها إلى الأطر التنظيمية القيادية المنبثقة من رحمها والضرورية لعملية صنع واتخاذ القرار المشترك لقوى الانتفاضة ولتوحيد رؤاها السياسية الأكثر شمولا واحاطة بمختلف جوانب وضع البلاد، وتقدير موازين القوى، وبشأن طبيعة التغيير المطلوب ومضامينه ومدياته ولرسم استراتيجية وتكتيك المواجهة مع القوى المضادة لها، وتحديد الأولويات والخطوات العملية لتوفير متطلبات تنفيذها.

وإذ يشكل توسع القاعدة الاجتماعية للقوى المشاركة في الانتفاضة والداعمة لها، عاملا أساسيا في زيادة زخمها وقوتها وتشديد ضغطها على المنظومة الحاكمة الماسكة بالسلطات، يشير مسار الانتفاضة ـ بعد مرور سنة على انطلاقها ـ الى أنها حظيت خلال الأشهر الأولى بالتفاف واسناد شعبيين وجماهيريين واسعين لم يقتصرا على الفئات والشرائح الاجتماعية الأكثر فقرا وتهميشا ومعاناة من البطالة في المناطق والأحياء الشعبية، لتشمل الفئات الاجتماعية الوسطى، ومن التنظيمات النقابية ومنظمات المجتمع المدني وأوساط المثقفين واتحاداتهم وروابطهم، وكذلك من طيف واسع من الأطر الاجتماعية الأهلية التقليدية، إلا أن المشاركة الفاعلة والميدانية للعديد من هذه الجهات، وخصوصا الاتحادات والنقابات العمالية والفلاحية والمهنية ظلت محدودة، ما يشكل نقصا يتطلب العمل على سده من خلال الخطاب والممارسة المنفتحتين إزاءهم.

لقد عبّرت الانتفاضة الباسلة عن انتقالة وارتقاء في مستوى الوعي الاجتماعي لدى الجماهير المنتفضة. فبعد أن كانت تشعر بوقع الظلم عليها باتت تعي وتشخّص من هي القوى والأحزاب والجهات المتسترة بالدين والمذهب، المسؤولة عن بؤس أوضاعها ونهب الأموال العامة وعن الفساد والافساد. ولكن هذا الوعي الجنيني الذي يتمظهر بعمل جماهيري عفوي بحاجة إلى مزيد من التطوير والتعميق ليستجيب إلى متطلبات قيادة الانتفاضة وتطوير اساليبها ومواقفها في مجرى تطورها من أجل تحقيق أهدافها.

ولا يمكن لهذا الوعي المتقدم أن تكتسبه الجماهير الساخطة والمنخرطة في الفعل الجماهيري الثوري إلا عن طريق النشر والتثقيف المنَظمين والعمل الميداني الذي يقوم به تنظيم سياسي، يضم كوادر حزبية سياسية متمرسة. إلا أن شيوع بعض المفاهيم والشعارات الرافضة للأحزاب وللعمل المنظم لنشر الوعي تقف عائقا أمام تحصين الانتفاضة من هذه النواقص والأخطاء وبلورة برنامج مشترك واضح الأهداف يتسم بالملموسية كشعارات "كلا...كلا للأحزاب" من دون التمييز بين أحزاب السلطة التي ناصبت الانتفاضة العداء، والأحزاب والقوى التي وقفت مع الانتفاضة منذ اليوم الأول وقدمت الشهداء من خلال المشاركة فيها، وشعار "الوعي قائد" الذي ينتقص عمليا من أهمية وجود برنامج ومن وجود نشاط منظم للارتقاء بمستوى الوعي وتطويره.

ومما يبعث الأمل والثقة في استمرار الانتفاضة وتطور دورها الفاعل اللاحق في عملية التغيير، هو الإصرار الثابت والفائق الشجاعة على مواصلة الاحتجاج والتظاهر، وتعدد المبادرات والتحركات الهادفة إلى إيجاد وتطوير اطر تنظيمية ذات مهام قيادية من شأنها تحقيق تنسيق ووحدة عمل وأهداف أفضل لقوى الانتفاضة، ولعدم زوال العوامل والأسباب التي أدت الى قيامها، بل على العكس زاد عددها واشتد ضررها كتفاقم الأزمة الاقتصادية والصحية وعدم الكشف عن قتلة المتظاهرين، واستمرار عمليات الاغتيال والخطف والتغييب للمحتجين، من دون إجراءات رادعة فعلية من قبل الحكومة.

نصوص مترجمة

الماركسية و الحركة الطلابية *

ساندرا ديلغادو وميشيل كيترو**
ترجمة: سوران قحطان

لعب الطلبة والحركات الطلابية أدواراً حاسمة، في التحولات السياسية والثقافية والاجتماعية منذ الأيام الأولى لنشأة الجامعات[1]. يتميز الطلبة بكونهم مجموعة غير متجانسة، تمثل مدى متنوعا ومتعددا ومتناقضا من الأيديولوجيات والمظالم والالتزامات السياسية. والحركات الطلابية متنوعة ايضا، مثلها مثل الطلبة؛ تاريخيا، لم تكن الحركات الطلابية دائما تقدمية أو راديكالية في أهدافها. على سبيل المثال، أثناء ثورتي باريس 1848 وروسيا 1917 - 1919، انحاز الطلبة إلى البرجوازية الرجعية [2]. من ناحية أخرى، لعبت الحركات الطلابية دوراً أكثر ثورية، في الستينات وأوائل السبعينات في الولايات المتحدة، وكذلك في اميركا اللاتينية في الخمسينات والستينات[3]. ومع أن موضوع هذا المادة، يركز على العلاقة بين الماركسية والحركات الطلابية، فمن المهم أن نؤشر أن الحركات الطلابية كان لها - ولا يزال لديها - روابط وثيقة مع نطاق [واسع نسبيا]*** من الفلسفات السياسية، مثل الاناركية، والنسوية، والليبرالية، والمحافظة، وغيرها. باختصار، ان هذا التنوع وعدم تجانس المصالح والالتزامات السياسية بين الطلبة يمثلان العلامات الاساسية للتنظيم والعمل السياسي للطلبة(4).

وقد تميزت العلاقة بين الماركسية ونشاط الطلبة السياسي بالتعقيد والجدال. وغالبا ما أهمل سلوكهم الجماعي باعتباره تعبيرا عن مطالب "برجوازية" أو "برجوازية صغيرة" [5]. وأطرت الحركات الطلابية لتكون مجرد سياسة "الفجوة بين الاجيال"، حيث تم تفسير نشاطهم كتمرد للشباب المغترب ضد الأجيال الأكبر سنا. وعلى نفس المنوال، تم التقليل من شأن النشاط الطلابي باعتباره سعيا شبابيا عن المعنى، بل وفي بعض الاحيان اعتبر مجرد مطاردة مساعي أو غايات "مستحيلة" ومفرطة في المثالية. ومع ذلك، تم الاعتراف بمساهمات الطلبة في النضالات الثورية، وبأدوارهم كمنظمين وقادة، مثلا في الثورة الصينية في اربعينات القرن العشرين، وفي الثورة الكوبية في خمسيناته، وفي حركة الحقوق المدنية في الولايات المتحدة في الستينات. من المهم أيضا الإدراك أن المنظمات الطلابية قد تأثرت أيضًا بشدة بالماركسية. فالعديد من اعضاء الحركات الطلابية، على سبيل المثال، كأفراد او مجموعات، انخرطوا في الاحزاب الشيوعية والاجتماعية

[الاشتراكية] في بلدانهم المعنية، من بين الامثلة: اتحاد طلاب جامعة تشيلي FECH، ورابطة من الطلاب الشيوعيين والأناركيين Zengakuren.

يواجه تنظيم الطلبة تحديات خاصة. وهي تحديات لا تواجهها عادة الأنواع الأخرى من العمل الجماعي بنفس الشكل. احد ابرز التحديات التي تواجه المنظمات والحركات الطلابية هو الفترة الزمنية المحدودة للحياة الطلابية؛ فحالما تنهي الطالبة او الطالب دراستهم، فإنهم لا يعتبرون طلابا بعد ذلك، وهذا يمكن ان يقيد مشاركتهم في العمل السياسي الطلابي. كما ان مساهمة الطلبة في النشاط الجماعي مقيدة بهيكلية التقويم الاكاديمي؛ فالفترات بين الفصول الدراسية تمثل لحظات انخفاض مستوى المظاهرات السياسية للطلبة. وبالتالي، فإن إلغاء أو تعليق الفصول الدراسية لفترات طويلة من الوقت، هو تكتيك تستخدمه إدارات الجامعات في سبيل اعاقة عملية تحشيد الطلبة داخل الحرم الجامعي، ما يؤدي غالبا إلى عودة عدد كبير من الطلاب أو بقائهم في المنزل، بدلاً من أن يكونوا ناشطين سياسيا وأكاديميا في كلياتهم. تاريخيا، مثلت هذه العوامل تحديات مهمة في عملية التعبئة الطلابية، كما انها أثرت على البنية التي تعتمدها هذه الحركات والمنظمات في تأمين القيادة الطلابية، وفي استقطاب طلاب جدد، وكذلك في ضمان استمرار عملهم السياسي.

على الرغم من أن بعض جوانب الحياة الطلابية، مثل التوقيتات الزمنية المحددة وهيكلية التقويمات الجامعية، تعد تحدياً مستمراً للحركات الطلابية، إلا أن هناك جوانب أخرى فيها تعمل على فتح الإمكانيات امام تعبئة الطلبة اجتماعيا، وكذلك على تعزيز جهودهم. فعلى سبيل المثال، ان ترتيب جداول الدراسات الجامعية للطلبة لتكون بدوام كامل، تساهم بتسهيل عملية وصول الناشطين منهم الى اعضاء جدد محتملين، ممن يكون عندهم الوقت والاهتمام والجهوزية ليكونوا للمساهمة في العمل الجماعي. وبالتالي فالطلبة لديهم قيود اقل مقارنة بحركات العمال والفلاحين لتنظيم نشاطات مباشرة، وفي تعبئة أقرانهم. حيث يمكن للطلبة استثمار اوقات فراغهم في الاحتجاج، وتجميع مجموعات الاسناد والدعم، تنظيم المظاهرات والاعتصامات، بصورة اسهل من العمال، الذين يواجهون أشكالًا مختلفة من القمع. مع ذلك، فان هذه الجوانب [الايجابية] من الحياة الطلابية، تبقى مادة للخلاف والتفاوض، مادامت الاصلاحات اللبرالية الجديدة والديناميكيات الرأسمالية تفعل فعلها في تحويل الجامعات والمدارس الثانوية.

تاريخياً، كان مجال الحركات الطلابية متنوعا. فبعض الحركات لاحقت التغييرات الموجودة خارج الجامعة أو المدرسة أو الحدود الأكاديمية. فعلى نطاق أوسع، ساهم الكثير من الطلبة، بصورة فردية أو جماعية، في قضايا ثورية مرتبطة ارتباطًا وثيقا بالأحزاب والحركات الشيوعية أو العمالية للإطاحة بالرأسمالية. حيث كان للطلبة وما يزال علاقات مستمرة مع الأحزاب والمنظمات والحركات السياسية اليسارية وبطرق مختلفة. والخبرات التي

اكتسبوها في الحركات والمنظمات الطلابية تعد ذات طابع تكويني، وغالبا ما تكون بمثابة طريق لمشاركتهم في النشاطات السياسة اليسارية. فقد كان هناك عدد من الطلبة، وإن لم يكن بالضرورة الاكثرية، قادة ومثقفين ومنظمين وأعضاء في أحزاب وحركات سياسية يسارية [6]. من المهم ملاحظة أن العلاقات بين الحركات والمنظمات الطلابية من جهة، والحركات السياسية أو الاجتماعية اليسارية تعود بالنفع على الطرفين. فالطلبة المنخرطون بنشاط في الأحزاب والحركات السياسية اليسارية يؤثرون بالطلاب وينظمونهم ويحرضونهم على التحشد، عند حدوث اضطرابات سياسية في الحرم الجامعي. ولهذا، لا غنى عن التنظيمات والأحزاب السياسية بالنسبة للحركات والمنظمات الطلابية.

من جهة اخرى، من الشائع ايضا العثور على أمثلة عن حركات طلابية تناولت أجندتها جوانب محددة فقط بخصوص إصلاحات التعليم من قبيل تخفيضات الميزانية، وزيادة الرسوم الدراسية، والخصخصة، وغيرها، أو حتى إصلاحات على المستويات المؤسسية، لكن دون ان تمثل نقدا للرأسمالية ككل. وتعتبر الحركة الطلابية في كيبيك Quebec (كندا- المحرر) في عام 2012 مثالاً على مثل هذه الحركات. من وجهة نظر ماركسية، يمتلك الطلبة الامكانية كي يصبحوا موضوعات ثورية، وذلك عندما يدمجون نضالاتهم ونشاطهم سياسياً داخل حركات أوسع، حركات من أسفل تناضل للإطاحة بالرأسمالية. على سبيل المثال، مثلت حركة عام 1968 في باريس نقدًا للرأسمالية ككل. إن الحركات الطلابية التي تركز على قضايا خاصة وقائمة بذاتها، سيكون لها بالتالي مجال وإمكانات محدودة، ومن ثم، ستقيد امكانياتهم على القيام بالتحول الثوري.

تتنوع للغاية أسباب تفسير اضطرابات الطلبة الحالية. وذلك لأن الحركات الطلابية تعكس تناقضات الرأسمالية. وكما جادل لينين وتروتسكي، فإن هذه الحركات تعبير عن مظالم بنيوية اكبر موجودة في المجتمعات الرأسمالية؛ فالطلبة "مقياس حساس" [7] للاضطرابات الاجتماعية. إن تحليلا متجذرا في إطار ماركسي للحركات الطلابية، لا يفسرها على أنها حركات منفصلة أو منعزلة بل كجزء من سياق أكبر للنضالات الاجتماعية. يقول باركر (Barker): "ان الحركات الطلابية لا تتطور بمعزل عن الصراعات الاجتماعية الأوسع... قد تمتلك هذه الحركات ديناميكيتها الخاصة، نتيجة للتركيب الاجتماعي الخاص للطلبة، وكذلك نتيجة لحالات انبثاقها. لكنها ليست منيعة ابدا عن ميول التطور الكبيرة، والتي تقدم فيها اصلا مساهمتها الخاصة"[8].

ان تأطير النضالات الطلابية وتحليلها في سياق تناقضات ومظالم المجتمع الرأسمالي، سوف يسمح لنا ان ندرك كيفية ارتباطها بمساحات أخرى من الحياة الاجتماعية. تعد هي الاخرى من مصادر الاضطراب والنضال الاجتماعي، من قبيل العدالة والصحة والبيئة، وغيرها. حيث شهد العقدان الماضيان انبثاق حركات جماهيرية ضد التأثيرات العابرة للحدود للرأسمالية العالمية اللبرالية الجديدة. ان هذه

"الحركات الاجتماعية من اسفل" والتي اندلعت في مواقع جغرافية مختلفة متحدية او مقاومة لجوانب مختلفة من الرأسمالية العالمية، يجب ان لا ينظر لها على انها أحداث منعزلة، بل يجب ان تفهم على انها جزء من "موجة تاريخية" من الحركات، او بعبارة اخرى على انها "حركة معقدة للحركات"[9]. ان الحركات الحالية التي تقاوم إصلاح تعليم الشركات في المدارس الثانوية والجامعات هي جزء من هذه الموجة من الحركات عابرة الحدود.

الماركسية وعلم التربية النقدي للفعل الجماعي

الماركسية فلسفة سياسية نضالية تعددية، متطورة باستمرار. يعاد تنشيطها ودمجها في مجال دراسات الحركة الاجتماعية، كمجموعة نظريات للفاعلية الجماعية والتغيير الاجتماعي، وضعت من أجل الحركات الاجتماعية[10]، كي تكون وثيقة الصلة بنضالات النشطاء، وتساعد الحركات في المضي قدما [11]. في مجال التعليم، حدثت عملية اعادة تنشيط مشابهة، حيث بذلت الجهود مؤخرا في سبيل اعادة توحيد علم التربية النقدي [12](Critical Pedagogy) بجذوره الماركسية[13].

كفلسفة ممارسة، ترتبط الماركسية ارتباطا وثيقا بالفعل الاجتماعي، فمن خلال الاخير يشارك البشر في عملية التحول الذاتي والاجتماعي. فعندما تتشكل المجموعات الاجتماعية، وفي مجرى عملية تشكلها أو تكونها (coming to be)، فإنها ايضا تحوّل نفسها. والبشر، سواء ككائنات فردية او اجتماعية، يطورون " ... انفسهم، مهاراتهم وقدراتهم من خلال عملية تنظيمهم الذاتي والجماعي ذاتها... التغيير الاجتماعي يعني تحويل البشر وعلاقاتهم الاجتماعية ايضا" [14].

بحسب الممارسة الماركسية، وبما ان المعرفة هي نتاج للفعل الجماعي الاجتماعي، فإن الاخير يمكن فهمه على انه تربوي (Pedagogical) بطبيعته. حيث يجب فهم علم التربية (Pedagogy) على انه علم يتجاوز مجرد كونه ذخيرة من المنهجيات والخبرات. بل هو عبارة عن فعل اجتماعي جماعي، لا "يمكّننا من خلق قراءة جماعية للعالم"[15] فقط، ولكنه ايضا عنصر اساسي في عملية تحويل واعادة ابداع المستقبل من خلال تجربة "التكون" [16]coming to be.

يرتكز علم التربية النقدي الماركسي على عملية توحيد النظرية والممارسة. وكما حاجج فريري[17] وهال[18] وآخرون، يعمل البشر ويتصرفون بناء على نظريات، كما ويفكرون في عملهم هذا ذاته، وينخرطون في هذه العملية [الجدلية] باستمرار، بينما يسعون لتنظيم العالم ويكافحون لتغييره. في ملاحظة مماثلة، تذكرنا باولا أولمان بكلمات ماركس وانجلز "يتطور وعينا عبر مشاركتنا النشطة مع الآخرين، مع الطبيعة، ومع الأشياء أو العمليات التي ننتجها. بعبارة أخرى، إنه يتطور من التجربة الحسية للواقع داخل العلاقات الاجتماعية التي نعيش فيها" [19].

يمكّن علم التربية الماركسي النقدي الحركات الاجتماعية، والمنظمات

السياسية، والاشكال المتنوعة من النضالات الاجتماعية، من تطوير وعي نقدي انعكاسي، يربط القضايا التي تواجهها الحركات بالاقتصاد السياسي، وبالفعل من اجل تعطيل وازاحة الرأسمالية[20]. بكلمات اخرى، يوفر علم التربية النقدي المستند على الماركسية، أساساً نظرياً يُمكن الحركات من فهم قوى الاستغلال والاضطهاد الرأسمالي في المجتمع، كما يمكنها من استحضار صورتها المستقبلية، وصورة الحركة التي تتجاوزها، والانطلاق من اللحظة الحالية للعمل وفقا لهذه الرؤية، في سيرورة خلق أنفسهم والحركة من جديد، وفي الانخراط بعملية خلق علاقات اجتماعية جديدة [21].

في سياق الحركات الطلابية، ومن خلال المشاركة في العمل الاجتماعي، يمكن للطلبة ولو لفترة قصيرة تجربة اشكال متنوعة في التعامل مع بعضهم البعض، والتي قد تتحدى بل وتتجاوز مؤقتا العلاقات الاجتماعية الرأسمالية اليومية. ومن خلال التجربة المادية لهذه العلاقات الاجتماعية البديلة وللإمكانيات المتجددة في الارتباط مع الآخرين، يتم تغيير وعي الطلاب. ان هذا يكرر المفهوم المركزي للتطبيق، لكنه يوضح أيضا العلاقة الوثيقة بين علم التربية النقدي والحركات الاجتماعية.

الحركات المعاصرة في سياق الرأسمالية اللبرالية الجديدة وإصلاح التعليم

يفهم التحليل التربوي الماركسي إصلاحات تعليم الشركات على أنها إعادة تنظيم التعليم بواسطة رأس المال عابر الحدود خدمة لمصالح الطبقة الرأسمالية[22]. فمن اجل ترسيخ وتعزيز القيم والأفكار الرأسمالية بواسطة المدارس والجامعات، وحفاظا على سلطة رأس المال على العمل، يعتبر تسليع وخصخصة التعليم جزءا من المشروع الرأسمالي العالمي. حيث شُكلت المدارس والجامعات كفضاءات تعليمية تدرس مبادئ كفاءة السوق والمنافسة و"خيار المستهلك" كي يستوعبها الطلاب والمعلمون. ولهذا يضع التحليل النقدي الماركسي علاقة رأس المال والعمل، والاستغلال والاضطهاد الناتج عنهما، في مركز نقده للرأسمالية اللبرالية الجديدة وخصخصة التعليم [23]. فقد كان لإصلاحات اللبرالية الجديدة للتعليم وقعها على كل من المعلمين والطلاب، سواء من ناحية التدابير العقابية، او إلغاء تمويل التعليم، بما في ذلك الجامعات، او من ناحية والاختبارات الموحدة والمناهج الوطنية الموحدة، والتي تركز على تنمية المهارات والتوظيف، وغيرها.

يكمن النضال ضد إصلاحات التعليم اللبرالية الجديدة في صميم الانتفاضات الطلابية الأخيرة، تلك الاصلاحات التي تعجل عمليات خصخصة التعليم، وتلك التي ركزت على ضمان "رأس مال بشري" في القوى العاملة. وقد نجح العديد من هذه الحركات [الطلابية] الأخيرة في صياغة أجندات سياسية مقنعة، وبالتالي في الوصول إلى الدعم الشعبي. ومن بين تلك الحركات الطلابية التي جمعت التعبئة الجماهيرية والدعم العام، تلك التي حدثت على سبيل المثال لا الحصر في بلدان مثل: المملكة المتحدة وكندا وهولندا وأستراليا والمكسيك وتشيلي وكولومبيا وجنوب

إفريقيا. على سبيل المثال، إحدى اكثر الحركات شهرة في الآونة الأخيرة هي الحركة الطلابية التشيلية عام 2011، وهي الحركة الاكبر في تشيلي منذ عام 1973. في ذلك الوقت، كان لدى شيلي أحد أغلى أنظمة التعليم ما بعد الثانوي في العالم[24]. هذه الحركة طالبت بالتعليم المجاني لجميع التشيليين، كما طالبت بوضع حد للربح في التعليم. في أوائل عام 2015، أصدرت إدارة باتشيليت[25] (Bachelet) في تشيلي تشريعات ستلغي الرسوم الدراسية والتسجيل الانتقائي وجني الأرباح في جميع المؤسسات التعليمية الابتدائية والثانوية التي تتلقى المال العام [26]. وقد لعب العديد من الطلاب دورا مهما في ظهور هذه الحركة، بعضهم كان منظما سياسيا، لكن كثيرين كانوا غير منظمين. من بين العديد من المنظمات الطلابية الموجودة في الجامعات التشيلية، يواصل اتحاد طلاب جامعة تشيلي FECH قيادة الحركة [27] من أجل تعليم عام مجاني يخدم المصلحة العامة، وهو ما لم تحقق بعد بالقانون الأخير.

من المهم الإشارة إلى أن العديد من المنظمات والفصائل الطلابية داخل الحركات الطلابية تحافظ على روابط مستمرة مع الحركات الثورية، والمنظمات السياسية اليسارية الجذرية، والأحزاب الشيوعية في بلادهم. على سبيل المثال لا الحصر: اتحاد طلاب جامعة تشيلي FECH، الطاولة الطلابية المفتوحة في كولومبيا MANE، ائتلاف رابطة وحدة الطلبة في كيبيك/كنداCLASSE . وكما ذكرنا في بداية الموضوع، تتميز المنظمات الطلابية، وأكثر منها الحركات الطلابية، بأنها غير متجانسة ومتنوعة، حيث يتجمع الطلاب من مختلف الميول والالتزامات والمعتقدات السياسية والتنظيمية والاجتماعية، كي تعبئ للتحرك بين الحركات والمنظمات التي تتعاطف علانية مع اليسار أو السياسة الثورية.

من ناحية أخرى، لا تستخدم العديد من الحركات الطلابية اللغة الماركسية، كما انها لا تعبر عن نقد للرأسمالية في حد ذاتها، والمساهمون في هذه الحركات قد لا يُعرفون بالضرورة على أنهم ماركسيون أو شيوعيون. مع ذلك، وكما يُحدد باركر (Barker) احد المتخصصين في الحركات الاجتماعية "باختصار، هناك (نظام) يتم توجيه الكثير من احتجاجات اليوم ضده، حتى لو لم يتم التعبير عنها بصورة حصرية او على الاطلاق بلغة)الطبقة)"[28]. بمعنى آخر، يكمن في المقاربة الماركسية للحركات الطلابية وللحركات الاجتماعية اهتمام بالتساؤل، بفهم وبتوضيح كيفية ترابط كل الحركات معا، وما هي الإمكانات والمساعي التي يجب أن تكتشفها وتجمعها.

تاريخيا، كانت الماركسية تجهد في إدامة اللقاءات والحوارات مع مختلف الحركات بين الطبقية (cross-class movements)، من بينها الحركات النسائية، وحركات [المجتمعات] الأصلية، وحركات السود واللاتين. ومع استمرار الماركسية في الانخراط بالحركات الاجتماعية المختلفة، ومع محاولاتها لإقامة صلة قوية بينها وبين الحركات العمالية الطبقية، من المهم التحري واستكشاف عما هو مشترك بين النضالات الاجتماعية والحركات

الطلابية وكيف يمكنها اكتساب قوة من بعضها البعض، وكيف يمكنها ادراك امكانياتهم في أن يصبحوا ثوريين معا.

في الختام، وكما أوضحنا، ليس للطلاب القدرة على قلب [سلطة] رأس المال لوحدهم. ومع ذلك، فمن خلال عملية التنظيم، يحوّل الطلاب أنفسهم ويغيرون واقعهم المادي. وهذا يعني ان الطلبة كمجموعة اجتماعية، يمكنهم الوصول الى وعي نقدي بانعدام المساواة التعليمية والاجتماعية داخل الرأسمالية. في هذه العملية توجد إمكانية وضرورة استمرار الحوارات واللقاءات بين الحركات العمالية والأحزاب الشيوعية والمنظمات الماركسية مع الحركات الطلابية لتطوير مسارات التحول الفردي والاجتماعي التي يمكن تحقيقها من خلال الممارسة الجماعية للتحول الشيوعي.

المصادر والهوامش

* نشرت المادة بعنوان Marxism and Student Movements في كتاب (موسوعة الفلسفة والنظرية التعلمية):
Peters, Michael A. (eds) Encyclopedia of Educational Philosophy and Theory; 2015; (Springer, Singapore; pp: (1362-1366).

** ساندرا ديلغادو (Sandra X. Delgado) وميشيل گيترو (Michelle Gautreaux): كلاهما من جامعة كولومبيا البريطانية، في فانكوفر، كندا. وكلاهما ماجستير علوم اقتصادية من جامعة كولمبيا الوطنية.

*** كل ما سيرد بين قوسين [ ] هو من المترجم.

(1) Look in:

- Altbach, P. G. (1966). Students and politics. Comparative Education Review, 10(2), 175. doi:10.1086/445214.

- Altbach, P. G. (Ed.). (1989). Student political activism: An international reference handbook. Westport: Greenwood

- Barker, C. (2008b). Some reflections on student movements of the 1960s and early 1970s. Revista Crítica de Ciências Sociais, 81, 43–91.

- Boren, M. E. (2001). Student resistance: A history of the unruly subject. New York: Routledge.

- DeGroot, G. J. (1998). Student protest: The sixties and after. New York: Addison Wesley Longman.

- Lipset, S. M., & Altbach, P. G. (1966). Student politics and higher education in the United States. Comparative Education Review, 10(2), 320. doi:10.1086/ 445224.

- Lipset, S. M., & Altbach, P. G. (Eds.). (1969). Student in revolt. Boston: Houghton Mifflin Company.

(2) Barker, C. (2008b).

(3) Look in:

- Barker, C. (2008b).

- Spector, A. J. (2013). SDS, the 1960s, and education for revolution. Cultural Logic: Marxist Theory & Practice, 240–277.

(4) Gill, J., & DeFronzo, J. (2009). A aomparative framework for the analysis of international student movements. Social Movement Studies, 8(3), 203–224. http://doi.org/10.1080/14742830903024309.

(5) Student Movement (n.d.). In Marxist Internet Archive. Retrieved from [Accessed 20 October 2015]:
https://www.marxists.org/glossary/terms/s/t.htm.

(6) Look in:
- Boren, M. E. (2001).
- Altbach, P. G. (1989).
- Lipset cited in Altbach (1966)

(7) Trotsky, L. (1910). The intelligentsia and socialism. London: New Park. Retrieved from: https://www.marxists.org/archive/trotsky/1910/xx/intell.htm

(8) Barker, C. (2008b), p:46

(9) Cox, L., & Nilsen, A. (2014). We make our own history: Marxism and social movements in the twilight of neoliberalism. London: Pluto Press, p:2-3.

(10) Nilsen, A. (2009). 'The authors and the actors of their own drama': Towards a Marxist theory of social movements. Capital & Class, 33, 109–139. doi:10.1177/030981680903300 30501.

(11) Look in:
- Barker, C., Cox, L., Krinsky, J., & Nilsen, A. (Eds.). (2013). Marxism and social movements. Leiden: Brill.
- Nilsen, A. (2009).
- Cox, L., & Nilsen, A. (2014).

Among others.

(12) Critical Pedagogy - علم أصول التدريس النقدي: فلسفة للتعليم وحركة اجتماعية، طورت وطبقت مفاهيم من النظرية النقدية والتقاليد ذات الصلة في مجال التعليم ودراسة الثقافة. تنطلق من رفض فكرة حيادية المعرفة والتعليم سياسيا. وتجادل بأن التدريس/ التعليم هو عمل سياسي اصلا، سواء ادرك المعلم ذلك ام لا. وبالتالي يؤكد هذا العلم على ان قضايا الديمقراطية والعدالة الاجتماعية، لا تنفصل عن قضايا التعليم والتعلم. ان الهدف من التعليم وعلم اصول التدريس النقدي هو التحرر من الاضطهاد من خلال ايقاظ الوعي النقدي. أسس علم أصول التدريس النقدي الفيلسوف والمعلم البرازيلي (باولو فريري)، الذي روج لها من خلال كتابه "بيداغوجيا المضطهدين" الصادر عام 1968 [المترجم].

(13) Look in:
- Malott, C. S., & Ford, D. R. (2015). Marx, capital, and education: Towards a critical pedagogy of becoming. New York: Peter Lang.
- McLaren, P. (2000). Che Guevara, Paulo Freire, and the pedagogy of revolution. Lanham: Rowman & Littlefield.

(14) Barker, C. (2008a). Some thoughts on Marxism and social movements. Retrieved from: https://sites.google.com/site/colinbarkersite/

(15) Look in:
- Motta, S. C., & Cole, M. (Eds.). (2013). Education and social change in Latin America. New York/London: Palgrave Macmillan.
- Motta, S. C., & Cole, M. (2014). Constructing twenty-first century socialism in Latin America: The role of radical education. New York: Palgrave Macmillan.

(16) Malott, C. S., & Ford, D. R. (2015).
(17) Freire, P. (1970). Pedagogy of the oppressed. New York: Continuum.
(18) Hall, B. (1978). Continuity in adult education and political struggle. Convergence: An international Journal of Adult Education., 11(1), 8–15.
(19) Allman, P. (2001). Critical education against global capitalism: Karl Marx and revolutionary critical education. Greenwood Publishing Group, p:165. Retrieved from https://books.google.ca/books?id=tWaYHY6dUFUC&pg
(20) Choudry, A. (2015). Learning activism. The intellectual life of contemporary social movements. North York: University of Toronto Press.
(21) Look in:
- Allman, P. (2007). On Marx. An introduction to the revolutionary intellect of Karl Marx. Rottherdam: Sense Publisher.
- Freire, P. (1970).
- Malott, C. S., & Ford, D. R. (2015).
(22) Look in:
- Hill, D. (2006). Class, neoliberal global capital, education and resistance. Social Change, 36(3), 1–15.
- Ross, E. W., & Gibson, R. (Eds.). (2007). Neoliberalism and education reform. Cresskill: Hampton Press.
(23) Malott, C. S., & Ford, D. R. (2015).
(24) Larrabure, M., & Torchia, C. (2011, September 6). The struggle against neoliberalism in Chile and Latin America: The role of Chile's student movement. In Global Research [Web Log]. Retrieved 4 Nov 2015 from http://www.globalresearch.ca/the-struggle-against-neoliberalism-in-chile-and-latinamerica-the-role-of-chile-s-student-movement/26406

(25) فيرونيكا ميشيل باتشيليت Verónica Michelle Bachelet، سياسية تشيلية مواليد 1951، عضو الحزب الاشتراكي التشيلي، رئيسة تشيلي لفترتين رناسيتين 2006 - 2010 ومرة اخرى 2014 - 2018 [المترجم].
(26) Achtenburg, E. (2015, March 3). Chilean students struggle to deepen educational reforms. In NACLA.[Web log]. Retrieved 4 Nov 2015 from https://nacla.org/blog/2015/03/03/chilean-students-struggledeepen- educational-reform
(27) Achtenburg, E. (2015)
(28) Barker et al. (2013) state, p. 2

أدب
و
فن

انتفاضة اليقظة

حسب الله يحيى

من اكثر الأمور إثارة للفخر والاعتزاز والانتباه في انتفاضة تشرين، كونها انتفاضة شعب يقظ، بات يعرف ما له وما عليه.

يعرف ان (17) عاماً قد مرّت على العراق بكثير من المرارة، مارستها مجموعة ممَن تسلم السلطة.. لا يجيد سوى ابتزاز الناس عقلياً ومالياً.

فباسم المقدس راحوا يحكمون الناس بقوة المال والسلاح، وهما قوتان ليس بوسعهما سلب ارادة المعرفة والمنطق من عقول الناس. كما ان هذه العقول لم تعد مجرد (اسفنجة) تستقبل (بحفاوة) ما يقوله دعاة المقدس، هؤلاء الذين ما كانوا يوماً يملكون القدرة على التعامل مع أبسط الأشياء بقدسية نظافة العقل والروح والإحساس والعمل الصادق والنبيل.

لقد كبر الجيل الذي ارادوا تربيته على خطاب الاوهام والكذب والمخادعة والاستغلال البشع الذي مارسته السلطة ضدهم باسم المقدس.

لقد ادرك هذا الجيل انه لا ينتمي الى سلطة دكتاتورية باتت في عداد الماضي الذي افل نجمه، مثلما لا ينتمي الى سلطة تحكمه بالولاءات الطائفية والمناطقية والعشائرية والولائية والمذهبية.

انه جيل يقظ ادرك كل ما يدور حوله بشكل واضح وصورة مكبرة. هذه الثقة التي باتت تواجه حقوقه ومطاليبه المشروعة بالحديد والنار. واخذت تلصق به تهما شتى. وتعمل على وأد ثورته النقية والشجاعة، وتمارس اساليب شتى لتشويه صورة المنتفضين البواسل.

ولأن الانتفاضة، اخذت مسارها الواسع، ليس على صعيد الشباب الثائر حسب - بوصفه صاحب الفتيل الاول والاشعاع البكر - وانما نبهت قطاعات شعبية واسعة، وفي جميع المدن العراقية الى حقيقة الاستغلال والبطش والتضليل، الذي مارسته هذه الفئة بهدف الابقاء على مصالحها ومكاسبها، من دون حساب ولا عقاب، ولا حتى نظرات ثاقبة تتوجه الى كشف حقيقة ما تمارسه من أدوار رهيبة الحقت بالعراق والعراقيين الشيء الكثير من الدمار والخراب في الميادين كافة.

ولأن قدرة المنتفضين باتت حقيقة فاعلة في الشارع العراقي، وعلى نطاق واسع، فقد اخذت هذه الفئة تغازل المنتفضين، وتدعي لنفسها السمو والرفعة والنزاهة.

وانها تقف الى جانبهم تارة، وتدينهم بالعمالة والفوضى وشتى الاوصاف التي تسيء الى سمعتهم وقيمهم النبيلة

وشجاعتهم الفاعلة. وذلك بهدف احتوائهم عن طريق الوعود الكاذبة والاغراءات المادية العاجلة وتوفير عمل مؤقت لهم، او مواجهتهم بالقتل والاغتيال والاختطاف والتهجير.

إلا ان القوى الشبابية التي تقود الانتفاضة العراقية، قوى تعرف ما تريد. وان هذه الارادة لا يمكن ان تتحقق بسهولة وانما تحتاج الى المطاولة السلمية، التي تؤرق فئة السلطويين، الذين باتت (قدسيتهم) التي اشتغلوا عليها على مدى (17) عاماً.. مكشوفة. ولم تعد تنطلي على احد منهم. بل اصبحت تفضحهم وتكشف عن نواياهم الخبيثة واساليبهم الدنيئة.

ان ادبيات الانتفاضة، اصبحت واضحة ومدركة من جميع المنتفضين السلميين، الذين تحولوا الى قوة عظمى، لا يمكن التغافل عنها، او تجاوزها او ممارسة اساليب القمع ضدها.

الانتفاضة مستمرة، ما دامت هناك قوى تواصل نهجها السلبي ازاء شعبنا باستغلالها ثروات البلاد، باسم المقدس والاستمرار بالاعمال التعسفية.

المنتفضون هم اصحاب المواقف الشجاعة والرؤى الوطنية التقدمية المعطاءة، سيواصلون طريقهم حتى تحقيق اهدافهم واستعادة وطنهم المضاع.

المشهد
انتفاضة تشرين/ أكتوبر
تحليل سيكوبولتك

أ.د. قاسم حسين صالح

توثيق موجز للتاريخ والأجيال

في الثلاثاء، الأول من تشرين الأول/ اكتوبر 2019 انطلقت في المحافظات الوسطى والجنوبية تظاهرات كانت الغالبية المطلقة فيها، شبابا دون سن الثلاثين، فاجأت السلطة والشعب والمحللين السياسيين الذين كانوا على يقين بأن الإحباط اوصل العراقيين الى اليأس والعجز عن اصلاح الحال. وأكدت الأحداث ان هذا الحراك كان عفويا؛ إذ لم يُعلن أيّ حزب أو زعيم سياسي أو ديني دعمه له. وعدّ سابقةً ما حدثت في تاريخ العراق السياسي.. من حيث زخمه وحجمه وما احدثه من رعب في السلطة، اضطرها الى استخدام القوة المفرطة التي ادانها الرأي العام العالمي. وطلبت "هيومن رايتس" من الحكومة العراقية تأديب من قام بها وان كان قائدا، فيما دعت منظمة العفو الدولية بغداد في بيان إلى "أمر قوات الأمن على الفور بالتوقّف عن استخدام القوّة، بما في ذلك القوة المفرطة المميتة".

وامتدت التظاهرات التي تطالب برحيل الفاسدين وتأمين فرص عمل للشباب الى المدن الجنوبية، ما استدعى الحكومة الى اعلان الانذار جيم، وفرض حظر للتجول في عدد من المدن، وإغلاق الطرق المؤدية من الشمال والشمال الشرقي إلى العاصمة، وإرسال تعزيزات إلى شرق بغداد، وقيام القوى الامنية وقوات مكافحة الشغب باستخدام الماء الحار والغاز المسيل للدموع والرصاص الحي.

وكان استخدام السلطة، القمع المفرط ضد المتظاهرين، ونزول قوات سوات والمليشيات ووجود القناصين على سطوح العمارات، قد ادى الى القضاء على التظاهرات ورفع حظر التجوال، وقيام رئيس مجلس الوزراء السيد عادل عبد المهدي بالقاء خطاب

موجه للشعب مساء الأربعاء (التاسع من تشرين الاول)، كان في مضمونه خلطة من تناقضات في طبخة لا تؤكل، أكثرها مرارة انه اعلن الحداد على شهداء قتل معظمهم برصاص قوات هو قائدها، وتكريمه لقوات أمنية بينهم قتلة أيضا!

وفي خطبة الجمعة (11 تشرين اول)، حمّلت المرجعية الدينية على لسان الشيخ عبد المهدي الكربلائي، الحكومة العراقية مسؤولية اراقة الدماء، وامهلتها مدة اسبوعين لكشف الجناة ومحاسبتهم. ومع ان خطابها هذا يعد الأول من حيث تضمينه تهديدا للحكومة وأحزاب السلطة، فان الرأي العام العراقي، باستطلاع اجريناه في حينه، توزع بين وعود على المرجعية ان تحققها، وبين من وصف الخطاب بانه تخدير و(أبر مورفين)، او محاولة لإنقاذ موقعها بين الناس، وبين من رأى ان دعوتها هذه لن تجد استجابة عملية من الذين يعنيهم الأمر.. ولم يتحقق ما وعدت به المرجعية، وهددت ضمنا، لغاية كتابة هذا التوثيق (نهاية آب 2020)، بل استمر قتل الناشطين في حملات منظمة.. ليتجاوز عددهم سبعمئة شهيد، واكثر من عشرين الف جريح في اقل التقديرات. حمل المتظاهرون صورهم في ساحات التحرير والحبوبي، وفي مواكبهم الحسينية التي رفعت في (محرّم 2020) شعار (الحسين ثورة) في تحد جديد واصرار على تحقيق شعارهم في (تشرين/ اكتوبر 2019).. (نريد وطن).. وكما لدينا يقين بأن الشمس تشرق غدا.. فأن يقيننا في شباب انتفاضة تشرين انهم سيستعيدون وطنهم العراق غدا.

مؤشرات عن تظاهرات تشرين

ما حصل في الفاتح من اكتوبر/ تشرين اول 2019 يعد الأجرأ والأخطر وغير المتوقع في تاريخ العراق السياسي، للخصائص الآتية:

• ان الغالبية المطلقة من المتظاهرين هم أشبال وشباب ولدوا ونشأوا في ثلاث حروب خارجية كارثية: الحرب العراقية الايرانية وحرب الكويت وحرب امريكا، وحربين داخلية واحدة طائفية (2006 - 2008) واخرى ضد داعش (2014)، وحصار لثلاثة عشر عاما، وانتقالهم فجأة في (2003 و2004) الى نقيضها حيث الحرية والانفتاح على العالم عبر وسائل التواصل الاجتماعي، ومعايشتهم لما فعله الفيسبوك في الربيع العربي الذي كان له الدور البارز في اسقاط حكّام عرب طغاة.. نكبوا بعدها بخيبات وقسوة فقر وبطالة.. جعلت داخلهم السيكولوجي اشبه بقدر ضغط على نار يغلي بالتناقضات.. لا بد له أن ينفجر.. فانفجر!

• ان التظاهرات حصلت في المحافظات الوسطى والجنوبية، ذات الأغلبية الشيعية.

• فاجأ حجم التظاهرات وزخمها وغضبها وحقد جماهيرها، قادة احزاب السلطة والحكومة وشعروا بخوف حقيقي، وانهم اهينوا اعتباريا.

• كانت المطالب المعلنة للمتظاهرين: توفير فرص عمل للشباب وحملة الشهادات العليا، وتأمين الخدمات وتحسين الوضع الاقتصادي، فيما كانت في حقيقتها السيكولوجية تعبيرا عن انتقام استهدف أحزاب الإسلام السياسي الشيعي تحديدا،

عبروا عنه باحراقهم مقرات هذه الأحزاب.

• استخدمت الحكومة قواتها الأمنية بأصنافها المتعددة، القوة المفرطة بما فيها الرصاص الحي.

• سقوط (110) شهداء واكثر من ستة آلاف جريح بحسب الاحصاءات الرسمية، في سابقة لم تحصل في تاريخ العراق. فيما اعلنت لاحقا اللجنة الوزارية المكلفة بالتحقيق ان عدد القتلى 157 بواقع 149 مدنيا وثمانية عسكريين.. تبعهم في 25 تشرين/ اكتوبر تسعون شهيدا، وأكثر من الف جريح في اقل من شهر!

وتتحدد أهم الأسباب السيكوسياسية التي اوصلت الحال الى انتفاضة تشرين بالآتي:

• ان كل الأشخاص الذين كانوا في الخارج زمن النظام الدكتاتوري، واستلموا السلطة (سلّمت لهم) بعد (2003)، عدّوا أنفسهم (ضحية).. ومن سيكولوجيا الضحية هذه نشأ لديهم الشعور بـ(الأحقية) في الاستفراد بالسلطة والثروة، معتبرين ملايين العراقيين في الداخل اما موالين لنظام الطاغية أو خانعين.. وأنهم، بنظرهم، لا مشروعية لهم بحقوق المواطنة.

• شعورهم بـ(الأحقية) دفعهم أن يعدّوا العراق ملكا لهم.. فتقاسموه واستفردوا بالثروة وعاشوا برفاهية على حساب سبعة ملايين اوصلوهم تحت خط الفقر.. واذلوهم.. مع ان عائدات النفط بلغت ترليون دولار (الف مليار دولار)! تكفي لبناء دولة خرجت من حرب كارثية.

• نجم عن هذه التفاعلات السيكولوجية (تضخم أنا) و(غطرسة) اسهمت في تحويل الحاكم السياسي الى مستبد.. ومنها تولدت لدى حكّام السلطة وقادة احزاب الاسلام السياسي قناعة بأنهم استعبدوا الناس روحيا، وانهم في حوارهم الداخلي يقولون لهم: تتظاهرون ضدنا، ترفضوننا، تشتموننا، تتهموننا بأننا نتحدث بالعدل ونحكمكم بالظلم، ونتباهى بالأمانة ونمارس الخيانة.. فانكم ستبقون تنتخبوننا لأننا سادتكم وقدركم المحتوم، ولا ارادة لكم حتى لو سقناكم الى جهنم، ولا تملكون من وسائل الهرب سوى انكم تغادرون حزبنا هذا الى حزبنا الآخر!

• ان استفراد حكّام الخضراء بالثروة، وتقاسم مؤسسات الدولة بين احزاب الاسلام السياسي ورؤساء الكتل والفصائل المسلحة، وتحويلهم العراق الى بلد طارد للابداع والكفاءات، نجم عنه شعور الملايين بالحرمان من حقهم المشروع بالوطن.. ووصولهم الى الانفجار بحتمية سيكولوجية – اجتماعية ناجمة عن فجوة فكرية وهوة عميقة بين جيل الحكّام وجيل الشباب.. بين عقل سياسي مأزوم، منغلق، مسكون بالماضي يعد تحشيد الشباب بمسيرات لطم ونواح وضرب الظهر بالزنجيل.. انجازا يتباهون به! وبين عقل شبابي منفتح، متطلع الى المستقبل.. وانهما بهذا الحال.. جبلان لا يلتقيان!

اعادة احياء الشخصية العراقية

ما حصل ان وثبة تشرين فاجأت محللين سياسيين ومثقفين اشاعوا ثقافة التيئيس، كانوا على يقين بان الاحباط قد اوصل العراقيين الى حالة العجز التام. وكان بينهم من راهن على انها (هبّة) وتنتهي، لأن الشخصية

العراقية، على رأي الراحل علي الوردي، أشبه بنبات (الحلفة) اليابس.. يشتعل بسرعة ويخفت بسرعة. وفاجأت ايضا علماء النفس والاجتماع بما يدهشهم.. بل أنها خطّأت نظرية في علم النفس تقول: اذا اصيب الانسان بالاحباط وحاول.. وحاول ولم ينجح، فأن تكرار حالات الخذلان والخيبات توصله الى العجز والاستسلام.. فأطاح بها جميعها شباب ادهشوا العرب والعالم!.. واسقطوها في الخامس والعشرين بيوم جمعة (استعادة وطن).. متحدين الموت بصدور عارية وملاحم اسطورية.

ثورة التك تك

شهدت تظاهرات تشرين، حالة غير مسبوقة في تاريخ العراق السياسي، اطلق عليها العراقيون (ثورة التكتك). والتكتك: عربة بثلاث عجلات ظهرت في بغداد اولا بعد 2003 بسبب اغلاق شارع الرشيد (اقدم واجمل شارع في العاصمة بغداد)، وظهور فئة من شباب مستلبين مسحوقين مطحونين، وجدوا فيها وسيلة للحصول على قوتهم اليومي.

وحدث أن القوات الامنية اطلقت الرصاص الحي على المتظاهرين، فانتخى اصحاب التكتك ونقلوا المصابين مجانا الى المستشفيات، واخترقوا الشوارع الضيقة للوصول الى خط المواجهة مع قوات القمع الحكومية، وقاموا بدور بطولي في اسناد المتظاهرين، وتعرّض عدد منهم الى الاستشهاد والاصابات واحتراق عرباتهم.. اليكم بعض المواقف:

• قامت فتاة عراقية بنزع قلادتها الذهبية واعطتها لصاحب تكتك، احترقت عربته وهي تبكي.

• تبرع المتظاهرون، بوقت وجيز، لصاحب تكتك احترقت عربته بما يعدل اربعة اضعاف سعرها.

• وصفت صحفية ما شاهدته: (وجدت الفقير التقي النقي المكتفي بقناعته لحب الوطن فاض كرمه بعمله المجاني لانقاذ المصابين، وجاد بنفسه من اجل حياة الغير).

• فتيات اخذن يهزجن بساحة التحرير: (لو صاحب تكتك لوما اتزوج!).

وبها صار اصحاب التكتك (ايقونة الشخصية العراقية في تشرين)، وأن (الذين جاءوا بالهمرات سنهزمهم بالتكتك).. وقد تشهد الأيام نصب هيكل تذكاري لهم بساحة التحرير، كنّا دعونا اليه، او فوق المطعم التركي.. ايقونة ملجأ ثوار تشرين.. وكنّا كتبنا اصبوحة (سيأتي يوم تكون فيه اجمل زفة عرس.. بـ(التكتك)، من تفعلها لها منّي.. محبس ذهب).. وقد فعلتها جميلة رائعة في ساحة التحرير وأخرى في بابل.

اثر انتفاضة تشرين في الأدب والفن

من بين اروع ما احدثته انتفاضة تشرين انها انزلت الأدب والفن الى الساحات والشوارع واشاعته بين جماهير ما كانت معنية بهما.

كنت اخطو في شارع السعدون نحو ساحة التحرير لأكتب، من واقع الحدث، تحليلا موثقا ميدانيا لما يجري. وصلت نفق التحرير الذي كان قبل سنة ممرا

وسخا بجدران كئيبة.. دهشت لحظة رأيته. كان اشبه بمعرض فني.. تمتدُّ على جانبيه جداريات ورسومات ومخطوطات وصور "الغرافيتي"، تعكس مواهب المتظاهرين الفنية بطريقة احتجاجٍ راقية. لوحات جميلة شكلا ومضمونا، رسمها شباب وشابات افترشوا الأرض، وابدعوا برسم مشاهد من حياة العراقيين، ولافتات دانت بسخرية لاذعة بينها لافتة كتب عليها (انتقلت الى رحمة الله الطائفية..)، ورسوم كاريكاتير تسخر من قادة سياسيين، فيما وضعت تحت نصب الحرية برموزه الأربعة عشر ونقوشه السومرية والبابلية، منصةٌ تحمل لافتةً بارزةً بعنوان "ثوار الجيل الجديد".. وغير بعيد عنها كانت هناك (سينما الثورة) و(مسرح التحرير) انشأتها المجاميع الفنية، مصحوبة بجلسات وندوات نقاشية.. وأخرى تحمل لمشاهدها رسالة أنك امام جيل جديد على درجة عالية من الثقافة.

ومن الصورة الى الصوت.. كان الطلاب يرددون (هايه شبابك يا وطن هايه، ضحت ابدمها ورفعت الرايه)، فتردّ الطالبات (هايه بناتك يا وطن هايه، ضحت ابدمها ورفعت الرايه)، فيما جموع نسوية كانت ترفع الاعلام العراقية وتردد: (ياهو الكال صوتچ عوره، صوتچ مفتاح الثورة). وخرجت فتيات في النجف الى ساحات التظاهرات بدون عباءات متحديات التقاليد الاجتماعية ومعهن اباؤهن، وهتفت متظاهرة بغدادية وخلفها تردد جموع المتظاهرين تحت نصب الحرية: (من زاخو لحدود البصرة، للتغيير نفجر ثورة).. لتؤكد جميعها ان المرأة كانت ايقونة انتفاضة تشرين التي وصفتها احزاب الاسلام السياسي بأنها عورة. وبالمناسبة، كنت ترأست وفدا من اساتذة جامعة بغداد، قابلنا اعضاء مجلس الحكم للمطالبة بمساواة اساتذة الجامعات العراقية باقرانهم في دول الخليج. والتقينا الدكتور ابراهيم الجعفري (2003) في داره بشارع المنصور، وحين تقدمنا لمصافحته.. لم يصافح استاذات بروفيسورات وأمهات.. بل وضع يده على صدره!.. وصار رئيس وزراء.. العراق!

كانت تلك الاهازيج والهتافات قد ايقظت شعور الانتماء للوطن بطريقة ابلغ من ابلغ مقالات اصحاب الفكر التي لا يقرؤها سوى النخبة، ولا تصل الى هذه الجموع البسيطة، صاحبة الشأن في التغيير. وكان شعار (اريد وطن) قد أزعج واغاظ الفاسدين والمحاصصين، لأنه نبّه الملايين الى ان الوطن (منهوب) وأن الساعة قد حانت لاستعادته، واثار تساؤلات لدى من قرأه: (ليش الوطن وين؟).. ما يعني ان ملايين الشباب عانوا عبر (17) سنة من عمرهم.. سيكولوجيا الشعور بالاغتراب، واقسى واوجع حالاته حين تكون غريبا في وطن، يمتلك حضارة وثروات تكفي لتكون من اسعد خلق الله.

إحياء قيم عراقية نبيلة

وكنت احرص على ان اوثق ما حصل. ليس على وفق ما ارى أنا، بل ما يعيشه اصحاب الشأن: المتظاهرون. فبعد ان انهيت محاضرتي على جمهور المتظاهرين في ساحة التحرير.. ساعدني اصحاب خيمة جواد سليم والصديقان المغيبان (توفيق التميمي،

ومازن لطيف) على توزيع استبانة، تطلب تعداد الصفات التي وجدوها في جماهير الساحات، نوجزها بالآتي:

الغيرة، الشجاعة، الاستعداد العالي للتضحية، التكاتف الملحمي، الثقة العالية بالنفس، التكافل، المروءة، الطيبة، روح التعاون، نصرة المظلوم، اللعب مع الموت والاستهانة به،حب الحياة، الخوّة الحلوة، كرم بلا حدود، اعادة الصورة الحقيقية للعراقيين، "احبك يا وطني واحب ريحة ترابك"، استرجاع الهوية العراقية وتجاوز الهويات الفرعية، بلاغة العبارة والاختصار في التعبير (اقالة رئيس الوزراء واستبداله بآخر عبارة عن تبديل راس الباتري.. احنه طلابتنه بالمحرّك - لافتة)، التحرر من الاسترقاق الديني، تحطيم صورة المقدس البشري، الحس الوطني الجمعي لجميع الاعمار وحسن المعاشرة، الايثار، التضحية بالروح من اجل الحقوق، النظافة الاخلاقية، اذ لم تحصل حالة تحرش، كما حصلت بساحات تحرير في عواصم عربية اخرى، قتل الطائفية.. "كان الشباب ينامون ببطانية واحدة ولا يعرف اي منهم من اي مذهب او عرق اودين"، العناد، اصرار المتظاهر على العودة لساحة التحرير بعد معالجته بالمستشفى، وحدة الاهداف بعيدا عن دين مذهب عرق عشيرة، استعداد نفسي لمعاناة من اجل قضية وطن.. والتحرر من عقدة الخوف من السلطة الحاكمة.

وتوثيقا للغيرة العراقية والكرم، ودليلا على حب الناس للمتظاهرين ونقمة الشعب على الحكّام الفاسدين، شهدت ساحة التحرير: (تريلة ببسي واخرى ماء شرب، وبالة بطانيات، وامهات يوزعن لفات وخبز العباس، وشيش كص عملاق، وفتيات اتين بالتنور الى ساحة التحرير يخبزن للمتظاهرين، وقزانات تمن باجله برياني وفاصوليا وقيمة وكبه مدعبله وشوربه.. وشاب متظاهر يركع امام فتاة متظاهرة، لا يعرفها مقدما لها حلقة خطوبة)، في مشاهد تسيل لها دموع تمتزج فيها انفعالات الفرح والألم وحب العراق!

المعالجات

لا يمكن للتظاهرات ان تستمر والحصيلة شهداء ووعود دون تنفيذ. وان الحلول ممكنة اذا صدقت النوايا، نوجزها في الآتي:

الآنية:

• تأمين انتخابات مبكرة في (2021) تكون باشراف الأمم المتحدة والاتحاد الأوربي ومنظمات حقوق الانسان، وباشراف شركات عالمية متخصصة.

• تشكيل محكمة متخصصة لمحاسبة المتسببين والمقصرين في اغتيال المتظاهرين والناشطين.

• حصر السلاح بيد الدولة، وتحويل كل الاسلحة لدى الفصائل المسلحة الى مستودعات الجيش.

• تشكيل محكمة من قضاة مستقلين لمحاكمة الفاسدين واعادة الاموال المسروقة من خزينة الشعب.

• الغاء جميع الامتيازات ولجميع المناصب، والغاء رواتب رفحاء وتقاعد النواب.

المستقبلية:

• وضع سقف زمني لإصدار قانون للاحزاب لا يسمح بإنشاء احزاب على اسس دينية.

• الكشف عن مجالات انفاق الميزانية السنوية بشكل واضح وشفاف.

• الغاء جميع القوانين التي صدرت تحت سلطة بريمر ومنها قرارات الاقصاء والاجتثاث والمواد الخاصة بالإرهاب ذات الصفة الطائفية، واحالة القضايا ذات الصلة لنصوص القانون الجنائي العراقي.

• اعادة تشكيل مجلس الخدمة على وفق شروط صارمة يأخذ على عاتقه توفير فرص العمل بقانون عام مجرد وقواعد مهنية.

• حماية المنتج الوطني واعادة فتح وتأهيل وتشغيل جميع المصانع المغلقة، واعتماد اسلوب الاقتصاد المختلط بما يحقق العدالة الاجتماعية.

• اصدار قانون عفو عام واطلاق سراح جميع سجناء الرأي.

• تخصيص حصة من النفط لكل مواطن عراقي، واصدار قانون وطني للطاقة والموارد النفطية.

• اعادة الاستقلالية للبنك المركزي العراقي وجميع المؤسسات الخاصة بعيدا عن السلطة التنفيذية.

• يحدد لكل مليون عراقي نائب واحد، ولكل 500 الف عراقي عضو مجلس محافظة واحد، ويبقى راتبهما كما هو قبل الانتخاب مع اضافة بسيطة يحددها القانون وتلغى حال انتهاء دورته الانتخابية، والغاء جميع الامتيازات الحالية، وتحدد الحماية بشخصين من قبل الاجهزة الامنية العراقية.

• اعادة النظر بالمدارس والكليات الاهلية على وفق القانون، وتأمين متطلبات وزارات التربية والتعليم العالي والمالية وسحب اجازات غير الملتزمة بها.

ان هذه المقترحات، تحتاج الى ندوة علمية يحضرها متخصصون واكاديميون وممثلون عن تظاهرات الشباب وعن الحكومة واصحاب القرار السياسي لإنضاجها، نرجو من مجلة (الثقافة الجديدة) تبنيها، فبها يستطيع شباب انتفاضة تشرين تحقيق شعارهم في استعادة اجمل وطن يمتلك كل المقومات لأن يعيش اهله برفاهية وكرامة.

30 آب 2020

بورتريت

موفق محمد
حكاية تضامن مع انتفاضة شباب تشرين

أحمد الناجي

انشغل الشاعر موفق محمد على الدوام بهموم الوطن، ولم يألُ جهداً في التعبير عن توجهاته بوضوح صارخ، وهو شخصية ذات حضور متميز على الصعيد الوطني، يعلن ميله لليسار عن وعي واصرار، معروف بين الأوساط الشعبية في مدينته، كذلك في كثير من أنحاء العراق، أقام علاقات صداقة واسعة مع عدد كبير من الشباب، بمن فيهم تلامذته، ولهذا تجد هذا الإنسان البسيط في السلوك والمظهر، قريباً من نبض الشارع، وكبيراً في تحققات منجزه الشعري، لاسيما في بلورة خطابه النقدي.

تتوحد همومه مع الوجدان الوطني، منحازاً الى ضمير الشعب، يتعانق الخاص والعام في قصائده، معبراً بشكل دائم عن جديد مبتكر من الصور الشعرية التي تكشف عن معاناته المتسقة مع مكابدات الناس، وهو يعرف ما يقع على عاتقه من مهام، لم يته وسط الزحام، حين يصور بعين الخيال ما آلت اليه أحوالنا، وتبياناً لذلك، نشير على سبيل الاستشهاد لا الحصر، الى اسهامه في احتفالية احياء الذكرى الأولى لانطلاقة التظاهرات الاحتجاجية ضد الفساد والمطالبة بتوفير الخدمات التي اقيمت تحت نصب الحرية في ساحة التحرير ببغداد عصر يوم الأحد ٣١ تموز ٢٠١٦. وتمثلت ذروة تلك الفعالية مشاركته بقراءة قصيدة (ومن يدريك ما ناي الامومة). نستل منها هذا المجتزأ:

وخرجنا لهم من غيابة الجبِّ عشاةً نترنّحُ
من قاصمات الظهور
نتوكأ على جروحنا ونومي للجهابذةِ العظام
القادمين من المنافي
فاستفردوا بنا وبعراقنا فأفرغوه وأذلوه وأهانوه
ولم يتركوا له عصاً يتوكأ عليها
وهو يستجدي على الحدود
وجيراننا لا يرحمون عزيزَ قومٍ ذُلَّ
فما الذي تنتظرونه بعد هذا الدمار
الذي أنجزتموه مبسملين محوقلين
وأنتم تصبّون جهنم فوق رؤوسنا

صباً
فصار البلدُ جحيماً خراباً يباباً
فالأرض تبكي والسماء
وأنتم تسرقون وتضحكون..

تمضي الأيام وتتوالى السنين، وتتراكم أكوام المواجع والعذابات النازلة فوق رؤوس العراقيين، وما أن وجد في لحظة فارقة، أحلامه المتقدة على جمر المعاناة خلال سنين ما بعد التغيير، ترود مجدداً في أول طريق الانتفاضة الشبابية التي اندلعت شرارتها مطلع تشرين الأول 2019، حتى استجمع قواه، واستنفر طاقاته، متوكأً على سنواته الأزيد من السبعين، قاصداً الى حيث مرابع انتفاضة الأجيال الشابة، التي تريد أن تكون جسراً للعبور نحو مستقبل الوطن المشرق، ولو طال الأمد، وصار يتواجد بروحه الوثابة، رفيقاً لشباب تشرين المضحين، متضامناً معهم، ومناصراً لمطالبهم المشروعة، يفيض حماسة وتوقداً وسط ساحة الاحتجاج والتظاهر في الحلة (قرب مجسر الثورة)، ساعياً وراء الحلم الوطني المنشود.

بقي شاعرنا يعاضد انتفاضة تشرين الشبابية التي حظيت باحترام أغلبية الشعب العراقي، وأصبح يديم حضوره اليومي في ساحة التظاهر، مواظباً يتنقل وسط حشودهم، تطوقه محبة الناس في خطواته خلال تأدية هذا الطقس، تتبعه عيونهم، يلتقطون صوراً معه، وحين انفرد للاستراحة جالساً على رصيف الشارع، في ركن على جنب حشود المتظاهرين، التقطته كاميرة موبايل الصديق الفنان محسن الجيلاوي في غفلة دون أن يعلم، مسجلة انعكاس تلك اللحظة الزمنية بصورة فوتوغرافية، وبذلك أمست وثيقة مستقلة عن الواقع/الأصل، صورة موحية بعديد من الدلالات البليغة، لأن الفن الفوتوغرافي بمثابة عملية تخليق جديدة للعوالم المرئية، حافلة بما لا تدركه العين المعتادة، وانطلاقاً من هذه القاعدة ينبع اهتمامنا بقراءة في هذه الوثيقة البصرية، ناهيك عن اتساقها مع وجهة نظر الفيلسوف اليوناني أرسطو الذي يفيدنا بكون:

التفكير من دون صورة مستحيل.

تعلن كينونة موفق الماثلة في هذه الصورة الفوتوغرافية منذ الابتداء عن موقفه الوطني المساند لمسعى الشباب في مسارهم الاحتجاجي النبيل، ولكن مظهره استرعى الانتباه في تلك السردية الفوتوغرافية التي تبدى فيها مضطرباً، ومثقلاً ينوء بجسد متعب، ووجه متجهم، فاقد للنضارة المعتادة، يميل برأسه الى الجهة اليسرى، وهو يراقب وينظر، مصوباً نظره باتجاه مشهد ما، مغرقاً بالصمت، وكأن ما يتأمله ابتعد شارداً، وخيوطه ممتدة نحو المديات القصوى، موحياً بأنه يترصد المصير المجهول، وهذا مشهد يختصر لنا الدلالة المعبرة عن محنة الفرد/ الجماعة خلال هذه المرحلة من تاريخ العراق المعاصر. وعند التمعن في جلسته على الأرض، حيث يظهر وراءه خط من اللون الأبيض، الرمز الدال على الطهارة، البارز وضوحه، والحائز على طاقته من مجاورته لبياض شعر موفق ولون ملابسه القريب من السواد، وهذا الخط الأبيض الظاهر خلفه يقوم بتأطير حافة لوحة فنية، موجودة في ساحة الحراك الشعبي لأداء وظيفة دعم الانتفاضة، وتمجيد الفعل الثوري، ولكنها مشوشة المعالم، غير متبدية بوضوح بسبب الاختلاف في زاوية الكاميرة بين موفق الكائن/ المركز وبين الهامش/ اللوحة الفنية الموضوعة بصورة مائلة على عمود كهرباء مطلي بلون أصفر مائل للأخضر، وهذا اللون يرمز الى عدم الثبات، وبجانبه بطل ماء صغير لا يزال محتفظاً به، وفيه كمية متبقية، وقد بلل الماء الأرض جراء المسكوب منه، وهناك قطرات متناثرة بسبب عملية غسيل الوجه، تساقطت على ملابسه، وعلى وجه التحديد فوق بنطاله. وينطوي الماء على رمزية غنية، يضفي عدة دلالات على الصورة، فهو مصدر الحياة ووسيلة تطهير وتجدد.

تتوزع تدرجات اللون الأسود.. لون الحداد ورمز الليل.. على قميصه الداكن المائل الى اللون الرمادي، وبنطاله الرصاصي اللون، وبذا فأن هيئة موفق بهذه التدرجات اللونية تومئ الى أنه كائن في محطة انتظار، وآفاق الدنيا واقفة على الحياد. لا يدري ماذا يخبئ المستقبل، ولكن نظراته الشاردة توحي ثمة مخاوف تحيط بالأفق الذي تمضي اليه حركة جيل تشرين، وأن الخشية الكبرى قائمة من ضياع المبتغى من الأحلام قبل أن تبلغ هدفها، تتلبسه وتعتريه المخاوف من الخسائر والانكسارات في الأيام القادمة.

ظهر موفق الكائن وسط الصورة، حاملاً بيده اليمنى منشفة (خاولي) خضراء اللون، متدلية بالتفاف جمالي يوحي شكلها بالحركية، تبدأ من مستوى الوجه، حتى الحضن، وتصل بحوافها الى كف يديه اليسرى، مغطية جزءاً منها، استعملها لإزالة العرق المتصبب عن جبهته، وحركة اليد المصحوبة

بلون المنشفة الأخضر من العلامات اللافتة للانتباه، من حيث أن هذا اللون رمز دال على خصوبة الحياة وانبعاثها من جديد.

انتشرت صورة موفق على صفحات (الفيسبوك) بسرعة البرق، وحظيت بتعليقات كثيرة، وأخذت طريقها للنشر على صفحات الجرائد، وسأستشهد هنا بقراءة عميقة لهذه السردية البصرية، قدمها الاديب (حسب الله يحيى)، بأسلوبه الشائق، على صفحة (الطريق الثقافي) في جريدة "طريق الشعب" الغراء العدد: 51 بتاريخ 29 تشرين الأول 2019، حينما نشر الصورة المارّة الذكر، تحت عنوان (موفق محمد.. القصيدة الموجعة)، وهو يقول: "هذا الشاعر الاثير، الذي يرى بقلبه ويرسم بعقله، ويحس بوجدان عميق. موفق محمد.. الدمعة الدامية والأذى المزمن والتاريخ الأبيض من البياض. هذه القصيدة التي توجع بسخريتها كل من يصغي الى بوحها من موفق محمد نفسه أو يقرأ حروفها المتجذرة في الروح. هذا الموفق بشيخوخته الثلجية يبكي بكاء مرارة على الشبيبة التي يغتالونها في السر والعلن. موفق يرى ان التوفيق حليف الزمن المقبل والقصيدة الأجمل.. آتية". وما يثير في تلك الصورة الفوتوغرافية ويلفت الانتباه، إنها تختزن عدداً من العناصر والمحمولات في مرئيات متضادة، لكن تبقى الأبواب مفتوحة، ومفضية الى تنوعات في المعنى، عبر فك رموز العلامات السيميائية.

احتلت الانتفاضة الشبابية التي استأنفت بتاريخ 25 تشرين الأول 2019 حيزاً كبيراً من اهتمامات شاعرنا، وحازت دعما وافرا في اشتغالاته، وكانت نابضة بحضور مائز في متون قصائده، وقد قَلبّها من مختلف الجوانب، مفصحاً عن انفعالاته الوجدانية المنثالة، وآماله الناشدة الى بناء عراق مستقل مدني، بلون أطيافه ومكوناته، وداعياً الى وقف تدحرج البلد نحو هاوية المجهول. فتوقف عند قسوة العيش وشدة الظروف التي تطحن العراقيين، وعلى رأسها: الانقسام المكوناتي للمجتمع.. الإرهاب.. الغدر.. هدر الدم.. وتبديد الثروات، لاعنا مظاهر الفساد المستشري المتأتي بسبب أفعال الطبقة السياسية القابضة على زمام الحكم في البلد منذ (17) سنة، والمنطوية على استباحة الدولة، وانتهاك القانون بهدف الحصول على المغانم، ونهب المال العام، وما زالت تلك الجهات تناور بالالتفاف والمخادعة لضمان سيطرتها واستمرار مصالحها. ولم يكتف شاعرنا بذلك، بل راح يسلط الضوء باتجاه حكاية جيل تشرين الثائر التي لم تنتهِ فصولها بعد، مشيراً الى وجه التحديد نحو جرح العراق الندي.. ظاهرة اغتيال الناشطين وتغييب البعض الآخر منهم. ولم يتوانَ عن ادانة كافة المظاهر التي أثارت عينيه، وشحنت انفعالاته، والمتمثلة في القتل الممنهج

والحرائق التي طالت خيام الاعتصام، وكل السياقات التي مُورست بطرائق وحشية في ساحات الحراك الاحتجاجي في كافة أرجاء الوطن. في قصيدة مطولة مكتوبة مطلع سنة 2020، بعنوان (وصايا لسلامة المتظاهرين.. مقتطفات من صحف الأحزاب)، وهي منشورة في جريدة (المدى) ومجلة (الشرارة)، نقتطف منها الآتي:

أَنتَ تطالب بمحاسبة من أَطلق الرصاص
على المتظاهرين، وأَنتَ منْ أَمرَ بإطلاقه،
بوركت أَباً كريماً قلبهُ قلبُ سمكة
يقتل في الثمانين ويكذبُ بالثمانين
ويصادق في السرّ كلَّ شيطان رجيم
وما جدوى أنْ تعرف..
أَعد إليهم أرواحهم التي مازالت ترفرف حيّةً
فوق رؤوس أمهاتهم..
ولماذا لمْ تكنْ أَنتَ وأولادكَ بينَ القتلى
ما دمتَ ترغبُ في أَنْ ترى العراق معافىً
يا سيدي الثعلب..؟

*

لقد جئتم الى العراق حفاةً عراةً
كصة مجوية وثلاثة محابس
وها أَنتم تجرون الدنيا..
فارحموا من كان السبب في كلِّ ما تملكون الآن،
اقرأ باسم حزبك الذي حكم
دفع العراق الى العدم
صلى وسبّح، ثمَّ صيَّر كل ثروات العراق الى رمَم..

تفصح هذه القصيدة عن اندماج الشاعر مع شؤون الوطن وشجون الناس التي ما زالت تكابد مرارة الزمن الاستثنائي، وتتكشف لنا روحه المشاكسة المتمردة. وأن كل ما تقدم ذكره، يضمر نصيحة منطوية على دعوة تحريض لقراءة هذه القصيدة، أضعها امام القارئ وفاءً لجيل الشباب الذي فجر انتفاضة تشرين، وعرفاناً للشاعر الكبير موفق محمد..

تمثلات صورة الاحتجاج في الخطاب المرئي

د. جواد الزيدي *

لم يكن الفنان يوما منقطعا عن عالمه الموضوعي، بل أنه في أقصى حالات التجريد والاغتراب سيكون ملتحما مع الواقع الذي ينهل منه موضوعاته ويحتضن اشياءه ويعبر عنها وان اختلفت المناهج والطرائق وزوايا النظر. ولذا فإن انطلاقة انتفاضة تشرين حايثتها تبديات فنية على المستويات كافة، وفي كل الأجناس الفنية. ولعل التشكيل كخطاب فردي الانجاز، كان اول الأجناس المتحدية التي رافقت شباب الاحتجاج السلمي وشيوخه، وبدأ التعبير ينطلق من الدعوات البسيطة والعفوية التي كانت تلتحم مع المكان وبعض التوصيفات الرمزية الأخرى التي يتم من خلالها تثوير المفردة، اقترانا بمرجعها الدلالي الكامن في أساس العمل الفني الأصلي وجوهره؛ اذ تم استدعاء نصب الحرية في تعالقية مع جوهر اشتغالات النصب الأول وامكانية الرسام والمصور تكوين مماثلة ايقونية مع صورة مفردات النصب ومحتجي الراهن العراقي تحت النصب لخلق هذه المقاربة الفكرية والجمالية. ومن جانب آخر تم استدعاء نصب الشهيد رمزا لشهداء الاحتجاج في ايامه الأولى، فضلا عن بعض الاستعارات التأريخية التي أنتجت موضوعاتها الراهنة من خلال التشاكل والتعالق مع مفهومات معاصرة مثل أسد بابل والثور المجنح وزقورة اور وقيثارتها. تلك الدلالات التي تنفتح على مسارات التأويل وتعكس ابعادا دلالية وجمالية تتشكل عبر المكان الذي شيّد ملمحا جديدا في ضوء اجتراح امكنة جديدة تم استدعاؤها وتكريسها في العقل الجمعي، شكلت في ما بعد علامة مهيمنة في صياغة الخطاب الجمالي المرافق لخطاب تشرين، فكان المطعم التركي مهيمنا مكانيا على الحدث، فضلا عن جسر الجمهورية. تلك العلامات التي اضحت علامات يومية في حركة الرسم، او الفن الكرافيكي الذي انتج ملمحا للهوية الفنية العراقية المتشكلة إزاء الحدث المركزي.

وإزاء الضرورات التي فرضتها اللحظة العراقية الحرجة كان للحرف

العربي حضوره ايضا وبأشكال نسقية مختلفة، يمكن قراءة كل منها بفعل مهماته الوظيفية والجمالية المفارقة. وتباينت المستويات الأدائية أيضا بين محترف وهاو وما بينهما، حيث تم تكريس شعارات الاحتجاج بهذا المفصل الزمني والتأريخي في الحدث العراقي؛ اذ تمت كتابة شعارات ودعوات وامنيات ومطالب جماعية على نفق التحرير وساحته ومقترباته العمارية التي يتمظهر من خلالها الاشهار لتلك النصوص. فيما ذهب آخرون الى تدوين اسماء شهداء الاحتجاج على هيئة زهرة رباعية الفصوص أو على هيئات أخرى سطرية ومستطيلة وأشكال هندسية، لتصبح هذه الكتابات شاهدا على الفعل الاجرامي الذي انتهجه القتلة المجهولون. ولعل هذا الفعل الممثل في الفن الكرافيكي من الكتابات والشخبطات العفوية التي انطلقت في غرب الأرض، قبل أكثر من نصف قرن وما زالت، حاول الفنان تقريبها من منطلقات الهوية الفنية العراقية، لأن الكتابات توشحت بخط عربي ولأسماء كان لها حضورها في ميدان التحرير ومقترباته أيضا، وأضحت هذه الأعمال الخطية وثيقة ادانة للفعل الاجرامي، وتنطق بالأسماء وبالمكان أيضا ولا تشبهها اية أسماء في أي مكان آخر من المعمورة. وبعد استمرار الاحتجاج وطول أمده تشكلت قناعات لدى البعض في ضرورة المشاركة. وقدم خطاطون من المحترف الفني الى الفضاء التداولي العام، وبدأوا إنجاز جداريات خطية على أمكنة بارزة من اجل تحقيق لحظة تلقي مباشرة أثناء العمل وبعده. وكان للخطاطين اكرم جرجيس وحسين علي السعدي وآخرين مثل هذا الحضور.

وكان الفعل العفوي هو البداية الحقيقية التي انتظمت في ما بعد بمجموعات اتسعت وانشطرت الى امكنة أخرى، بعيدا عن المكان الأساس، فكانت نشاطات فنية مماثلة في ساحات احتجاج البصرة والناصرية والنجف وكربلاء وغيرها، حين برز فنانون شباب في البصرة، اتخذوا من الجسور والساحات مكانا لبيان احتجاجهم ورفضهم لممارسات القمع والفساد وتوشيح هذه الأمكنة بخطابهم الاحتجاجي الواعي بما يدعم موقف المنتفضين، واحتشدتا ساحة التربية في كربلاء ومجسر ثورة العشرين بألق اللون وجمال الفكرة المعبرة التي امسك بها مبدعو هذا الوطن، حتى أضحت ظاهرة يمكن أن تؤسس لفن عراقي جديد يخوض في غمار المضمون المتمثل بجوهر الصراع من اجل الحريات والحقوق العامة. وهذا ما استدعى المؤسسات الرسمية ومؤسسات المجتمع المدني الفنية، لكي تلتحق بهذا المسار. وكانت جمعية التشكيليين العراقيين أولى المؤسسات التي استجابت لتلك التحولات واقامت سمبوزيوما للرسم في حديقة الأمة، تحت نصب الحرية، شارك فيه عدد كبير من الرسامين، ألحقته بفعالية ثانية كرست لها اسبوعا كاملا. استمر الرسامون في الحضور الى قاعة معارض الجمعية في المنصور ومواصلة الرسم استثمارا للموضوع الاحتجاجي نفسه، مع

مساحة الحرية المتروكة للفنان بالنظر الى الموضوع من زاويته الخاصة، والاسلوب الفني المستخدم، فضلا عن التقنيات التي يجترحها للتعبير عن موضوعه الفني. وتكللت الفعالية في ختامها باقامة معرض نوعي على القاعة ذاتها. وفي الملاحقة النهائية لهذا المعرض تبينت أساليب الفنانين المشاركة التي انقسمت الى ثلاثة؛ اذ لجأ القسم الأول الى التعبير المباشر عن الحدث والتماهي مع المجريات بحس انفعالي على الصعيد التعبير الفني واللون المشع، لتقترب الأعمال من الاعلانية أو الاشهار في الموضوع/ الحدث، فتم الكشف عن علامات اضحت جزءا من الذاكرة مثل عربة التكتك او المطعم التركي وهي تلتحم بالجموع الثائرة مع معالجات فنية تتضح فيها الشهادة ورمزية العلم العراقي الملتف على الأبنية المعمارية الظاهرة في هذه اللوحات المرسومة. أما القسم الآخر فلجأ الى الترميز باستخدام رمزيات المكان واللعب الحر عليها والمزاوجة بين تقنيات الحداثة وتلك المرموزات، لكي يحتفظ العمل الفني بقيمته التعبيرية العالية، فضلا عن المقاربات الجمالية الخالصة التي يظهرها الشكل المصنوع على أساس تلك المقاربات، فكانت الاشارة الى الأمكنة ومكونات العالم الخارجي بادية للعيان بشكل مضبب، لكي لا تسجل حضورها الفوتوغرافي لتلك الموجودات، وهذا ما أسس لمسار ثان في هذا السمبوزيوم. بينما انتمى الاتجاه الثالث الى خطاب التجريد الخالص واعتماد الشفرة الجمالية المنتجة للدلالة على صعيد شفرة اللون أو الاشارة والعلامة، بعيدا عن الأيقنة لتلك الموجودات، وحافظ هذا الاتجاه على الامساك بالنموذج الفني المتعالي والشكل الخالص ومن ثم التعبير عن موضوع الحدث وراهنيته من خلال تلك الاشارات، التي تنتمي لمنظومة التواصل على أساس آليات التلقي الحديثة. وهنا تمكن المشاركون من تحقيق هدفين أولهما الاندماج مع فاعلية الاحتجاج بوصفهم جزءا منه، ومعبرا عن حقيقته وجوهره السامي وتوثيق الحدث، وثانيهما انتاج خطاب جمالي له مرجعياته المعرفية الخاصة بتشكلات الهوية العراقية، بعيدا عن التناصات التي يفرضها منجز الآخر، كونها أكثر التحاما مع الواقع العراقي في لحظته الزمكانية.

وقد استدركت المؤسسات الرسمية أيضا من اجل اللحاق بالحدث المركزي وطبيعته التصاعدية، فقد أقامت كلية الفنون الجميلة في بغداد معرضا مباشرا للرسم في حديقة الأمة وتحت نصب الحرية أسهم في صياغته مجموعة من الأساتذة والطلبة، ليقيموا يوما كاملا من أجل هذا النتاج الذي تم عرضه في المكان نفسه، لكي يكون شاهدا على هذا التواصل، واعقب ذلك حركة دائرة الفنون التشكيلية في وزارة الثقافة على دعم فعالية مشابهة ايضا كي لا تكون خارج الحدث الفني ومغزاه الانساني والتضامني. فيما سعت جهات أخرى أيضا الى فعاليات متنوعة في الملصق والرسم وأعمال الخط العربي. ولعل أثر المركز كبير على الأطراف في المحافظات البعيدة؛ حيث استلهم الفنانون

تلك التجارب وحاولوا ايجاد تناصات بطرائق معينة من أجل تحويل الفعالية من فضائها الخاص الى الفضاء العام لتأخذ مداها التأثيري الأكبر والأوسع، وقد تكللت دعوات التضامن هذه الى صياغات أخرى على صعيد النحت، حيث أنجز الفنان أحمد الناصري نصبا لشهداء الثورة في الناصرية. وأنجز الفنان صباح السعدي نصبا مماثلا للمضمون في مدينة الشامية. وقد ينتج عن هذا التواصل أعمال أخرى ما زال مبدعوها يقيمون على انجازها بفعل طبيعة الجنس الفني وخطوات التحقق النهائية. بيد أن انتشار الوباء وتأكيد خطورته وحتمية الالتزام بالتباعد الاجتماعي، أثرت سلبا على ديمومة الاحتجاج. ومن ثم اضمحلال وضمور الفعاليات الفنية والثقافية المرافقة، ما جعل انحسار هذا التواجد يشكل تراجعا في تقديم مبادرات نوعية أخرى على صعيد الفعل الفرداني في الأجناس المختلفة، أو الفعالية الجمعية التي تقيمها المؤسسات سواء كانت رسمية أو غير رسمية. ولكنه في الخلاصة النهائية يمكن لنا أن نقول إن الاحتجاج التشريني أنجز لنا عتبة أولى لملامح تجربة عراقية في الخط العربي والرسم، تتخذ من موضوعات الشارع اليومية مرجعا فكريا لها.

*** ناقد وفنان تشكيلي، اكاديمي/ استاذ في كلية الفنون الجميلة**

الغورنيكا العراقية

ستار كاووش *

حين وقفتُ أمام لوحة بيكاسو (غورنيكا) في متحف البرادو بمدينة مدريد، هناك في تلك الصالة الواسعة للمتحف، تأكدتُ كيف يمكن ان يغير الفن تاريخ الشعوب. هناك امام تلك اللوحة العظيمة بحجمها الكبير المؤثر وتقنيتها الفريدة وتكوينها الاستثنائي ولونها الرمادي الذي ذَكَّرَني بالحرب، وقفتُ أتأمل وأفكر بركام تلك القرية الصغيرة في مقاطعة الباسك شمال اسبانيا، وهي تهوي تحت وابل القنابل وطغيان النفس البشرية التي تحولت الى وحش كاسر يمحي الناس والبيوت والطيور والشجر. هناك تأملتُ (غورنيكا) وتأكدتُ بأن الدكتاتوريات والايديولوجيات الفاسدة لا يواجهها إلا أعمال من هذا النوع، أعمال فنية خالدة تقف بوجه الطغاة وصانعي الحروب.

بعد خروجي من المتحف مررت بقصر فرانكو الذي ما زال قائماً وسط المدينة، وتوقفتُ أمام شرفته الكبيرة، وفكرتُ كيف ان هذا الدكتاتور بقوته الغاشمة، كان قد (رسمَ) هذه اللوحة حتى قبل بيكاسو نفسه، بعد أن أمرَ بقصف القرية الآمنة والإطاحة بجمالها وحضورها الانساني. ليأتي رسمنا العظيم ويعيد بناء حطام هذه القرية محاولاً ترميم جراح الناس وهو يعلّي الجمال فوق القتل والألوان فوق دخان القنابل وايقاع الخطوط فوق صوت الطائرات.

كانت ردَّة فعل بيكاسو لما حصل عالية الجمال، حين وقف سنة ١٩٣٧ وسط مشغله ليرينا استجابته للحدث بطريقة خاصة.

هناك وسط الصالة الكبيرة وقف الفنان العظيم ليقول كلمته بلغة يفهمها الجميع بدون استثناء، وقف ليرسم هذا الإرث الجمالي الذي قال فيه كل شيء، واختصر تاريخاً طويلاً من الرسم وهو يقدم لنا اشهر لوحة في القرن العشرين. لوحة تأثر بها وتناولها آلاف المبدعين فيما بعد، من رسامين ومصممين وكتاب وصانعي أفلام وشعراء ومؤلفي أغاني.

واذا ما تعنيه الحروب وما تتركه من جراح في ضمائر الناس الطيبين فما عليك سوى الوقوف هنا في متحف البرادو كما وقفتُ، لتتحسس قيمة الخط واللون وبناء الاشكال.

مقابل ذلك، حصل في العراق دمار تجاوز ما حدث لقرية غورنيكا آلاف المرات، بل تجاوز ما حصل في كل العالم بتاريخنا الحديث، بدءاً من التنكيل بالإنسان والتهجير والقتل على الهوية والتسلط على رقاب الناس البسطاء والسيطرة على

مقدرات الوطن والاستيلاء على أموال البلد. كنت اتمنى ان تُجمع لوحاتنا واعمالنا الفنية العراقية التي دانت القتل والتسلط والتلاعب بمقدرات بلدنا. نعم، تجمع هذه الاعمال على اختلاف تقنياتها واساليبها وحجومها وتنوع خاماتها، لتوضع في متحف خاص بها، متحف يشير الى قوة الفن الذي يواجه العنف والقتل والترويع، قوة الفن الذي يفتح نافذة مضيئة لغدنا العراقي الذي نحلم به.

لكن من يقوم بذلك، وإهدار قيمة البلد قائمة على قدم وساق؟ مَنْ مِنْ أعضاء حكومتنا سيبادر لبناء ذلك، والحكومة ذاتها لا تؤمن بالفن والجمال؟ والسؤال الأهم هنا، هل يعرف أعضاء الحكومة ما هو الفن أصلاً؟ تُرى هل قام مسؤولونا في العراق واعضاء حكوماتنا المتعاقبة بزيارات لمتاحف العالم؟ هل عرفوا ما تعنيه الانطباعية مثلاً، حيث تعوم الاشكال في الضوء وتنعكس ظلال الاشياء وتتراقص على صفحات المياه؟ هل تأملوا يوماً ما، قطع الاحجار الكبيرة التي حولتها يد مايكل انجلو الى نساء ورجال منسابين بنعومة وجمال نادر، ولا ينقصهم سوى

الكلام، ليكونوا بشراً مثلنا؟ هل تأمل أحدهم اعجازات رافائيل في رسم وجوهه الموغلة بالترف؟ هل رأوا عذراء بوتيشيللي التي امتزجت في ملامحها الغواية والزهد معاً؟ ألم يمروا ولو عن طريق المصادفة أمام لوحة غويا اعدام الثوار كي يتعلموا الدرس؟ وبالتأكيد لم يسعفهم الوقت أيضاً للوقوف امام غورنيكا بيكاسو، كي ينتبهوا لهول التحكم بمصائر الناس؟ ولننسى كل ما ذكرت، لكن ألم يتأملوا مفردات نصب الحرية التي التحفَ بها الشبان العراقيون وهم يطالبون بحقوقهم المهدورة؟

العلل البشرية والعاهات الفكرية والكثير من المشاكل، يمكن ان يعالجها الفن الجميل والمؤثر، كما تفعل ذلك الموسيقى والكتب ايضاً. اذن لماذا ندع أشخاصاً بالكاد يفكون الخط يتحكمون ببلدنا الذي اخترع الكتابة؟! لماذا تقع أرضنا التي ابتدأ بها تاريخ البشرية من حيث المدنية والتحضر والابداع تحت تسلط اشخاص يدفعون بهذه الأرض الى الوراء، ويحاولون ازاحتها عن خريطة التحضر والمدنية؟ كيف صار وطننا الذي اخترع الفنون، بأيدي هؤلاء الذين يُحَرِّمون الفن؟ كيف وصلت الامور ببلاد اخترعت القوانين ان تكون لعبة بأيدي ناس ليس لهم قانون سوى النهب والاطاحة بمقدرات البلد؟! ما الذي يكمن وراء هذه التحولات المريضة التي تزيد جسد العراق علَّةً ووهناً وانكفاءً؟ كيف لنا ان نخرج من علبتهم التي يحاولون اغلاقها على البلد؟ لقد خرج الشباب العراقي مطالبين بأبسط حقوقهم وسالت دماؤهم فوق شوارع المدن، خرجوا مطالبين باستعادة بلدهم من جديد، بعد ان دفع الحكام الجدد بعجلاته الى الوراء. هل ننتظر المزيد من التضحيات ليعود العراق الى أهله؟ وكم جيلا يحتاج العراق كي يجد الطريق الذي يليق به وبناسه وبتاريخه الجميل؟ وكم غورنيكا يجب ان تنهض من هذا الركام لتعيد لنا وجه البلد؟

*** فنان تشكيلي عراقي يقيم حالياً في مدينة دراختن - هولندا**

شعر

بلاد قاسية

سعد جاسم

... الوطنُ
جرحُنا النازفُ
الذي كلَّما حاولْنا
أن نُداويه ونُشفيه
يأتي الظلاميونْ
واليانكيّونَ القُساة
ولصوصُ الوقتِ
والخزائن والاسرار
وكذلك يَجيءُ
تحتَ أَجنحةِ الظلام
برابرةُ الدمِ والجنونْ
ومشعلو حرائقِ الفتنِ
والكراهيّة السوداء
كي يجتاحوا الوطنَ - الجُرحَ
ويرشّوا عليهِ
ملحَ ضغائنَهم
حَتّى لا يشفى أَبداً
وحتّى نبقى نحنُ
عبيداً وسبايا
ومُشرَّدينَ وضحايا
لا وطنٌ حنونٌ يأوينا
ولا بيوتٌ دافئةٌ وآمنةٌ
تحتضنُ أَجسادَنا المُنْهَكَةَ
وقلوبَنا المُتهرّئةَ كثيابِ أُمهاتِنا الأَرامل
وأطفالِنا الذابلينَ
من فرطِ الأَلم
ورصاصِ الخوفِ
ومخالبِ الجوعِ
وكوابيسِ البلادِ القاسية

شعر

شموع تشرين

طالب حسن

1

وهم يعرجون نحو السماء

كانت صرختهم:

لا تغلقوا الأبواب

ربيعنا القادم آت

2

أيها السائر

في ساحات الفداء

خفف الوطء

في كل منعطف لنا

بقايا ضحكة شهيد

3

في فردوس الله

تتبتل وردة أعمارهم

الحمراء

4

أيا يكن الرهان

لا احد يصغي لشهقة

البلاد الحزينة

5

يحزنني

أن ارى الحيتان تضحك

ودماء النوارس

لم تجف بعد

6

رغم مرور العاصفة

ما زال الحزن يصفق

بجناحيه

7

رغم رحيلهم الموجع

ما زلت أشم رائحة جراحهم
المدفوفة بدموع
الأمهات

8
مضوا
وتحت وقع خطاهم
يتهجد وطن

9
لا شيء في هذا العالم
يساوي دمعة
أم تنتظر

10
لماذا نموت
وفي قلوبنا
بقية حلم؟

11
ترجلوا
من على صهوة طفولتهم
ووصيتهم الأخيرة:
سلاما يا عراق

قصة قصيرة

عينان واسعتان

كتابة: سالم محسن

كيف أجدها بعد كل ما جرى.. في أية صورة.. في أي لون.. هل بمقدوري تشخيصها في زحمة الاجساد المعلقة على افاريز النصب؟ هي من القلائل اللواتي بقين يترددن من دون خوف أو خجل..! عيناها واسعتان.. قامتها لا بالقصيرة ولا بالطويلة.. ممتلئة.. تشبه شقيقتها (اضواء).. لو كانت حقا شقيقتها..! صلة القرابة موجودة وإن كانت من بعيد.. في سماء ليل تموز الحار.. تحت ضوء القمر والتماعات نجمتين متباعدتين بانت ملامح النصب. بدت الاشكال الجديدة في هالة أرضية تشع نحو السماء بوجود ثلاثة اعمدة متقدة. السكون يضفي على المكان مهابة منفردة. الباب المشبك لحديقة النصب مقفل بسلسلة حديدية كبيرة مثل ضريح على طريق ريفي، ما يجعل مكان النصب مختلفا عن باقي موجودات الساحة المترامية على جوانب الشوارع. يعيش المكان عزلة.. تتهدل من القفل سلسلة حديدية طويلة تشير الى أن المكان لم يفتح منذ أيام ما قبل الجائحة. ازدادت عزلة الساحة أضعافا مضاعفة كلما تقدمت الايام به، ولكون بناء النصب حديثا، فهو ما زال لم يستنفد زمنه.. المقارنة قائمة بين المعركتين على الرغم من التباين بينهما. البطولة المشتركة بين الاثنتين، فهناك في اعلى الافريز نحت بارز لفارس يعتلي صهوة جواده، والسيف في يده. وهنا صورة كبيرة على سياج مشبك لإعلامي يمسك لوكة قناة مع زميله المصور. منذ زمن لم يأت الى الساحة، ولما رآهم لا يخرجون بزخم كبير قال في سره: "علي أن أذهب لأرى ما يحصل لاسيما وأن الأخبار تقول بأن التظاهرات ستعود..."، لم يفكر كثيراً أو يتردد، ولم يجد ما يعطله فتوجه مساءً الى الساحة. ارتدى ملابس تتناسب مع ذلك المكان غير التي يرتديها في العمل. فشكل ونوع الملابس يجب أن لا تعطي ايحاءات ملتبسة. أخبر اباه بانه ذاهب الى ساحة التظاهر. خرج من البيت سيراً على الاقدام وبخطوات متأهبة متجهاً في ذات المسار قاطعاً المسافة، مشياً حتى الشارع العام. انحرف يمينا وكله أمل بان تعيد التظاهرات زخمها المعهود. مرة ما سار في اتجاه معاكس فاستقبلته

الروائح الكريهة لحاويات القمامة المرصوفة الممتدة مع الشارع، وكلب ميت منذ ايام خرجت احشاؤه وتكومت بقربه.. مع هذا فان الشارع سيؤدي في النهاية الى ساحة النافورات. أحسب أني أجدها في كلا الاتجاهين.. لم نلتق وجها لوجه ولا حتى في ورشة أو جلسة لكننا كثيرا ما كنا نسير في تظاهرة واحدة، حصلت هذه المفارقة بعد استشهاد عدد من المتظاهرين. في فترة الانتقال الربيعي تعرضت الساحة الى الاهمال، فتمزقت الخيام واهترأت ولم يتبق منها سوى الهياكل الحديدية، فالرياح وغزارة الامطار وآخرها حملة التعفير وأشعة الشمس اللاهبة جعلت المنطقة من نافورة البحرية والشوارع المتفرعة مهجورة بالتمام.. بخلاف تلك الأيام التي تعد مكانا للتنزه والترفيه.. كأنك في عيد أو مهرجان.. النساء والرجال والاولاد والبنات والاطفال والشيب والشباب. الرايات والبيارق مع الاهازيج والهوسات والأغاني الحماسية تصدح والادعية والتراتيل والشعارات والورشات والمحاضرات. كيف تتم استعادة تلك الايام؟ الجائحة ما زالت تقف أمام اعادة تلك الايام الى زخمها. مع زحمة تساؤلاته صار قبالة السوق.. بسطات وعربات ثابتة واكشاك متحركة، فأغلب المحال تباشر اعمالها لتزويد المنطقة بالحاجيات الضرورية من مواد غذائية وخضراوات وفواكه.. الى اليسار من الشارع الرئيسي جلسات الشباب المتفرقة حول اكشاك الباعة, فهي ايضا تحت الاوامر السريعة التي تصدر من قبل القوى الامنية بالرفع والاغلاق، وهذا يعود الى عدد المصابين أو المتوفين تحت تأثير الجائحة. على مرمى من نقطة الحراسة وجد أحد أصدقائه جالسا على المصطبة وألقى عليه التحية فرد عليَّ بحرارة، وطلب منه الجلوس فجلس بجواره. هل يسأل صديقه عنها فهو من سكان المنطقة القدماء..؟ دخلنا في موضوع التظاهرات مباشرة وعن الاستعدادات الجارية في ساحة التظاهر التي تقع تحت نظريهما، ولم يمض وقت طويل على حديثهما حتى طلب من صديقه الدخول الى ساحة التظاهر، فلم يتردد صديقه، فنهضا معا وتوجها الى الساحة مرورا بنقطة الحراسة التي كانت تتكون من سيارة الشرطة ويقف شرطيان بجانبها. توجد قطع من الحواجز الكونكريتية التي تمنع مرور السيارات. تجاوزا الفتحات المخصصة للمشاة. كانت ساحة التظاهر هي امتداد للشارع العام ذي الاتجاهين.. ذهاباً وايابا يفصلهما قاطع كونكريتي يستمر مع الشارع لا يسمح بعبور السيارات على الجانب الآخر، ما عدا المشاة والدراجات الهوائية والنارية. نصبت الخيام على رصيفي الذهاب والاياب, فهما عريضان بمساحة تسمح بنصب

حتى الخيم الكبيرة، وأن المشهد حاليا لم يعد كما كان، فاغلب السرادقات فقدت الوانها واضحت باهتة، وهي عارية منزوعة من هياكلها الحديدية أشبه بهياكل عظمية، نبتت في باطن قرميد الرصيف الرمادي: خيمة الفنانين والمدنيين والثوار، وخيمة جامعة البصرة – كلية كرمة علي وخيمة امارجي، وخيمة ناحية خور الزبير، وخيمة عريان السيد خلف ومظفر النواب والشهداء وقضاء المدينة وخيمة تشرين وخيمة ذئاب الثوار واعدادية المعقل والعباس وقلعة الاسود وصناعة البصرة وجدارية الراي الحر والامنيات وخيمة الثوار وخيمة الشهيد فلاح الحيدري وخيمة الشهيد محمد الدراجي وكلية شط العرب وخيمة شهداء اكتوبر والادارة والاقتصاد وخيمة الشيخ الوائلي والكنوز الاهلية واعدادية التمريض وخيمة جيفارا وخيمة الشهيدة أم جنات وخيمة شباب التغيير وخيمة نقابة المحامين وخيمة عشائر الجنوب وخيمة القيادة المركزية ما عدا جدارية الشهداء التي نصبت في القسم الاول من الساحة قبل نقطة التفتيش/ الساحة الثانية.. كثير من اللافتات لم تعد في مكانها، قد تتعثر فتصطدم قدماك بلافتة غير مهمة أو نزعت عمداً وألقيت على الاسفلت. وجدا صورة حسين وزوجته سارة في خيمة وقد وضعت في أقصى الزاوية اليمنى من الخيمة بينما الجزء الامامي بقي مكشوفاً فبرزت صورة الشهيدين أكبر من الخيمة. قال لصديقه: ما رايك لو نعيد أيام الخيمة؟ فأجابه سريعاً: لا ليس الآن..، ثم أكملا طريقهما. عند الحاجز الثاني الذي يقع مقابل شارع البحرية لم يجدا الأشخاص الذين كانوا يقفون عند الفتحة الصغيرة، ليفتشوا الداخلين الى الجزء الثاني من الساحة. كانت الإنارة ضعيفة ماعدا مكان النافورة فاتجها نحوها حيث كان يجلس على سور حوض النافورة مجموعة من الشباب بأعمار متفاوتة، فلم يجدا من كبار السن سواهما. لم تكن معرفته بصديقه قديمة، لكنه يسكن في منطقة قريبة من مكان سكن صديقه، فكلاهما قريبان من ساحة التظاهر. كانا يجلسان وإلى جنبيهما من اليمين فتيان يقدر عمرهما ما بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة. أما على اليسار فيجلس شباب بالغون. في ساحة التظاهر لا يوجد شخص ليس له دور.. صغيراً كان أم كبيراً. تجاذبا الكلام مع أحد الفتية حول شعارات التظاهرات ليوم غد، مطالبين بان لا تنحرف عن مسارها، فلم يرد الفتى بشيء. مرت إحدى المجموعات وهي تقوم بترديد هوسات استعداداً لمظاهرات الغد، وكانت اعدادها في تزايد اثر انضمام شباب الخيم الذين التحقوا بهم فقد كانت تتقدمهم صورة أحد الشهداء. قال صديقه: لا تسرع

الخطى واحذر من نشر الصور، فرد عليه مستفسرا: لماذا..؟ أجابه : يستحسن ذلك. طلب صديقه أن يغادرا الساحة. ودعا الفتيان في كلام أخير من قبله قائلا: نحن من خيمة المدنيين التي تقع مقابل دائرة الكهرباء، وشعاراتنا سلمية في حدود ساحة التظاهر التي أسقطت الحكومة. اخذ أحدهما ينظر إليهما بصمت، بينما الآخر سحب سيجارة واشعلها وأخذ ينفث دخانها إلى السماء. وهما خارجان باتجاه جنوب الساحة أوقف صديقه أمام صورة الشهيدة المرفوعة على أحد الخيم القريبة من نقطة التفتيش..! فسأله هل تعرفها..؟ فأجابه من فوره.. نعم أعرفها فاراد أن يسأله سؤالا ثانيا فارتفع صوت الهوسات والاهازيج.. فقطع السؤال وجوابه. غادرا الساحة وعند الفرع المقابل للسوق افترقا.. صديقه اتجه يساراً متوجهاً إلى بيته واخذ هو لإكمال المسير. بعد الانتهاء من تظاهرة السبت، ذهب الى الساحة بعد التاسعة مساء، سالكا الطريق نفسه وكان الحظر قد رفع جزئياً وحركة الناس تدل على الترقب والانتظار، فلا يوجد ما يطمئن إليه بالتمام في كل بقعة من هذا العالم..! لم يجد صديقه..! رأى شخصين جالسين في ذات المكان، لم يتعرف الى وجهيهما.. كأنهما من المستطرقين.. واصل السير الى الساحة، وجد ناراً مشتعلة حسبها خيمة ما قد أُحرقت كما قبل أيام. وعندما صار قريبا منها تبين بان مصدر هذه النار لأكوام عمليات التنظيف في شوارع الساحة، وتم اختيار المنطقة التي تقع بين ساحة النافورة والمنصة المركزية. عاد مسرعا الى البيت والعرق يتصبب من جبهته. استقبله والده عند الباب.. اخبره بان بعض الوجوه لم تعد مألوفة وأنه رأى شقيقة (أضواء) في التظاهرة خلف بناية مجلس المحافظة القديم.

(صوت الطبول من بعيد)
أسطورة الحدائق ومحكية المقبرة

ناجح المعموري *

رواية صدرت حديثاً عن دارالرافدين، وهي امتداد لروايتيه "القنافذ في يوم ساخن" و"حبات الرمل.. حبات المطر" انها استكمال واضح لسيرية ذاتية وتغذت بمحبكات كثيرة، عاشها الأفراد والجماعات وتحولت سردياته الى خزان للذاكرة، مثلما تمثل تخيلاً متسامياً ومتعالياً، ازدحمت فيه وقائع وأحداث حادة وقاسية ضاغطة على ذاكرة السيرة، التي لم ترد التفريط بما هو قليل مثل اليوميات.

اهتم الأستاذ فلاح رحيم باستعادة مخزونات الماضي التي عرفتها الجماعات ضمن تاريخ ما زالت تأثيراته باقية حتى الآن. كل هذا متشكل عبر موروثات، تاريخها طويل، عميق، وهي حاضرة من خلال العقل واللاعقل.

الحديقة/ الانثى. متشابهان. الجسد فيه ورود مجازية اكثر مما تستنبته الارض. ترى الزهور بالحديقة وتظل صورتها في الذهن. الا ان ورود الانثى ليست ثابتة، بل هي تستعيد الوانها وتكتسب بالوان يبتكرها الاخر. ورود الجسد الانثوي باقية، مثيرة، ملفتة للانتباه، كما تقاوم الزمن.

تنطوي المقبرة على محكيات خاصة بالجماعات القريبة منها ودائماً ما تكون المتخيلات الخاصة بالجماعة مقترنة بثقافة استمرار الثقافة بين الافراد والغائب منهم، وما يكفي لبقاء التواصل وجود المقبرة الدالة على ديمومة الهوية والمحافظة على الموروث.

المقبرة هي الحقيقة العارية. المشهد الخيالي للموت في اعماق قلب المشاهد. ليس مهماً من هو مدفون هناك. لا ينحني ابداً ليكتشف. انهم هناك جميعاً مثل انقاض. ونحن نرغب في الهروب كذئب. انها صحراء الموتى حيث لا ينبت شيء. الصحراء الاخيرة الصحراء النهائية/ الياسي كانيتي / ص38//

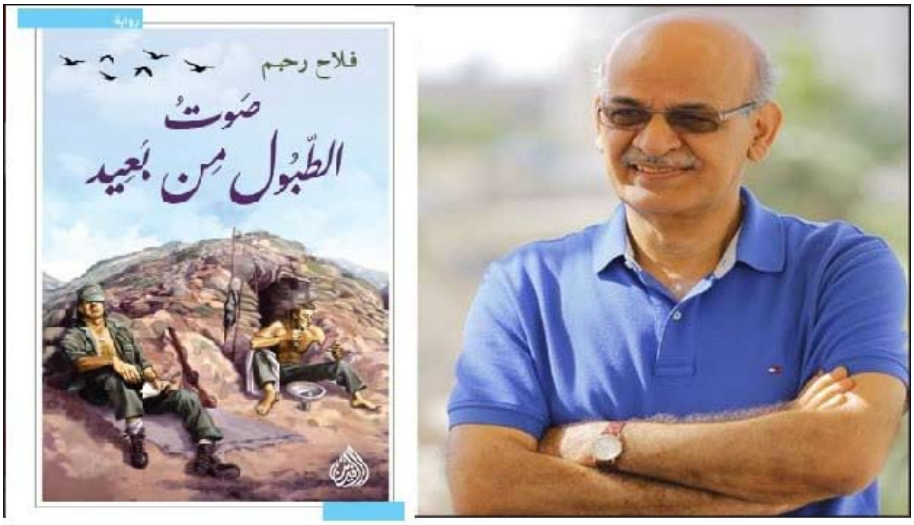

كتبت الام الاولى

منذ لحظة البداية، الارض ومعروفة وظيفتها بهذا المجال الحيوي الذي فاض بالتجدد والانبعاث. واشارت العديد من الاساطير السومرية والاكدية الى وجود حدائق كبيرة خاصة ببعض الالهة ومنها بستان شوكالينود للإلهة انكي، وحدائق الالهة عشتار العديدة. وتمثل هذه الحدائق امتداداً للفردوس السومري الذي تعرفت اليه الآلهة في البدء مثلما عبرت عنه بعض الالواح الطينية.

تحولت الحديقة بوصفها تمثيلاً للفردوس الاول وحدائق الالهة واكثرها تأثيراً في الاساطير السومرية حدائق الالهة انانا/ عشتار وما يتمظهر عنها من خصوبة وتجدد. فوجود الحدائق بالفضاءات العامة نوع لبث الفرح والسعادة وتعزيز ظاهرة الخصب لدى الرجل والانثى، ويجعل منها مكاناً لاستعادة سعادة هاربة وترصين النفس بالهدوء والاستقرار.

الحديقة مظهر حياتي بسيط وعميق جداً، وهي اولى التخيلات التي ابتكرتها الام المقدسة وجعلت منها تمثيلاً للحياة والموت، بمعنى الحب والانطفاء. وظلت تنوعات سرديات الحب مستجيبة لوهم الكائن او الجماعات؛ فاللغة في احيان اوهام ارتضى بها الآدمي، وهي التي ابتكرتها اللغة وتجوهرت عبر الكلام والتخيلات للغة قوة جبارة، وبدت مخيلة الانسان تحمل معالم العديد من الفنون والآداب بوصفهما يشكلان تنوعاً واضحاً في العديد من الأنشطة ، والتي عاشت جدلاً وصراعاً عنيفاً خلال حقب تاريخية عديدة ..

كم هو فوضوي وموشوش موضوع الحب.. اذ نراه في كل مكان يختفي على اساس انه "التجربة الاكثر اهمية في الحياة الانسانية" أتساءل: هل يوجد ثمة من يجادل بالضد من الحب؟ وسواء منحنا الحب متعة عظمى ام سبّب لنا معاناة رهيبة، فان القليل وحسب، هم الذين ينكرون ان الحب هو من

يمنح الحياة معنى واهدافاً جديرين بالاحترام.

تمركزت بلاغة الرمز في هذه الرواية بذكاء عال. ومنحه فلاح رحيم من خلال تكرره قيمة دلالية/ جوهرية، وهذا ما سأحاول المرور عليه سريعاً: الحب والموت. ثنائية لها سيادة منذ البدء وحتى الابد. وكل ما تقوم به من افعال منبعثة من حياتنا تعبير عن الحب. وكل مظاهر الاحباط والعزل والفقدان، تبدَّ للموت.

ان غياب الحب يجعل الحياة صحراء موحشة. وسيؤكد هذه القراءة الملاحظة التي ذكرها "باتريك زوسكيند".

الحديقة تمظهر لانجذاب الكائن للفردوس، وبغيابها يصير المكان مهما كان صغيراً يباساً وتعطلاً للحياة. واكثر علامات السرد في هذه الرواية مقولة تتحدث عن رصد لحركة الافراد وممارسات السلطة، عن طريق نظرة رجل الشارع : "لأنه يعاني من الملل وان وجوده على الباب ناجم عن خلو منزله من حديقة توفر له جلسة افضل/ ص 63/ صوت الطبول//

وهي اشارة ذكية وعميقة تشير الى انعدام الحيوية في مكونات الفرد الشخصية وما تتمتع به من وعي واستعداد للتعايش مع المحيط الاجتماعي، وانعكاس التصحر له تبدَّ واضح، صاغ من "سبتي" راصداً امنياً لحركة الافراد في الشارع الذي هو احد ساكنيه.

الحديقة فردوس ارضي، رمز للبدء الاول. وله حدود مرسومة بنظام ويظل دائماً مثل حامل لبذور خزانة محكيات، تساهم برسم حدود نوع من النظام المعبر عن ذوق العائلة واهتمامها بالجمال، وكاشف عن تنوعات العناصر الثقافية المكونة للعائلة. ولها دور مهم في تحولات الحياة الى فراديس روحية. والانثى هي بذرة الجمال الكامنة فيها.

واذا اردنا التذكير بالاصل الاول للحديقة الكونية/ الفردوس السومري الذي سجلته الاختام، انه الاول في التاريخ والتوراة، حازته وانكرت اصوله. وما يدلل على جوهر الانبعاث والخصوبة، ما تحقق في اسطورة الفردوس، ونجاح الانثى في الدنو المذكر والتعرف اليه وقيادته للاتصال.

واهتمت الجماعات بتخيلات، وانتجت عدداً من الاساطير الفردوسية: الصراع السياسي الفاشي الذي تحول نظاماً كلانياً للدكتاتورية، هو الانموذج الاخطر على حياة الافراد والجماعات. وتتوجه الرواية لمعالجة تلك الازمة التي صاغت اليوميات ، والتعبيرعن ازمة النظام والبحث عن بطولة في زمن خالٍ من القتل والتدمير .

وركز فلاح رحيم، بشكل جيد، على الحديقة، زمن الحرب بوصفها نوعاً من الدمار والقتل واينما وجد فرصة للتلميح لها، اجتهد بذكاء "صادفنا بعض القصف المدفعي العشوائي قرب منطقة امام زاده الايرانية. كان يوماً صافياً وعصره هادئاً. لاحظت ان لون الحشائش الأخضر على جانبي الطريق قد تحول الى صفرة شاسعة. وان الحشائش وقد اصفرت وجفت، صارت تقف بمكابرة صفراء. هذه المرة تعلم انها توشك على الاندثار/ صوت الطبول ص 170//

واجتاح الجفاف الحدائق والاعشاب، وانتشر الدمار في البلاد وهيمن الاحباط على

الافراد و تعطلت الحياة بسبب الفيضان ولم يتمكن "سعد حمد" من الاقتراب من زوجته الا في اليومين الاخيرين. تعطل الذكورة موت، لانه فشل بتغذية ما يمكن ان يتحول اخصاباً وادامة للحياة "الحب والمخيلة في مواجهة ثقل الموت: من لا يمتلكون المخيلة لا يجترحون الحب. وبين الحب والموت عماء الالتباس بين النور والعتمة، بين الخواء والازدهار. الحب هو الذي يقود افعى الموت الى كهف السبات/ باتريك زوسكيند//

موت الحدائق ترميز اختصر موت الوطن. والجفاف يلاحق الجميع في الشركة ويثير الاستغراب، وكأن فلاح اراد عبر ذلك ان يجد سبباً منطقياً عن تعطل الذكورة مع بانيكا حيث واجه الفشل المريع. حتماً كان للمقبرة المجاورة للمكان/ البيت الذي تعرت فيه بيانيكا والعشب المتيبس والحرارة، كلها ذات دور جوهري لاستحضار صور الاب، واستذكار (سليم كريم) الذي كان غائباً .. وبدا فعل التأثير على المشهد الروائي، وتحول فيه جسد سليم الى معطل للزمان والمكان .

استعاد سليم في تلك اللحظة جولته القصيرة مع بيانكا في مقبرة الانبار، امام مكتب الشركة. قالت يومها وهي تحدثه عن اغتيال ابيها العنيف في حادثة تاريخية مماثلة: ان الشواهد الرخامية العالية تقترن بالموت العنيف.

فتنة السرد قوية، وللشعر حضور قوي، لا اعني به المباشر الصوتي، التقليدي، بل الخفي والمستمر، عبر الوسائل الفنية الطبيعية لدى فلاح رحيم؛ حيث اللغة الاقوى تأثيراً وسيادة المجاز، الحديقة، المقبرة، الباب.....

مجازات ضاغطة على المتلقي المبتكر لها، هو الذي حفر وراءها وامسك بها. وهنا مهارة السرد الذي يجعل من المعروف، المألوف عنصراً فنياً يجتاح ذكاء للدنو فيه والتعايش معه. وبذلك تتضح المخيلة بمهارة المبتكر، في اعادة تقديم ماهو اجتماعي وواقعي وتفصيلي، ومنحت لنا منفذاً للقراءة الخاصة باحتمالات الكلام، الممتع بصوت الايقاع الداخلي، وكأنه يستعيد صوت الطبول.

ـ هل نحن اصدقاء؟

ـ بالطبع

ـ لماذا تريد ان تتركنا؟

تطلع في عينيها المتسائلتين العاتبتين واسقط في يده. كان ثوبها يكشف عن فتحة الصدر نهدين مكورين مكتنزين، مست بياضهما شمس الانبار، فأبرزت فتنته، لم ير اي اثر لسهمه عليها. قالت بهدوء فأجاب:

ـ لدي طلب منك ليوم غد

ـ ما هو؟

ـ اريد ان ازور المقبرة المقابلة لهذا السكن، تطلع اليها متسائلاً فأردفت.

ـ لا تسأل لماذا؟

ابتسم واكد استعداده الكامل/ صوت الطبول/ ص105//

المقابر، في اجزاء اخرى من العالم، منظمة بطريقة تطمئن ضمائر الاحياء. ولذا يمكننا ان نجد فيها حياة غنية. نباتات وعصافير، بحيث يشعر الزائر الذي هو الحي الوحيد، بين كل اولئك الاموات، بالانتعاش والطمأنينة، وهو يقرأ على شواهد القبور اسماء اولئك الذين عرفهم وعاش بعدهم. من ودون رغبة منه، يمكنه ان يتصور انه انتصر على كل

واحد منهم في مبارزة بينهما. اكيد انه يشعر بالحزن لفراقهم، ولكنه في الان نفسه، يشعر انه كائن لا يقهر واين، وفي اي مكان اخر يمكنه ان يجد نفسه في مثل ذلك الوضع؟ في اي ميدان اخر، يمكنه ان يظل الكائن الحي الوحيد؟ انه هناك، واقف وسط كل اولئك المطروحين ارضا. وفي الوقت نفسه، تكون الاشجار وشواهد القبور واقفة تنتصب حوله كميراث موضوع لتمتعه وارضاء نفسه، غير انه في تلك المقبرة اليهودية، لم يكن هناك شيء/ الياس كانيتي/ ص 38//

قالت بيانكا: في مقابرنا حرص شبيه، ولكن بعض الناس ممن يموت أعزاؤهم موتاً عنيفاً او ظالماً يقيمون شواهد رخامية عالية. غالباً ما ترتبط هذه بدراما سوداء. هذا ما حدث لقبر ابي مؤخراً. حضرت قبل سفري الى العراق مراحل بناء شاهدة عالية على القبر، بادر اليها نشطاء التضامن بعد مرور اكثر من ربع قرن على مقتله/ صوت الطبول ص107//

كل حدث وفعل ونشاط انساني على ارض البشر، حصل اما بفعل الحب او نقيضه، وعلى حضور الحب او غيابه قامت الحضارات؛ فالغزو والادب وجميع طرز الابداع والابتكار، استحضار للمغيب المنفي المستبعد برعشة البهجة ومتعة التلقي وفرح الانجاز وما صراع الحضارات في احد وجوهه الا تمثيل واقعي لصراع الحب مع الموت كما قال زوسكيند.

اول شيء واجهته بيانكا لحظة وصولها لمقر الشركة ندرة الاشجار وخلوها من النباتات الشاهقة. الان وهي تقف امام المكتب اثار فضولها الفضاء الممتد في مواجهته. سألت عن هوية هذا القفر، فردّ اوليك دون ان يرفع رأسه من صندوق السيارة حيث حقائب بيانكا الثقيلة، ان هذه الفسحة هي مقبرة.

المقبرة اولى العتبات الحضارية الانسانية التي توصل اليها الانسان كما قال لاكان. ابتكر من خلالها نظاماً ثقافياً، تشكلت له تنوعات بدئية، ساهمت برسم حدود ثقافية اولى وضعت القرابات المتخيلة بين الجماعات، ورسمت المقبرة حدود الجماعات وتقاليدها، مثلما ما زالت محفوظات الذاكرة متداولة بين الافراد والجماعات بوصفها محكيات ارادة الذاكرة وخزانها التاريخي.

وعندما تكف الانثى عن احترام جسدها، تتضاءل كينونتها.. وهذا ما واجه سليم مع " بيانكا التي واجهت تناظراً مع الحديقة المجاورة للمقبرة ".

ان الوحدات الرمزية ـ يباس الحديقة/ المقبرة ـ القبور الدوارس/ هي الشواهد المتساقطة/ التي انعكست سلبياً على العلاقة الثنائية بين سليم و"بيانكا" التي خسرت فرصة لذاذة.

فلاح رحيم سارد من طراز خاص، لغته سهلة لكنها مشحونة بالمعاني، عارف الطاقة الخاتلة في اللغة ومبدع للعب بها، ويجعل منها ذات حضور شعري ومجازية مهمة والاشارة الذكية جداً. سرد بيضته الرهافة والشعرية الناضجة من جسد اللغة المنطوقة والتي حلمت بها "بيانكا" وارادت امتداد المفقود.

وجاءت لغة السرد طاقة ملحوظة تعمل على استدعاء الآخر، على الرغم من جفاف

الحديقة والمقبرة معاً.. اعتقد بأن العلاقة مع الجسد الانثوي من اهم العناصر المكونة للسرد ومنذ ابتداءات الحكي المبكر الذي لم يكتف بحكاية قصيرة واحدة، بل امتد عملاً ممتداً في عمق تواريخ ومراحل، ويمكن ان نشير الى الف ليلة وليلة، وكيف تنوعت الملاذات الاولى فيها.

للجسد حضور جوهري مثلما كان في لحظة البدئية الاولى ونجح بدوافع السحر والطقوس والشعائر ان يظل ضاغطاً بتوزيعاته في الشعر والحكي والفن والغناء والرقص. واعتقد بأن فلاح رحيم مدرك لجوهرية المجال الذي يؤديه الجسد، ليس عبر مزاولة الملذات، بل ومن خلال حضوره الثقافي والفلسفي. وهنا يتضح لمن يتابع دور فلاح المعرفي بلاغة الجسد وكشوفه للمتكتم عليها من الرمزيات والمجازات والتي تمر احيانا خاطفة سريعاً، ولا ينتبه لها المتلقي. حتى الثنائية يجب ان يتعامل معها بوصفها سرديات، ليس بأفعالها وانما بمعانيها، لذا اتضحت هذه المتكتمات الدلالية في العلاقة السريعة بين سليم وبيانكا. وانا واثق من مهارة الاستاذ فلاح رحيم ووعيه المعرفي، جعله يتسلل هادئاً نحو الانثى وكأنه ممتلك شحنات سحرية، ويكتفي بواحدة منها، وتتسامى معه الانثى. وينكشف امامه الحب وكأنه ينعكس في المرآة هذا اعني به كون الحب ابداعا، اذا ما بحثت عن الخالق فاذهب اليه عبر المرأة فهي النور الذي يصل السماء بالارض، وكي تتوصل الى جوهر الكون، عليك ان تمر بالمرأة، اي ان تمر بالحب كما قال ادونيس.

حتما تنبه سليم للجزء الضائع، وهذا ما عبّر عنه خلال الصور المدهشة. وامتلاك النصف الاخر/ الانثى هو الفوز بالحياة ومن اجل ان يكون الرجل مكتملاً، بعد حضور الغائب المنشود، وهذا الغياب صدفي، لا يمكن التحكم به، وتكررت تجربة سليم في رواياته، لكني اعتقد بأن صوت الطبول مثير، وبانه شفرة عميقة قالها فلاح وانا اتحاور معه بعد اكمال مخطوطة الرواية، لان تعطل الجسد، توقف عن امتلاكه، وهنا فشل كامن لم تعرفه سرديات فلاح رحيم سابقاً، حيث اعاد الفصل الاخير كتابة مغايرة ومثيرة. بعد حوار مشترك بيننا على المخطوطة. انا مولع بالصديق فلاح ومهتم به منذ بداياته الاولى، وتعرفت الى خصائصه المتميزة وما يجعله متفرداً كونه قادرا على انتاج الافكار والقيم ويرمم بها اخطاء الافراد من خلال السرد.

ونظر الى الانثى بوصفها فعلا من نوع خاص هو ـ الحب ـ الذي نهضت عليه حضارات سومر واكد والشرق الادنى وشواهد ذاك كثيرة، حتى اعتنى الالهة بالجنس وتحول طقس خاص، حيث ينوب الملك عن الالهة ويزاول عمله امام رعيته وسط احتفال وطقس من اعظم ابتكارات البنية الذهنية العراقية القديمة.

ترك الباب مفتوحاً، يعني احتمال الدخول، لان الفعل مفتوح على ما تريد الذهاب اليه مع سليم. وبقاء الباب يواجه عشتار المعروفة بشبقها وشهوتها اللذية، مثلما لكل الالهة الانثوية الاغريقية. باب لكل منها، هذا ما اشار له الباحث الانثولوجي باسكال ديبي بعمله الموسوعي (الباب) كم مرة في الايام

لفظنا هذه الكلمة وكم مرة في اليوم عبرنا بابا؟ فما هو الباب والى اين يفضي بناؤه، وما هو سلوك ومخيال وطقوس وحدود واجراءات العبور الى الحياة الاخرى .

ان اللغة السردية عبرت عن رموز الجسد المتناهية: اللغة قادرة على الغور فيه والتمكن من الوصول الى اعماق المتناهي

الابواب المحفوظة بالذاكرة التي اجتزناها ونحن نحمل لذائذ احلامنا.

سألته بعد ان اتى على تفاصيل مبادرته البدائية مع هدى:

ـ هل تعني انك لم تمسّها او تقبلها حتى النهاية؟ تدرك لأنه لم يكن غراماً من النوع الذي يجمع الانوثة بالذكورة، ويتوج بالقبلات والعناق.

ـ هل تعني انك لم تمارس الجنس حتى هذه اللحظة.

ـ نحن في العراق بيانكا ولسنا في اوربا.

..... هناك اشخاص يفتحون اعينهم اثناء التقبيل ليروا الانطباع على وجه شريكهم في القبلة، هؤلاء لا اثق بهم

صوت الطبول / ص91//

شفرة "بيانكا" التي استلمها سليم سريعاً، دعوة الجسد المزدهي بزهوره الملونة وعطورها. لكن الاضطراب الداخلي والانشداد النفسي وسط ارتباك الوضع العام، وسط البيت وعلاقات الاصدقاء في ما بينهم اثار مكامن في داخله، وكل ما استمع له من احاديث كانت فيها هنات، مثل مقترح والدته للزواج من علياء التي تركها السرد وسط مصير مجهول.

للصور احتمالات، ذات تحليل سحري، تقليدي متعارف عليه، وانقطاع خيط المسبحة استشراف نبوي لموت كريم، الذي غادر البيت تماما وظل حاضراً عبر الاستعادة وبكائيات علياء ومراثي الام الموجوعة، ذلك ان وجود الانسان هو وجود جسدي، فالمسبحة عنصر من مكونات الانا. واحد العناصر اللحظية التي تصوغ ملمحا ايقونيا بارزا. وللمسبحة الوان وانواع عادية وثمينة، وهي مجوهرات ايضا، دورها تسلية ومساعدة على استعادة الطقوس، حتى النساء يزاولن عشق المسبحة وبالتالي تصير قلادة تمتد بالشق وسط صدرها. انقطاع خيطها، تفكيك للانتظام والبناء والموحد للمكونات وهي علاقة شؤمية في تأويلات الفعل الشعبي وسحرياته، وفقدان خرزة شفرة غياب مفاجئ مثلما حصل مع كريم.

رفعت ذراعيها تدعوه فارتمى قربها واستقبلته بين ذراعيها، كانتا بارزتين مرة اخرى، او هكذا احس بهما. استقبل جسده ليونة جسدها ونعومته وشهق فجأة، فلم تطبقه وظل رأسها يرتمي على كتفيه، وكيانها بكل ما فيه من فتنة وغواية منشغل بكيانه بثقة تصل/ حد العناد لم تقبض على الفراش الا عضلة القلب المحزون، وهمست "بيانكا " بصوت زاده الحنان عذوبة:

ـ لا تقلق يحدث هذا كثيراً/ ص364 ـ365//

فلاح رحيم سارد متميز، مغامر كعاشق، مجازف في سعيه نحو الوقائع المتحركة، كل في روايته غير ثابت الا البطولة والشجاعة، بمعنى ديمومة الموت وتكرره باستمرار، رمزياً وعضوياً ولشخوصه سمة الانفتاح،

ولها سيرورات تقودها باتجاه ما يماثلها.

وبودي ان اقول ان اكثر ما يتعب علاقتي مع سرديات فلاح هو اليوميات الطويلة التي تعيد تكرر المتماثل كأجواء الحب. لكنها بالمفهوم العام ترشح عن مجازات تلوح للبدئية في الوقائع والاحداث.

ان الرواية توصلت الى ملمح بنائي ثابت، مهارته في اللعب والدوران وابتكار القيم الدلالية في مشاهد يومية تنضج من خلال ذكاء التعامل معها. فالعودة للأرض بما تعنيه رمزياً واستعارياً، وكانه ينوه بلحظتها البدئية، فلا وجود لما هو مهم غير الجسد، وسط الاشتغالات الفنية، وتسارع ما بعد الحداثة، جعلت الاله الهاً كما قال هابرماز وبتصنيع العلم، لوثته وشوهته وعطلت طاقاته التي كان يتفجر ماء قلبه، عندما كانت الأرض هي الجسد الأكبر والممتد بعمقه وطاقته، وغير القابل بالإخضاع.

ان الباب هنا مجاز ومعانيه متنوعة، هي منفذ الدخول للمعرفة، او هي الدال الى غرفة مظلمة ايضا وعلى وفق التصورات السحرية، كي تكون الحياة، قد منحت بابها للعريس، ويعيش فيها موفور الجسد والرزق.

ما زالت الذاكرة الواعية واللاوعية تعتقد بأن لحظة القوة اثناء الباب ساعدت على تحقق احلام الزوج وزوجته/ ناجح المعموري/ تمثيلات الانثى العارية/ مخطوط //

الابواب تعبير عن الثقافات. لم تتوقف كل ثقافة عن اختراع الباب، وعن استخدامه بطرق شتى لتجعل منه رمزاً معقداً لأسعد الحالات في تقاليدها وفي إبداعاتها. اليوم تشفر الابواب وتتماثل كما قال باسكال ديبي.

وحين سحبته من يده الى غرفة النوم ، كان ضياء الشمس يحوم على جدران الغرفة لتصبح شريطاً صغيراً عن طريق حركة خاطفة سقط الثوب على الارض واصبح تحت قدميها، وانكشف امامه كل عريها الساطع كالمفاجأة... وراح يتأملها عارياً قبل ان يرتمي قربها.

تبدّى هذا العمل السيري الطويل عن صمت عدد من الشخوص ذات الحضور الجوهري مثل شهاب وكريم وهدى. واتضح بأن الموت احد اسباب التغيب او الزواج مثل هدى وكريم، لكن صمت علياء في صوت الطبول من بعيد، سيعاود حضوره فيما سيكون في امتداد سردي اخر.

*** ناقد وباحث/ رئيس اتحاد الادباء والكتاب في العراق**

بيروت - الحمرا - فندق موزارت

محمد حيّاوي

أومليت إمّ فادي وأهْوة إمّ طارئ.
كلُّكم أوجعتم قلبي يا أصدقائي.
ليتني لم أعرفْكم. ليتكم لم تسْحروني!
وللمدنِ ألفةٌ خاصّةٌ، غير العاطفة التي تربط أبناءَها بها. فالمدن، كأمكنة، تبتكر روائحَها وغوايتَها للغريب بطريقةٍ غامضة. وقد تُختزل تلك الألفةُ بمكانٍ صغيرٍ، أو مَلْمحٍ بسيطٍ، أو امرأةٍ عابرةٍ، أو واقعةٍ عاديّةٍ لا تلفت الأنظار.
تقول صديقةٌ بيروتيّة:
ـ الحمد لله أنّك زائرٌ دائمٌ لبيروت، ولستَ مقيما فيها.
ـ لماذا؟
ـ كي تتمتّعَ باكتشافها في كلّ زيارة، وتبقى عاشقًا لها طوالَ العمر.
الملامح التي تُدهشني كلّما زرتُ بيروت قد لا تُدْهش ساكنيها، لأنّهم ـ ببساطة ـ قد اعتادوها، حتى أصبحتْ بالنسبة إليهم غيرَ مرئيّةٍ، أو مكرَّرةً، أو يوميّة.
أكثرَ من مرّةٍ حاولتُ أن أكسرَ نظريّةَ صديقتي البيروتيّة. لكنّني لم أتمكّنْ من ذلك لأنّ أطولَ مدّةٍ لي في بيروت كانت شهرا.
اعتدتُ، في كلّ زيارةٍ إلى بيروت، الإقامةَ في فندق موزارت. الفندق صغير، وهو يقع على ناصية شارع الحمرا من جهة الروشة، حيث ينحدر الطريقُ قليلًا ويتفرّع إلى

مسْربيْن: اليسار صعودا باتّجاه الروشة، واليمين نزولا حيث محطّة تعبئة البنزين وفندق موزارت.
لم يكن الفندقُ في الحقيقة استثنائيًّا، لكنّه نظيفٌ وحميمٌ ويتمتّع بكافيتيريا صغيرةٍ تُطلّ على الشارع الهادئ نسبيًّا، حيث يخفّ زحامُ الحمرا، ويتراجع صخبُ السيّارات وهديرُ الباعة.
قد لا تصدِّقون أنّ تلك الكافيتيريا الصغيرةَ والحميمةَ، ذاتَ التّراسِ الصيفيّ المغطّى ببعض العرائش، هي التي تجعلني اختارُ هذا الفندقَ، على الرغم من أنّ أصدقاء كثيرين دعوْني إلى فنادقَ أكثرَ رفاهيةً؛ فأنا لا أحبّ الإقامةَ في بناياتٍ تقع على شوارع صاخبةٍ وأزقّةٍ مكتظّة.
في كافيتيريا فندق موزارت المهادنة، اعتدتُ تناولَ فطوري الصباحيّ. هناك، أتمتّع بطعم الزيتون البلديّ، واللبنةِ الطازجة، والزعترِ

الجبليّ - ـ تلك الأشياء التي أفتقدُها طوالَ العام في هولندا، إلى أن تحين زيارتي إلى بيروت. ولعلّ الأمر الذي زاد من حميميّة الفطور الصباحيّ هو وجودُ إمّ فادي، بكسر الألف، لا بضمِّها، كما يحلو لها أن تسمّي نفسها.

وإمّ فادي، هذه، سيّدةٌ في الخمسين، قُتل زوجُها في الحرب الأهليّة، وهاجر أبناؤها إلى أمريكا والبرازيل. لكنّها سيّدةٌ ضاحكةٌ وفكهةٌ وحيويّةٌ، على الرغم من ذلك كلِّه. تعرّفتُ إليها ذاتَ صباح عندما وجدتُ، على مائدة الفطور، البيضَ المسلوقَ الذي لا أحبّذُه، فسألتُها عن إمكانيّة عمل "أومليت" خاصٍّ لي، ولو تطلّب ذلك دفعَ ثمنه. ابتسمتْ أِم فادي وقالت:

ـ ائعُودْ (اِجلسْ) بالمحلّ يللي بتحبّو، وهلّأ جابيك الأومليت.

من يومها، صارت أِمّ فادي تعمل لي الأومليت خصّيصًا كلّما رأتني داخلًا. مرّةً بالزبدة، وأخرى بالزعتر، وثالثةً بالمربّى، لكنّه يبقى في جميع الحالات أومليت إمّ فادي الذي لا يُضاهى، والذي لا آكلُه إلّا في بيروت. هذا ناهيكم بالزيتون البلديّ، والمناقيش بالجبنة. وهي في كلّ مرّةٍ تضع على الطاولة كاسةً صغيرةً فيها بضعُ حبّاتٍ من الزيتون الأخضر المشقوق المنقوع بالزيت، وتطلب منّي - بابتسامتها المهادنة - تذوُّقَه:

ـ دِنْلي هالزيتونات.

***

للأمّهات في بيروت رائحةٌ مميّزةٌ وسحرٌ خاصّ. أو قل إنّ لهنّ هالةً سحريّةً، لا يُدرَكُ كنهُها، وتشعرُ معها - أنت الغريب على وجه الخصوص - بالانتماء إلى تلك المدينة الكبيرة.

مرّةً، كنتُ أسير سريعًا في جولتي الصباحيّة المبكّرة في الشوارع الخلفيّة المجاورة لفندق موزارت. التبستْ عليّ الأزقّةُ المنحدرةُ كلُّها باتجاه الروشة. وأنا في غمرة حيرتي، لمحتُ سيّدةً مسنّةً تجلس في شرفة بيتها الصغيرة، شبهِ الأرضيّة، تحت ظلّ شجرة، وهي تتناول قهوتَها. اقتربتُ منها على استحياء:

ـ صباح الخير، مَدام.

ـ أهلين، صباح النّور.

ـ أيّ الطرق توصل إلى الحمرا؟

ابتسمت السيّدة وقالت:

ـ من وين الشبّ؟

ـ من العراق.

ـ أهلا وسهلا والله. مبيّن عليك تعبان شويّ.

ـ نعم. اعتدت الخروج بجولة صباحيّة قبل تناول فطوري، فلقيت الأزقّة في صعود متواصل.

ـ طيّب بروِمْ بروِمْ حدّي، تا أعملك أهْوة، وتاخُدْ نفسَكْ شويّ.

قلتُ متردّدًا بخجل:

ـ لا شكرًا لك مَدام. عليّ العودة إلى الفندق.

ـ يا عمّي بروم شو بيكْ؟ هيّيتو الفندق هونيك. شرابْ أهِوْتَك وروحْ.

بقيتُ متحيّرًا أمام إصرار السيّدة الطيّبة. لكنّني "برمْتُ" وجلستُ إلى طاولتها الصغيرة، بينما دخلتْ لتحضِّر لي فنجانَ قهوة.

كانت ريحُ الصباح النديّة تداعب أغصانَ الشجرة الوارفة فوق رأسي، فتثير حفيفًا طريًّا، وتبعثر نسماتِ الهواء العليلةَ من حولي. ناهيك برفيف العصافير العابثة في قلب الشجرة، وزقزقتِها الآسرة. تساءلتُ في سرّي: أيّ صباح رحيم هذا، وأيّ عزلةٍ حميمة، وأيّ قناعةٍ وطيبةٍ ورضًى لدى تلك السيّدة!

وإذ بصوتها يأتيني من الداخل:

ـ أهِوْتك حلوه مش هيك؟

فهتفتُ باندهاش:

ـ نعم حلوه.

وعندما عادت ووضعت الفنجانَ الصغيرَ على الطاولة أمامي، سألتُها بتردّد:

ـ كيف عرفتِ أنّ قهوتي حلوة؟

ـ أي بعرف. كلّ العِرائيّة (العراقيين) بيشربوها حلوة.

ـ ذلك لأنّنا غُشماء في شرب القهوة!

ـ لا. لأنّكم بتحبّو كلّ شي حلو. أبو طارئ (طارق) كان يشربها هيك، فديت اللي خلأو.

لم أعلّقْ، ولم أسألْها عن "أبو طارئ" هذا، على الرغم من الفضول الذي انتابني. ارتشفتْ من فنجانها، ووضعتْه على الطاولة، ثم أطلقتْ زفرةً طويلة. بدا أنّها قرأتْ ما يجول في خاطري، فقالت مبتسمةً:

ـ زوجي أبو طارِئ كان عِرائي.

ثم صمتتْ قليلًا كأنّها تريد رؤيةَ وقعِ الخبر عليّ، قبل أن تردف:

ـ استشهد بفلسطين!

كانت امّ طارق، وهذه هي كنيتُها التي عُرفتْ بها فيما بعد، تَنْشط في العمل الفدائيّ من بيروت أبّان السبعينيّات. آنذاك، تعرّفتْ إلى أبي طارق، الذي لم تشأ ذكرَ اسمه كاملًا لعهدٍ قطعتْه على نفسها بأن لا تبوح بأسرار التنظيم، على الرغم من مرور أكثر من خمسين سنةً على استشهاده!

وكان أبو طارق شابًّا عراقيًّا متحمّسًا، أسمرَ البشرة، وذا شعرٍ طويل "ملفلف" على رأي امّ طارق، ولِحيةٍ طويلة. وكان قد ترك دراسةَ الهندسة في جامعة بغداد، وجاء إلى بيروت متطوّعًا في العمل الفدائيّ. وذاتَ ليلةٍ صيفيّةٍ رائقة، في مكانٍ ما من المرتفعات التي تحيط بالنبطيّة في جنوب لبنان، احتفى بهما رفاقُهما وأعلناهما زوجًا وزوجةً على وفق الشرعيّة الثوريّة، على الرغم من اختلاف دينيْهما، بعد قصة حبٍّ سريعةٍ تشابكتْ براعمُها حول قلبيْهما الغضّيْن.

على أنّ تلك الليلة التي دخلا فيها خيمةَ عرسهما كانت الليلةَ الأولى والأخيرةَ: فقد تسلّل أبو طارق في الفجر التالي مع ثلّةٍ من رفاقه نحو الجليل، ليفجّروا خزّانَ وقودٍ كان يتجهّز منه جيشُ الاحتلال. وحدثتْ مواجهةٌ بطوليةٌ بين الفدائيّين السبعة وعشراتِ الجنود الإسرائيليين، سطّر فيها الفدائيّون ملحمةً بطوليّةً، واستُشهدوا بعدها جميعًا.

تلك الليلةُ البعيدة، الممزوجةُ باللوعة واللهفة والحبّ والذكريات، أثمرتْ "طارق" الذي كان نسخةً طبقَ الأصل من أبيه... سوى أنّ لونَ بشرته أبيضُ، وقد ورثه من أمّه.

***

ذاتَ يوم، أثناء قيلولتي في غرفتي بالفندق، اتّصلوا بي من الاستقبال، وأخبروني بوجود

ضيوفٍ يودّون مقابلتي.
استغربتُ الأمر، إذ لم يعرفْ بمكان إقامتي في فندق موزارت سوى القليلين جدًّا من الأصدقاء، وهؤلاء أغلبُهم يعرفون رقمَ هاتفي. ارتديتُ ملابسَ صيفيّةً خفيفةً ونزلتُ. لم يكن في صالة الاستقبال أحد. وعندما سألتُ موظّفة الفندق، أخبرتني أنّ فتاةً تجلس في الكافيتيريا تودّ مقابلتي. وهناك، هرعتْ نحوي صبيّةٌ حسناءُ غايةٌ في الجمال والرقّة، ذاتُ شعرٍ أسودَ مجعّدٍ ومنفوش، حول وجهها البيضويّ الجميل مثل هالةٍ سحريّة، وقوامٍ ممشوقٍ زاده فتنةً قميصٌ رياضيٌّ من دونِ كمّيْن، طُبعتْ عليه صورةُ الثائر جيفارا.
اقتربتْ منّي مبتسمةً وهي تمدّ يدَها لتصافحَني. وما إن استقرّتْ كفُّها الصغيرةُ في كفّي، حتى قالت بحماس:
ـ أهلين إستيز محمّد. أنا ريم طارئ.
رحّبتُ بها ترحيبًا حارًّا، وجلسنا نتبادل أطرافَ الحديث في مكاني الأثير في ركن الكافيتيريا تحت شجرة الصفصاف الصغيرة، والدهشةُ لا تفارقُني. ورحتُ أتساءلُ في سرّي: أيعقل أن تكون هذه الملاكُ حفيدةَ أمّ طارق، صديقتي الفدائيّة المتقاعدة وسيّدةِ العصافير والقهوةِ الصباحيّةِ الرائقة؟ وإذا كانت كذلك، فكم أخذتْ من أبيها وجدّها أو جدّتها يا ترى كي ترثَ هذا الجمالَ كلّه؟
انتشلني من دهشتي صوتُها الرقيق:
ـ ستي قالت إمرئي (مُرّي) لعند استيز محمّد في الأوتيل وادْعيه على العشا الليلة عنّا، إزا ما في عندو التزيم تيني (التزام ثانٍ).
***
كان أبو جورج الشوفير يَسكن في إحدى الضِّياع القريبةِ من بيروت. وقد نقلني ذاتَ ليلةٍ ماطرةٍ من مطار رفيق الحريري إلى فندق موزارت، فصار صديقي: كلّما احتجتُ إليه أتّصلُ به فيَحْضر، أحيانًا من الضيعة البعيدة، خصّيصًا كي يساعدَني على قضاء بعض المشاوير.
ذاتَ يوم، سألتُه إنْ كان يعرف محلًّا يبيع زعترًا جيّدًا لآخذَه معي إلى هولندا فيكفيني مؤنةَ الشتاء هناك، ولا سيّما أنّني لا أتخيّلُ يومي من دون حضور الزعتر والزيت واللبنةِ والبيض على مائدة فطوري الصباحيّ.
ـ هلّأ شو بدّك فيهم هيدول المحلّات؟ كلّن بيغشّو!
ـ حسنًا يا أبو جورج. وما العمل إذًا؟
ـ لا تعتلْ همّ. أنا بجبلك شويّة زعترات من اللي ألْبك (قلبك) بيحبّن من عنّا من الضيعة.
أُسقِط في يدي، ولم أشأ أن أخبرَه بأنّني أريد كمّيّةً كبيرةً تكفيني شتاءً كاملًا، وأنّني أريدُه من النوع المُلوكيّ، بحسب رأي المَدام، مخلوطًا بالسمسم المقليّ والسمّاق والفستق الحلبيّ، بمقاييسَ محسوبةٍ لا يعرفها إلّا المتخصّصون في الزعتر. لكنّني أذعنتُ لرغبته في النهاية، وأعطيتُه مائة دولار ثمنَ الزعتر الذي سيُحْضره لي. وعلى الرغم من أنّه استكثر المبلغ ورفض استلامَه أوّلَ الأمر، إلّا أنّني أصررتُ على أن يأخذه.
***
كان فندق موزارت يتمتّع بميزاتٍ فريدةٍ في الواقع. من هذه الميزات أنّ مصبغةً صغيرةً

يديرُها حسن، ابنُ الضاحية الجنوبيّة، لا تبعد عنه أكثرَ من مائة متر، وأنّ محلَّ "مناقيش أبو فادي" لا يبعد عنه سوى مائتيْ متر، وما بينهما تقع "أسواقُ الرائد" التي أبتاعُ منها العرقَ والخيارَ واللبنَ البلديّ والثلجَ والليمون. في هذه الأسواق تعمل ياسمين، وهي فتاةٌ سوريّةٌ صودف أنّها تحبّ رواياتِ حنّا مينه. وهناك أيضًا تعمل سامنتا، وهي عاملةُ خدمةٍ فلبينيّة، تتكلّم الإنجليزيّة بطلاقة. ناهيك بمكتبةٍ صغيرةٍ أشتري منها الصحفَ، لا تبعد أكثرَ من خمسين مترًا عن الفندق.

ذاتَ معرضِ كتابٍ في بيروت، زارتني ياسمين وسامنتا، فابتعتُ نسخًا من رواياتي وأهديتُهما إيّاها، فضلاً عن نسخةٍ من رواية ايلينا فيرّانتي، صديقتي المذْهلة. ثم دعوتُهما إلى تناول فنجان قهوة في كافتيريا المعرض. هناك، لمستُ امتنانَهما وسعادتَهما، لاسيّما حين اعتذرتُ من مراسلة BBC التي طلبتْ إجراءَ لقاءٍ معي عن روايتي الأخيرة بحجّة "انشغالي مع ضيوفي."

***

في جولةٍ جبليّةٍ بسيّارةٍ مستأجَرة، شعرتُ بالجوع، فبحثتُ عن مطعم في الأرجاء، إذ طالما سمعتُ عن مطاعمَ جبليّةٍ في لبنان تقدِّم أشهى المأكولات البلديّة. فلم أجد أيًّا منها.

ثمّ اهتديتُ إلى عريشةٍ من العنب، تحتها أريكةٌ وطاولةٌ صغيرةٌ، وقربهما كُدّستْ صناديقُ كوكاكولا فارغة.

ركنتُ السيّارةَ ونزلت. وحالما جلستُ، حضرتْ سيّدةٌ مرحة، رحّبتْ بي بحرارة، فشكرتُها وطلبتُ منها وجبةَ طعام - - أيَّ وجبةٍ أسدُّ بها جوعي إلى حين نزولي إلى بيروت.

ابتسمت السيّدة، وعادت أدراجَها إلى الداخل. وبعد لحظات، حضر رجلٌ عجوزٌ غايةٌ في التهذيب، بشاربٍ جبليّ معقوف، ووسامةٍ قديمةٍ ارتسمتْ بقاياها على ملامحه المتناسقة. رحّب بي ترحيبًا حارًّا. وسرعان ما أحضرت المرأةُ طبقَ سلطة كبيرًا وصحنَ زيتون. غاب العجوزُ في الداخل من جديد، في حين ظلّت المرأة تحدّثني عن الطقس وهواءِ الجبل الذي يشفي العليلَ، وهي تقلّب حزمةَ زعترٍ أخضر مشرورٍ على دكّةٍ قريبة. دقائق، وعاد العجوزُ وهو يحمل دورقًا صغيرًا وقدحيْن، وضعها أمامي على الطاولة، وقال بفرح:

- دِئلي هالعَرْقات.

وراح يسكب لنا العرقَ الممزوجَ بالماء - "متلّت" - في القدحيْن الصغيرين. وبعد نصف ساعةٍ من السمَر وحديثِ الرجل عن أخطاء صدّام حسين وخيانةِ العرب وبيعِ فلسطين، أحضرت السيّدة طاجن دجاجٍ محمَّرًا بالفلفل والباذنجان. فكان مساءً لن يُمحى من ذاكرتي ما حييتُ - - نظرًا إلى روعة المنظر المُطلّ على المتوسّط من بعيد، ونعومةِ الهواء العليل، ولذّةِ ذلك العرق، وطاجنِ الدجاج بالفلفل والباذنجان، وطيبةِ ذلك العجوز وتلك السيّدة المرحة زوجتِه.

عندما هطل المساءُ وحانت ساعةُ النزول إلى بيروت، أخرجتُ محفظتي طالبًا الحسابَ. كنتُ منتشيًا غايةَ الانتشاء، حتى

لا أقولَ سكرانًا. ضحك الرجل والمرأة وتبادلا النظرات، وارتسمتْ ملامحُ الدهشة على وجهيْهما. ثم أعادا محفظتي إلى جيبي، ودفعاني إلى السيارة دفعًا، وطلبا مني المغادرةَ والقيادةَ بحذرٍ في المنعطفات.

قال العجوز وهو يودِّعني مبتسمًا:

ـ هيك عرفت الطريق إلْنا. أنا أسمي فوزي العتال، أبو سامي. مرحبًا بك في أيّ وقت.

نزلتُ الجبلَ بتأنٍّ وأنا ألوم نفسي على الحماقة التي ارتكبتُها حين ظننتُ أنّ ذلك البيتَ المهادنَ الرابضَ في عطفة الجبل مَطعم.

***

لم يعرف الجميعُ سرَّ الدّمِ النازفِ من رأس ريم: أكان دمَها، أمْ دمَ الجرحى الذين ساعدتْهم؟

فعلى الرغم من أنّ أحدَ المُسعفين تفحّص رأسَها غيرَ مرّةٍ من دون أن يرى أثرًا لأي جرح، فقد استمرّ الدّمُ في التدفّق.

طبيبةٌ شابّةٌ طلبتْ من ريم الكفَّ عن إحضار الجرحى، والاستلقاءَ على سرير الفحص. وعندما لم تجد مكانَ النزف هي أيضًا، طلبتْ من مساعِدةٍ قريبةٍ إحضارَ ماكنة حلاقةٍ لإزالة الشعر. لكنّ ريم رفضتْ حلقَ شعرها، وطلبت منهم تضميدَ رأسها إلى حين انتهائها من مساعدة الجرحى الذين تكدّسوا أمام المستشفى.

كانت الضمادةُ تمتلئ بالدم الذي بات يسربل وجهَ ريم وكتفيْها. وبدأتْ قوّتُها تخور، وعزيمتُها تضعف، حتى انهارت مغميًّا عليها.

سارعت المساعِدةُ إلى تفحّص رأسها. لكنّ كثافةَ شعرها الجميل حال دون معرفة مكانِ الجرح، قبل أن تُضطرّ إلى حلاقة مربّعٍ صغيرٍ فوق أذنها اليمنى. كان جرحًا غايةً في الصِّغر، لكنّه عميق، كما لو أنّه ثقب شريانًا في جانب رأسها.

نظّف المسعِفون الجرحَ من بقايا الزجاج، وضمّدوه بقطعة شاشٍ وشريطٍ لاصقٍ لأنّهم لم يستطيعوا رَتْقَه لصِغر حجمه.

في المساء، عندما استيقظتْ ريم من غيبوبتها، سألتْ ـ أوّلَ ما سألتْ ـ عن جدّتها أمّ طارق التي ما فتئتْ تهاتفها منذ ليلة امس.

***

في فندق موزارت أخبرني الأصدقاء بأنّ إمّ فادي لم تأتِ منذ ثلاثة أيّام. حين هاتفتُها في اليوم الرابع، جاءني صوتُها واهنًا:

ـ الحمد لله، نحنَ بخير. شويّة جروح بالوجّ والرَّأْبة. بس البيت تكركَب، وانقلب فوْآني تحْتاني. الله ستر. ما مشيت للأوتيل والله من تلاتيّام؛ قالوا ما في نُزَلا، كلّن هربوا. مين بيجي لبيروت بهيك وَئِتْ؟

ـ فداكِ الأوتيل والنُّزَلا يا إمّ فادي. المهمّ صحّتك. سلامتك ألف سلامة.

فجاءني صوتُها، باكيًا هذه المرّة، بعد أن نفدتْ ذخيرتُها من التظاهر بالقوّة:

ـ ولكْ ليش عم بيصير فينا هيك؟ ليش؟ ما بدّي إفئِد إيماني بالعدرا، بس والله كتير هيك. كتير يا ربّي!

وبعد تنهّدٍ ونشيج، أردفتْ:

ـ بعتذر يا محمّد. عن جدّ بعتذر. وجّعتلك ألْبك. ما أبشعني!

***

أوجعْتِ قلبي يا إمّ فادي. أوجعتم قلبي، أنتِ وبيروتُ والأصدقاء والأماكنُ والذكريات وطيبةُ النفوس والناس الملائكة التي تمشي على الأرض. كلُّكم أوجعتم قلبي يا إمّ فادي. فأنا لا أتخيّل وجهَكِ الصبوحَ الأبيضَ، مثلَ شريحة الجبنة، يُمزّقُه الزجاج. لا أتخيّل بيروتَ، ابنةَ الآلهة، التي تدلّي قدميْها في المتوسّط بغنجٍ ودلالٍ منذ قرون، تُمزَّق بهذه الطريقةِ البشعة.

لا أتخيّلُ العالمَ من دون بيروت. ولا أتخيّلُ بيروتَ من دون فندق موزارت. ولا فندقَ موزارت من دون كافتيريته الحميمة. ولا كافتيريته تلك من دون ابتسامتِكِ ونكاتِكِ والأوموليت بالزعتر من يديْكِ الرقيقتيْن ونفَسِكِ الطيّب.

أوجعتم قلبي يا أصدقائي الطيّبين في بيروت. كلُّكم أوجعتم قلبي بنبلكم وجمالِكم.

أوجعتِ قلبي يا إمّ طارئ وأنت تتباهَيْن ببقايا الحُسن القديمِ في وجهك حين تشربين قهوتَكِ تحت شجرة الدرّاق الوارفةِ في الصباحات الرائقة لتُحْيي ذكرى أبي طارئ وملامحه ووجهه الوسيم وأنفاسه العطرة التي تعيشين على ذكراها.

أوجعتَ قلبي يا أبا جورج وأنا أبحث عن وجهِكَ بين الوجوه الملهوفة التي تظهر في التلفزيون وهي تبحث عن أحبّائها. أتخيّلُكَ وأنت تحتضن لينا الغاليةَ بين ذراعيْكَ، وتمسح الدماءَ والترابَ عن وجهها الجميل، لأنّها - لحسن الحظ - لم تكن وقتَها أمام النافذة، بل في فراشها تستمع إلى فيروز.

نعم أوجعتَ قلبي يا أبا جورج؛ فليتك لم تُحضرْ تلك الحقيبةَ الكبيرةَ المعبّأةَ بالزعتر والزيت والفستق والسمّاق والسمسم والعسل البلديّ، لتُقْنعني بأنّ كلَّ هذا بمائة دولار يا صديقي.

أوجعتَ قلبي يا أبا سامي وأنت تنظر - بعينيْن باكيتيْن من فوق الجبل - إلى حبيبتك بيروت تأكلها النّارُ وتجتاحها عاصفةُ الفراغ المهول. نعم أنتم بخيرٍ "فوْق،" لكنّكم متلهفون على أبنائكم وبناتكم الذين يسكنون بيروتَ ويعملون فيها، لعلّ اتّصالًا من أحدهم يطمْئن قلوبَكم الملتاعة.

كلُّكم أوجعتم قلبي يا أصدقائي في بيروت. فبيروت ليست ككلّ المدن. ليست كلُّ المدن في ظهرها شامٌ، وتنبت في خاصرتها فلسطينُ الجريحة. ليس في كلّ المدن فيروزُ، ولا كلّها خَطَتِ العذراءُ على أديمها وسهولِها وجبالِها وخطرتْ فوق بحرها. ليس في كلّ المدن صخرةُ طانيوس، ولا سنُّ الفيل، أو عينُ الرمّانة، أو مار مخايل، أو الجمّيْزة. وأخيرًا، ليس في كلّ المدن ريمُ الصبيّة، التي اغتسل الجرحى بعرقها الطّهُور، وتخضّبتْ جدرانُ المستشفيات وأسرّتُها بدمائها وهي تصرخ في وجهِ مَن يحاول إسعافَها:

- ولكْ تركْني مُوت، بس خلّيني ساعِدْ هالعالم هَيْ!

ضربة شمس

للكاتب الروسي: إيفان بونين
ترجمة: د. جودت هوشيار (عن الروسية)

كانا قد فرغا من تناول العشاء، فغادرا قاعة المطعم الباهرة الأضواء، وتوجها الى ظهر السفينة، حيث اتكآ بمرفقيهما على سياجها. أغمضت هي عينيها، أراحت خدها على ظاهر كفها، وضحكت، ضحكة ساحرة غير متكلفة. كان كل شيء جميلاً في هذه المرأة الصغيرة – ثمّ قالت:

- يبدو أنني ثملة... من أي سماء هبطت الي؟ منذ ثلاث ساعات فقط، لم أكن أحس لك وجوداً، بل اني لا اعلم من اي ميناء صعدت الى السفينة. أكان ذلك في "سمارا"؟ على اية حال هذا لا يهمني.... أحس برأسي يدور، ام أن السفينة هي التي تدور؟

كان أمامهما ظلام، وراءه أنوار.. ومن الظلام هبت على وجهيهما نسمات قوية ناعمة. بينما مرقت الى جوارهما الأنوار.. كانت السفينة تدور حول نفسها في عرض الفولجا، وهي تقترب من مرسى صغير. فتناول الملازم يد المرأة، ورفعها الى شفتيه. كانت بشرة اليد الصغيرة القوية تحمل رائحة وأثر حمّامات الشمس والصيف. فقفز قلبه بين ضلوعه، نشوة وأسى، وهو يتصور ان تحت هذا الثوب من التيل الخفيف جسداً دافئاً مدبوغاً بسمرة شمس الجنوب بعد حمّامات شهر كامل فوق رمال البحر الساخنة! (قالت أنها قادمة من أنابا). وغمغم الملازم:

- هيا بنا ننزل

فسألته في دهشة :"الى أين؟"

- في هذا المرسى

- لماذا..؟

لم يجب. ومرة أخرى أراحت خدها الساخن على كفها

- انك مجنون...!

- هيا بنا ننزل.. أتوسل اليك!

- آه، افعل ما يحلو لك، - وأشاحت بوجهها عنه.

واصطدمت السفينة بالرصيف ذي الضوء الخافت، صدمة خفيفة، أحدثت صوتاً مكتوماً، فكاد أن يقع أحدهما على الآخر. وتطاير طرف سلك من أسلاك السفينة فمرق فوق رأسيهما. ثم تراجعت الباخرة الصغيرة الى الوراء قليلاً، واصطفقت عند مؤخرها أمواج النهر وتطاير رشاشها وصلصل سلم السفينة، وهو يطرح بين البحر والبر، فمضى الملازم ليأتي بالحقائب.

وانتهت بهما السقالة الى خيمة المرسى المتداعية. ثم وجدا أقدامهما تغوص في الرمال. وصعدا صامتين الى عربة حنطور يكسوها الغبار. ومضت العربة تتسلق بهما الطريق الصاعد، الذي تتخلله على مسافات متباعدة أعمدة المصابيح المائلة. ويغطي أرضه التراب الناعم.

وبدا الطريق طويلاً، لا نهاية له.. وأخيراً بلغت العربة القمة، فدرجت فوق شارع

مرصوف، يفضي الى ميدان عامر ببعض الأبنية الحكومية، وببرج حراسة، ودفء وروائح ليلة من ليالي الصيف في بلدة من بلاد الأقاليم.

وتوقفت العربة أمام مدخل مضاء، تبدو في داخله من خلال الأبواب المفتوحة على مصاريعها سلم خشبية قديمة صاعدة بشكل حاد، تقود الى الطابق الثاني للفندق. وأقبل خادم مسن غير حليق، يرتدي قميصا وردي اللون ومعطفا. فحمل حقائب القادمين – في شيء من التأفف – وتقدمهما الى إحدى الغرف، يجر ساقيه المتعبتين.

كانت الغرفة فسيحة، لكن هواءها خانق. ما يزال يحتفظ بحرارة شمس النهار. وعلى نوافذها ستائر بيضاء. وفي أحد أركانها مشجب بمرآة، وشمعدانان، يبدو من هيئتهما أنهما لا يستعملان.

ولم تكد الغرفة تحوي نزيليها، والخادم يغلق عليهما الباب، حتى اندفع الملازم نحو مرافقته في شوق. وغاب الإثنان في قبلة محمومة - كادت تقطع انفاسهما - لم يذق أحدهما شبيهة لها من قبل! قبلة لن تتبدد ذكراها من حواسهما أبد الدهر!

في الساعة العاشرة من صبيحة يوم مشمس، حار، وسعيد، مع رنين أجراس الكنائس، وطنين الباعة يملأ السوق في الميدان المواجه للفندق، ورائحة التبن والقار تفوح في الهواء مختلطة بغيرها من الروائح التقليدية لكل مدن الأقاليم الروسية، رحلت المرأة الصغيرة من غير أن تبوح له باسمها. وتقول له مازحة:

- يمكنك أن تدعوني "الحسناء المجهولة" وكفى.

إنهما لم يقضيا في النوم غير وقت ضئيل. وحين نهضت بادرت بالاختفاء وراء الستارة التي تفصل بين قسمي الحجرة، برهة لا تزيد على خمس دقائق. عادت اليه بعدها وقد اغتسلت وارتدت ثوبها وازينت، فبدت أشبه بعذراء في السابعة عشرة! لم تكن محرجة، إلا قليلاً. كانت كالعهد بها بسيطة، مرحة، وان بدت عليها علائم التعقل. وعندما اقترح عليها أن يستأنفا الرحلة سويا. أجابت في حزم:

- كلا، كلا يا عزيزي. بل تظل أنت هنا حتى وصول السفينة التالية. فلو أكملنا الرحلة معاً لفسد كل شيء. وهذا ما سيضايقني للغاية. أعطيك كلمة شرف. إني لست المرأة التي أوحت اليك بها تصرفاتي. وكل الذي حدث هنا لم يحدث قط من قبل، ولن يحدث مرة أخرى. لكأن غاشية أصابتني. أو لعلها "ضربة شمس" قد أصابت كلينا.

وأذعن لمشيئتها، وإن كان قد رافقها بخفة وسرور الى المرسى. فوصلا والسفينة توشك أن تتحرك. وعلى ظهرها ودعها بقبلة أخيرة، أمام المسافرين. ثم قفز الى البر في اللحظة الأخيرة.

وعاد إلى الفندق بالسهولة نفسها، بلا مبالاة. ولكن، وجد ان شيئا ما قد تغير. فالغرفة بدونها بدت مختلفة تماما عما كانت عليه معها. إنها ما تزال تحتويها. وفي الوقت نفسه فارغة! انه لأمر غريب حقاً. ما يزال عطرها الانجليزي النفاذ يملأ الهواء. وعلى الصينية قدح الشاي الذي لم تتمه. ومع ذلك فهي لم تعد هناك! وانتابت قلب الملازم فجأة إختلاجة شوق وحنين، فأسرع الى سيجارة يشعلها ويدخنها. ثم مضى يذرع الغرفة ذهاباً وجيئة.

وقال لنفسه، بصوت مسموع، وهو يضحك ويحس في الوقت نفسه بالدموع في عينيه:

"يا لها من مغامرة غريبة حقاً". وعادت الى سمعه كلماتها: "اعطيك كلمة شرف، إني لست بالمرأة التي أوحت اليك بها تصرفاتي!". والآن ها هي قد ذهبت، ولم يبق منها شيء. يا لها من امرأة!

كانت الستارة مزاحة والفراش لم يرتب بعد، وأحس أنه لا يملك الشجاعة على أن ينظر الى الفراش. فأعاد الستارة كما كانت، وأغلق النافذة كي لا يباغته طنين الباعة في السوق، وقرقعة العجلات والعربات. ثم أرخى ستائر النافذة البيضاء المنتفخة. وجلس على الاريكة.

إذن، فتلك هي نهاية "مغامرة الطريق!". رحلت وصارت تفصل بينهما مسافات طائلة. وربما تجلس الآن في الصالون الأبيض الزجاجي، أو على ظهر السفينة، تتأمل إنعكاسات الشمس على مياه النهر الهائل. وتنظر الى القوارب الصغيرة المعاكسة المتناثرة على صفحته، والشطآن الرملية الصفراء، والى الافق المتلألئ للماء والسماء. ومجرى الفولغا العريض الممتد الى مدى البصر. إذن فوداعا أيتها المرأة الى الأبد! اذ أين يمكن أن نلتقي مرة أخرى؟

وأطرق مفكراً: "لن أستطيع على أية حال أن أزور المدينة التي يقيم فيها زوجها. وطفلتها البالغة من العمر ثلاثة أعوام، وبقية أفراد أسرتها، حيث تعيش هي حياتها العادية الرتيبة. كلا لن أستطيع!". وبدت تلك المدينة فجأةً لخياله، كأنها فريدة من نوعها، أو مدينة محرمة!. وصعقته فكرة أنها سوف تستأنف حياتها الموحشة فيها، وانها قد تذكره بين الحين والآخر، وتذكر لقاءهما القصير الأمد. تذكره هو ولا تراه. وهو أيضاً لن يملك أن يراها أبداً في أي يوم من الأيام. يا للهول!.

إيفان بونين

كلا هذا لا يمكن أن يحدث! لكن الأمر كله كان في الواقع غريباً، غير طبيعي. ولا معقول. وانتابه شعور قوي بالأسى، وبأن حياته في المستقبل لن تكون الا معتمة، عقيمة. لا طعم لها. فانقبض قلبه رعباً، ويأساً.

ونهض وعاد يذرع الغرفة من جديد، محاولاً جهده ان يتجنب وقوع بصره على الفراش خلف الستارة. وهتف بنفسه في غيظ: "

- يا للشيطان ما ذا دهاني؟ ما الذي يميزها؟ ولكن ما الذي حدث بالضبط؟ حقا ان الأمر كله يبدو لي كأنما قد أصابتني ضربة شمس. كيف أقضي اليوم كله في هذه البلدة الكئيبة.. بغيرها؟ وعادت المرأة الى ذاكرته بكل حدة، وبأدق دقائقها. تذكر رائحة بشرتها التي لوحتها الشمس، وثوبها المصنوع من التيل الخفيف، وجسدها البض القوي. ثم جرس صوتها المرح النابض بالحياة... كان الاحساس بالملذات التي جربها للتو من كل سحرها الأنثوي ما يزال ينبض بالحياة في كيانه بشكل غير عادي. ومع ذلك فإن الشيء الرئيسي الذي يشغله الآن احساس آخر جديد تماما، احساس غريب وغامض، لم يكن

يخطر له على بال حين جمعهما هذا التعارف "العابر" – كما حسب في البداية – والذي لا يستطيع ان يحدثها عنه الآن. وقال بينه وبين نفسه: "والاهم من ذلك لا يمكنك ابدا ان تحدثها عن ذلك. ما العمل؟ كيف اقضي بقية اليوم الطويل الذي يبدو بلا نهاية، في هذا المكان اللعين الحافل بالذكريات الموجعة التي لا تحتمل، في بلدة نسيها الرب والمطلة على نهر الفولغا الساطع ذاته، الذي حملتها مياهه بعيداً عنه الى الأبد!

لا بد من شيء ينقذه من نفسه، شيء يشغله عن التفكير فيها. لا بد من تسلية تلهيه عن هذا الموضوع. أو نزهة تقتل بعض ساعات هذا اليوم. وقرّ عزمه على الخروج، فوضع قبعته على رأسه، ومضى بخطوات جادة عبر الممر الطويل، ومهمازاه يصطكان في كل خطوة، فيحدثان صوتاً أشبه بالصليل. ثم هبط السلم مسرعاً. ووقف أمام مدخل الفندق حائراً: الى أين يذهب؟ وكانت أمام الباب عربة تربع فوقها حوذي شاب يرتدي معطفا حسن التفصيل، يدخن سيجارته في هدوء، فحدجه الملازم بنظرة حيرة ودهشة: كيف يمكن لمخلوق ما ان يجلس فوق مقعد العربة هكذا ويدخن في هدوء وعدم مبالاة. ويبدو كمن لا هموم البتة لديه؟ "يخيل اليّ اني التعس الوحيد في هذه البلدة كلها"! ومضى في إتجاه السوق.

كانت السوق قد اخذت تقفر. فوطأ بقدميه الفضلات القذرة الرطبة المتناثرة على الأرض بين عربات الخيار والأواني النحاسية الجديدة. وكان بعض النسوة قد افترشن الأرض، ورحن يقرعن أوانيهن بأصابعهن متنافسات على لفت نظره الى بضاعتهن، وعلى إثبات جودتها. اما الرجال فقد اصموه وهم يصرخون به "خيار افضل صنف يا سيدي".

وضايقته هذه السخافات، ففر من السوق مشمئزاً. وصادفته كنيسة فدخلها. كان المصلّون يرتلون ترانيمهم بصوت مرتفع، في بشر وحماسة، كمن يدركون أنهم يؤدون فريضة مقدسة. ثم خرج يخب في الطرقات، تحت الشمس المحرقة، حتى بلغ حديقة صغيرة مهجورة، على سفح تل تطل على النهر العريض بكل جلاله وبريق مياهه، الشبيه ببريق المعدن المصقول، فدخلها ومضى يتجول في ممراتها. وألهبت حرارة الشمس أزرار سترته الصيفية البيضاء، والشارة النحاسية التي على كلا كتفيه، والدالة على رتبته، حتى صارت سخونتها تلسع أصابعه كلما لمسها عفواً. وابتل الشريط الداخلي لقبعته من غزارة العرق، واحمرّ وجهه من شدة الحر.

فلما عاد الى الفندق سره أن يجد لنفسه ملجأً رطباً بارداً في المطعم الفسيح الفارغ في الطابق السفلي. وبلذة خلع قبعته وجلس الى مائدة صغيرة بجوار نافذة مفتوحة كان ياتي منها وهج مصحوب بنسيم رقيق. وطلب حساءً مثلجاً. كان كل شيء جيدا. وكان ثمة سعادة لا متناهية وفرح عظيم في كل شيء. حتى في هذا القيظ، في كل روائح السوق. وفي هذه البلدة غير الاليفة، وفي الفندق القديم النائي. كان ثمة هذا الفرح، وفي الوقت نفسه، كان القلب يتمزق.

ثم شرب بضعة أقداح من (الفودكا) وتناول بضع شرائح من الخيار المخلل مع الشبت. وأحس أنه على استعداد لأن يموت غداً، دونما تفكير، لو أتيح له فقط – بفعل معجزة من المعجزات – أن يقضي هذا اليوم هنا

معها، وأن يجد الفرصة كي يشرح ويثبت لها حبه العظيم. لكن ما الذي يدفعه الى إثبات حبه لها، وإقناعها بقوته. أنه لا يعلم. كل ما يعلمه ان ذلك يبدو في نظره أهم من الحياة ذاتها.

وهمس لنفسه وهو يصب في قدحه الكأس الخامسة من الفودكا: "افلتت اعصابي تماما!".

ودفع عنه طبق الحساء البارد، وطلب قدحا من القهوة السوداء، ثم بدأ يدخن، وقد اعتزم ان يهتدي حتما الى وسيلة تحرره من اسر حبه العنيف المباغت، لكنه احس – بكل ما في الاحساس من حدة – ان التحرر من ذلك الحب ضرب من المستحيل. وفجأة نهض واقفاً بحركة سريعة وتناول قبعته وعصاه، ثم سأل عن مكتب البريد، ومضى في اتجاهه مسرعا وهو يدير في رأسه صيغة برقية ينوي ان يرسلها: " حياتي حتى الموت قد غدت ملك يمينك، تفعلين بها ما تشائين". لكنه لم يكد يبلغ المبنى ذا الجدران السميكة الذي يضم مكتبي البريد والتلغراف، حتى توقف مصعوقاً: أنه يعرف المدينة التي تعيش فيها، ويعرف ان لها زوجا وطفلة في الثالثة، لكنه لا يعرف اسمها ولا كنيتها. وكم من مرة خلال الليلة سألها عن ذلك البارحة، عند الغداء، وفي الفندق، فكانت تضحك في كل مرة وتقول: "لماذا تريد ان تعرف من انا وما هو اسمي؟".

وكانت في ناصية الشارع بجوار مكتب البريد واجهة مصور فوتوغراف. حدّق طويلاً في صورة كبيرة لضابط عريض المنكبين، منتفخ العينين، منخفض الجبهة، ذي سالفين جميلين بشكل مذهل، وصدر عريض للغاية، مزين بالنياشين... كم هو مرعب ووحشي، كل ما هو يومي وعادي عندما يكون القلب مصعوقا. اجل، لقد ادرك الآن انه مصعوق – بـ" ضربة شمس" رهيبة، وبحب كبير وسعادة عظيمة.

ونقل بصره الى عريس وعروس، شاب يرتدي معطفاً طويلا وربطة عنق بيضاء، بتسريحة على شكل قنفذ. وقف نافخاً صدره، وقد تعلقت بذراعه عروسه في ثياب العرس الحريري الرقيق.

ثم انتقلت عيناه برغمه الى صورة ثالثة. لفتاة جميلة القسمات، ترتدي قبعة المدرسة على رأسها. وإنتابه شعور قوي بالحقد والحسد لهؤلاء السعداء الغرباء جميعاً. هذه المخلوقات البشرية "غير المعذبة". لماذا يتعذب هو وحده بضربة الشمس الرهيبة هذه. بهذا الحب العارم. بهذه السعادة الجارفة؟

واستدار الى الشارع ووقف حائراً: "أين يمكن أن أذهب؟. ماذا يمكن أن أفعل؟" هذا هو السؤال الذي ما يفتأ يلح على ذهنه ونفسه، ويرهقهما؟ السؤال الذي لا جواب عليه.

وبعيدا كان الشارع يرتفع ويتحدب ويستند الى السماء الرمادية الصافية المشرقة. كان هناك شيء جنوبي في ذلك، يذكّر بسيفاستوبول وكيرتش وأنابا. كان هذا لا يطاق بشكل خاص، واحنى الملازم رأسه، وضيّق عينيه من الضوء، وأخذ يحدق بتركيز ما بين قدميه وهو يترنح ويتعثر. وقفل راجعاً.

وعاد الى فندقه منهوك القوى، يمزقه الإعياء، كأنما قد عاد لتوه من رحلة شاقة في التركستان أو في الصحراء! وبعد أن جمع بقايا قوته، دخل غرفته الفسيحة الموحشة. كانت الغرفة قد نظفت، وازيلت منها آخر آثارها. عدا دبوس شعر، نسيته ولا شك. كان راقداً فوق الكومودينو المجاور للفراش.

خلع سترته، ونظر الى صورته في المرآة. كان وجهاً داكناً لضابط عادي قد أحرقته الشمس، فبدا شاربه وعيناه بالقياس الى بشرته أميل الى البياض. وكان في نظرته تعبير إنسان ذاهل، مجنون. وكان في قميصه الابيض الرقيق ذي الياقة الصلبة المنشاة، شيء شبابي وتعيس للغاية.

ثم ما لبث أن تراجع عن المرآة وتمدد على الفراش على ظهره، ورفع قدميه بحذائيهما المكسوين بالتراب على حافة السرير. وكانت النوافذ مفتوحة، والستائر مسدلة. فكان الهواء يملأها من حين لآخر فتنتفخ. وتحمل الى داخل الغرفة حرارة الاسطح الحديدية الساخنة. وكل عالم الفولغا الثري المضيء المقفر والصامت الآن. وكان قد وضع ذراعيه تحت رأسه محدقا بثبات امامه ثم صرّ على اسنانه واغمض عينيه، وأحس على خديه حرارة دموعه الساخنة اللاذعة.. وأخيراً غلبه النعاس.

وحين فتح عينيه كان احمرار شمس الغروب يرى من خلال الستائر، وكان الهواء قد سكن، وغدا جو الغرفة جافا وخانقا يقبض الأنفاس. فمرت بذهنه حوادث الأمس والصباح كأنما قد وقعت منذ عشر سنوات.

ونهض في غير عجلة. واغتسل في غير عجلة، ثم أزاح الستائر ودق الجرس للخادم، فلما جاءه طلب ان يأتي له بالشاي، وبفاتورة الحساب. ثم لبث يشرب الشاي بالليمون وقتاً طويلاً. وحين فرغ منه أمر باستدعاء عربة، ونقل حقيبته اليها. ولم يكد يجلس في العربة على مقعده الاحمر الملتهب من الحرارة حتى نفح الخادم بخمسة روبلات كاملة كبقشيش.

وأمر الحوذي بالمضي الى المرسى.

وقال الحوذي بلهجته المرحة وهو يتناول اللجام بين يديه

- اظن انني جئت بك الى هنا مساء امس يا سيدي؟

وعندما بلغا المرسى كانت زرقة ليالي الصيف قد خيمت على الفولغا وانتشر على صفحة النهر لهب متعدد الألوان. ولهب تعلق في الجو وراء ساري السفينة.

قال الحوذي متملقا: "اوصلتك في الموعد المحدد بالضبط".

فنقده الملازم خمس روبلاد ايضا. وتناول التذكرة ودخل المرسى، وكان كل شيء كما حدث بالامس تماما.. طرق خفيف على الرصيف، ودوار طفيف من ترنح الأرض تحت قدميه، وطرف السلك المتطاير فوق الرؤوس هو هو. واصطفاق المياه تحت السفينة وهي تتراجع عن الرصيف، هو هو. واحس بألفة جميلة منظر زحام الناس فوق ظهرها المتلألئ بالأنوار، والروائح المنبعثة من مطابخها.

وبعد لحظات، كانت السفينة تمخر عباب الماء، والركاب يصعدون الى أعلى السفينة، كما صعدت هي في الإتجاه نفسه هذا الصباح.

وعند الأفق، كانت ألوان الغروب القاتمة تذوب وتختلط تدريجيا، وقد انعكست ظلالها الجميلة على أمواج النهر. تلمع حيناً وتختفي حيناً. وحلقات اللهب المتناثرة تتراجع في الظلام حول السفينة.

وعلى ظهر السفينة جلس الضابط ساهماً، وأحس أنه قد شاخ عشر سنوات.

*** كاتب ومترجم عراقي يقيم في موسكو**

الجائحة وامتدادات سردها التأريخي

كتابة: ريلا آسكيو *
ترجمة: خضير اللامي * *

ريلا آسكيو تُعنى بكتابة سرد الروائي التأريخي، تقيم في قلب امريكا، وتعد الوباء الزاحف والمحتمل فضلا عن الكتابة عنه، آت في قادم الزمان..

يبدو أننا سنستيقظ مع قدوم طبول الجائحة ببطء، هنا في قلب هذا البلد: وكيف تغير جوهريا.

فحين كنت فتاة، جاءت إلينا ازمات الحوادث بسرعة فائقة جدا، نقلتها لنا اخبار الساعة السادسة مساء، وسهلت موضة الازياء طريقها الينا تدريجيا، كطلاء مسكوب، زاحفا من السواحل باتجاهنا هنا في اوكلاهوما. وكنا متأخرين دائما مسافة اشهر عن كاليفورنيا ونيويورك.

وشعرنا برائحة الجائحة الى حد ما. في البدء، كانت ثمة مسافة أو حفيف ينذران فيها الصين وايطاليا. ومن بعد ذلك، من الساحل الغربي : سيتل لا.Seattle LA، ومن ثمة مدّ أحمر من الصفاء والفوضى. ومن بعد ذلك، جاءتنا النذر من نيويورك. وخلت الشوارع، وخيّم الصمت. ومن ثم شيكاغو وديترويت تلا ذلك اوريليانز. وادركنا أنها تشق طريقها الينا مباشرة. ولكن لا يبدو عليها أنها تقوم بشيء مهم حتى الان.

ولكن فعلتها بعد حين، مع زميل لي في الجامعة، هو صديق لصديقي، وثمة كثير من كبار العمر اجروا فحوصات قريبا من دار رعاية، وكانت النتيجة ايجابية. وهنا في اوكلاهوما، يبدو أن زحف الوباء اقل، وكثير في مكانات أخرى، وبخاصة في المدن الكبرى، وباتجاه المدن الصغرى يتكشف تدريجيا، وبحركة بطيئة، وسرعان ما تكون هذه الحركة اسرع.

ولكن، لم تكن حركة رهيبة هنا، قلنا لنفسنا. فموتانا اصبحت بالمئات، ولم تكن بالآلاف، وأننا حاليا، نصرخ أن اخرجوا من البيوت، واذهبوا الى العمل، فإن الجائحة هي من الصغر بحيث لا يتعدى حجمها حجم ضفدعة لا يتعدى هو الاخر، وعاء ماء على النار سرعان ما شعرت ان الماء يغلي وتهيأ للقفز.

وقد تناولتُ ثيمة الجائحة في اعمالي السردية السابقة، سواء القصيرة منها أو الطويلة : فإنّ التآكل التدريجي للكرامة والأمل بين التشرد والحرمان والكآبة (رواية القيثارة). فإن العنف العرقي والرعب خلال العام 1921، زمن مذبحة تولسا Tulsa Race Massaker، في رواية "حريق في في

بيولا" Fire in Beula، قد تعقبت الورم والمذابح الوحشية، فضلا عن اعادة التشكيل الانجليزي للرواية التي اعمل عليها الان. ودائما هنالك حاجة لتتبع التراكمات الصغيرة والتفاصيل التي تقود الى دورات المناخ.

ومن فوائد السرد التاريخي، هو أننا نملك منظور الزمن والبعد. وإننا نعرف تماما، أننا ننظر الى الخلف، حيث ثمة طرق لا تُعد ولا تُحصى، وثمة من ينظر احدهم الى الاخر. وإن المشاكل التدريجية. الذنوب، والفرص، والاضطرابات، كما وصفها جون بارت. إن هذه الاضطرابات هي في قوس التاريخ الانساني. وإننا نعرف أن هذا الجمعي. اذا لم يكن هو جمعيا، فإننا نعيش. ذلك الشيء الذي نعيش، ذلك الشيء الذي نريد ان نسرده لانفسنا في خضم الجائحة حقا. في جريانه السريع. هو أن كل شيء سيكون حسنا، تغيير ولا تغيير، مختلف بيد أنه ليس مختلفا.

وحين بلغت سن الرشد، فإنّ قس كنيستنا اعتقد أن اضطرابا سيصل في أي لحظة: وإن نهايات ايام التحول قريبة حين يظهر السيد المسيح مرة ثانية: وسيولد من جديد اطفال المسيح وسيمسكون به مرة ثانية لمقابلته في الهواء الطلق. وفي كل ليلة يوم احد سيصلي بهم الاخ لوك في الهواء الطلق، وبيده انجيل الملك جيمس مفتوحا، وبيده الاخرى، جريدة اخبارية يود أن يخبرنا فيها، كيف أن الأختام قد تحطمت. وقد صدقته. وفي المدرسة، قمنا بتمارين دحرجة للحماية في حالة تهاجمنا قنبلة نووية. كما يتدرب الاطفال الان على اطلاق الرصاص الحي. وهكذا. أننا الان نعيش اجواء حرب عالمية، فقد حارب اباؤنا، الى حد أننا توقعنا قدوم الهولوكوست في اية لحظة، الدمار، نهاية العالم. إنها قادمة على اليهود في اوربا، أليس كذلك ؟ إنها قادمة الى مواطني هوروشيما وناغازاكي.

وقد سمعت هذه القصة من قبل، في المدرسة، او الكنيسة. لا اتذكر أيهما. ولكن، إن اجمل ممثلة في اليابان، قد تمرضت لانها اصيبت بالاشعاع النووي مما ادى الى سقوط شعر رأسها باستثناء خصلتين بقيتا فيه. وحين حركوا جسدها بعد وفاتها فإن تلك الخصلتين قد تركتا خلف الوسادة.

حسنا، ثمة شيئان في تلك القصة المشكوك بصحتها. الشيء الأول هو قوة تفاصيلها. فإنّ تينك الشعرتين المحروقتين أتذكرهما جيدا حتى الآن : إنهما خلقتا رعبا قويا حقا في داخلي. إما الأخريان فهما تتعلقان بقصة جرائم جماعية، قام بها بلدي بإلقائه قنبلة نووية على مواطنين أبرياء. وإننا نقول دائما ينبغي أن يحدث هذا، اذ ليس ثمة وسيلة أخرى لانهاء هذه الحرب. بيد أن الحقيقة هي، أن هذه القصة تسابقت عليها الكنيسة والمدارس هنا في وسط المدينة، وبعد اجيال من الزمان هنا ايضا وفي وسط البلد، وبعد اجيال ايضا بعد انتهاء الحرب، اخبرونا أن كثيرا من الناس يقولون اننا لا نعرف ذنبنا.

وفي احدى الليالي، استيقظت في سريري – لا بد وأن كنت في الثامنة أو التاسعة من عمري – وهكذا كنت مسكونة بقصة الممثلة

اليابانية، ولم استطع النوم. ذهبت الى ابويّ لمشاهدة اخبار الساعة العاشرة في قاعة الإستقبال، وقد اخبرتهما بالقصة، وكم كان خوفي شديدا من أننا سنموت جميعا في حرب نووية. كما اخبرتهما أنني افكر أنّ نهاية العالم لم تحن بعد.

إنني اتذكر أنّ والدي كان رجلا مهذبا جدا، ومشاعره عظيمة، وبهذا الهدوء، حاول عمليا تهدئتي. قائلا: نحن جميعا نخشى أن العالم بأجمعه سيموت اكثر من موتنا نحن. وقال لا اعرف لماذا يحدث هذا كله في العالم اكثر مما نخافه نحن. قائلا ايضا : إنه لا يعرف لماذا يحدث هذا كله، ولكن يبدو تماما اكثر خوفا، ومن الصعوبة بمكان أن نغوص في أعماقه. ثم حاول طمأنتي أنْ لا اقلق ابدا، ذلك أن نهاية العالم لم تأت بعد.

وفي الحقيقة، لم يكن هذا صحيحا؛ ففي العام 1960، وصل العالم الى حافة هاويته، ولم تكن هنالك حربا نووية. وجاءت سنين العام 1970، والعام 1980، ودورة القرن، والألفية الجديدة، ومازال العالم لم ينته بعد، وبعد مرور اعوام من الآن كنت انظر الى الوراء، والى تنبؤات نهاية العالم، وبكل الوسائل الى تنبؤات جون وإلى جزيرة باطموس Isle Patmos وقبل ذلك ايضا؛ الى الوراء، وقبل ذلك التاريخ ايضا الى الجيل القديم، الى دانيال ازيكيل والى الاشوريين القدماء. وقد جئت الى والدي لأعرف ماذا يقول عن تلك الليلة تلك التي كنا فيها ننظر الى نهاية العالم لأننا بامكاننا أن ننظر الى نهاية عالمنا تماما.

وفي العام 1930، الذي يُعد عام الجفاف والتهور، وممارسة الزراعة التي خلقت واحدة من أسوأ الكوارث البيئية في أوكلاهوما، الذي خلق واحدة من أسوأ الكوارث البيئية في تاريخ الامة. وفي قلب الارض التي احتوت على شجيرة اوكلاهوما التي تغلي في الافق. وتحولت السماء الى قطعة سوداء تتصاعد نحو افقها، وراحت تتدحرج غيوم الغبار، وتتسابق عبر السهول: خالقة بذلك جدارا عاليا من الأوساخ، وموجة مد وجزر تجتاح طريقها، مدمرة بذلك الماشية، ومدمرة المحاصيل الزراعية، ومسببة اختناق الاطفال، وتجريد التربة السطحية، والعواصف الترابية المرعبة، وجائحة مرعبة تماما. الى حد اعتقد الناس فيه أن نهاية العالم اقتربت تماما.

ولكن في كتابة رواية عن حقبة ذلك العهد، وشعوبها وصلت الى الاقتراب من فهم أنّ هذا هو حقبة الجائحة التي تقود الى شيء قد يفاجئنا: الى عقد من التكهنات دون رادع لممارسات جشع مصرفية غير خاضعة للرقابة - وكل هذا يقودنا ايضا الى كآبة عظيمة الغبار، والذي يقود الى هجرة جمعية كبيرة للأميركان البيض، عقب فترة طويلة في تاريخ الامة لمئات من الالاف الطوابير يشقون طريقهم غرب كاليفورينا، والتي تقودنا الى ايقونة جون شتاينبك (عناقيد الغضب) التي تقود الى سبعة عقود من الزمن. وتعلقا بي، فإن كتابة الرواية، لا تتجاوب مع عواصف رملية عظيمة، ولكن تعلقا برواية شتاينبك التي تحمل بعض الرعب عن رجال اوكلاهوما، كما تقود

الى الحاجة للبحث عن تفاصيل قبل وخلال الجائحة العظيمة، فضلا عن اخفاقات البنك وقتل الابقار وتسميم الارانب الوحشية واجتياح الارض والاغصان التي يبست عروقها من العطش، وهروب الارانب حين يلتقي الناس، وحيث تندفع مثل هذه الارانب حين يتجمع الناس في ايام الاحاد حيث تندفع الاف الارانب البرية وتجيء صراخها نتيجة ضربها حتى الموت، فضلا عن التفاصيل الحسية كما لو انها تسرد قصة.

وبسبب ذلك الايمان. ومن ثم شيء قد حدث بالتأكيد وصل الى النهاية مع اصلاحات البروتستانت، وثمة شيء جديد برز من الرماد مثل طائر الفينيق، تغير او لم يتغير؛ مختلف او غير مختلف.

وفي الحقيقة، وبسبب، ان الناس بقوا يحافظون على حقهم في قتل الناس باسم الايمان الديني، وليس الايمان الديني بالضبط، ولكن باسم الايمان السياسي، والاقتصادي، او العرقي، او الايمان، او الاظهار الديني او خطأ بروتوس، انه ليس في نجومنا، ولكن في داخل نفوسنا.

وإنه من المريح جدا أن نفكر في الكتّاب الذين يسردون علينا قصص الجائحة، والى هذا الحد كان في الغالب ان الشعراء يحملون شهادة، فضلا عن دور الصحافيين بالطبع، وكتّاب القصص الواقعية. ولا بد انْ يستغرق هذا وقتا طويلا، واعتقد كي يبدأ الروائيون في احباط تلك الكارثة البطيئة، وكشف النقاب عن نهاية العالم هذه تدريجيا عن الالغاز العالمية هذه. ربما يستغرق هذا وقتا طويلا جدا فإن الكتب ستبقى تعمل على الرواية التاريخية.

إننا نقرأ هذه الروايات، لأننا نريد أن نعرف ما الذي يحدث، ولماذا - ليس الاعمال الواقعية حسب، والا فإننا سنقتنع بالروايات التاريخية غير الواقعية لعلم النفس البشري، اننا هنا نريد ان نفهم الدافع الحي والمجاعات والمخاوف في داخل الشخصيات الروائية، ماذا يحدث في تلك الايام المظلمة في داخل قلوب الناس الذين يعيشون هذا الواقع. وهذا يكشف عن القناع. وهذا تعلقا بي دائما ما يكون سر الإله.

*** ريلا اسكيو/ كاتبة روايات قصيرة، ومقالات، وروايات. روايتها الاولى كرسي الرحمة. ترشحت لجائزة Pen Faulker Award وجائزة Diplin IMPAC. وحصلت على جائزة كتاب اوكلاهوما وجائزة -0kla homa Book Award وجائزة التراث الغربي Western Herotage في العام 1998، حريق في بيولاه، وهي رواية عن مذبحة Tulsa Race كما حصلت على جائزة مكافأة الكتاب الاميركي. اما قصتها "مقتل البلانكيت" ومن بعدها ترشحت للحصول على جائزة القصص القصيرة 1993..**

**** كاتب ومترجم عراقي يقيم في السويد**

الصمت البليغ

أطياف رشيد *

الى زيد ما اجمل ان تكون في حياتي ابنا وصديقا

سرت الى المطبخ وانا احمل كوب الشاي بخطوات بطيئة وثقيلة، خطوات تدربت عليها في مخيلتي كثيرا لكي اتقن ادائي لشخصيتي الجديدة امامه، وضعت كوب الشاي على الطاولة وحرصت على ان يكون قريباً من حافتها، عله يقع، لا بأس من احداث بعض الفوضى من اجل اتقان الدور، وعدت الى غرفة الجلوس حيث لم يزل عزيز جالسا يشاهد اخبار المساء في التلفاز. جلستُ، ورحت انظر اليه عن طريق زجاج الصمت الذي اخترته لشخصيتي الجديدة

سألني:

- ما بك؟

لم اجب طبعا، فشخصيتي الجديدة شخصية صامتة تنظر الى الاخرين ببرود ان لم تكن قد بالغت قليلا في نسيان وجودهم، لا تسمع أصواتهم ولا تفهم لغتهم، بعيدة جدا في عالم اخر، عالم ولادة جديدة ولكنها عكسية، الولادة الطبيعية اندفاع الى الخارج وولادتي استعادة ما تشتت في ذلك الخارج.

تلك اللحظة الفاصلة التي جعلتني افكر بهذه الطريقة، اللحظة الحاسمة، كانت في ليلة شتوية حيث كنا جالسين انا وهو نشاهد التلفاز، ممسك هو بالريموت كنترول يقلب القنوات باحثا عن قناة للأفلام عله يجد فيلما اجنبيا عن رعاة البقر، ويا حبذا لو كان فيلماً للممثل كلينت ايستوود، حينها لن يبارح مكانه ولا حتى للحمام، لشد ما تستهويه هذه الأفلام ربما لما فيها من خشونة الرجال وصلابتهم التي يفتقر اليها بطبيعته خارج البيت في وظيفته كمحاسب قبل ان يتقاعد، طبيعته المسالمة والهادئة طوال ثلاثين عاما قضاها في الخدمة، اما في البيت لا يفتأ يتذمر ويشتكي من ابسط التفاصيل عن الشوارع المزدحمة بشكل جنوني، زميلاته الموظفات اللاتي يتحدثن عن السحر الذي فرق بين زميلتهن وزوجها، رجال القانون الثرثارون، السياسيون الفاسدون، وانا أيضا طبعا وثرثرتي عندما اطلب منه ان يصلح

او ان يأتي بمن يصلح شيء ما تعطل في البيت.

حسنا كنت سأتحدث عن تلك اللحظة الحاسمة التي جعلتني اتخذ قراري، ان امثل دور المرأة الصامتة والجامدة التي ضرب رأسها او روحها مرض ما فاصابها بالبلادة والبرود والصمت، حسبما يظن.

في تلك الليلة حينما كنا نشاهد برنامجا حواريا استضافت فيه مقدمة البرنامج شخصا ببدلة سوداء انيقة وربطة عنق زرقاء، ذكرت انه سياسي قضى نصف عمره في السجون وكيف انه كان يعامل معاملة سيئة داخل السجن من قبل مسؤولي السجن والسجناء على حد سواء لانه معارض عتيد للديكتاتورية والاستبداد، وعندما سألته المقدمة الحسناء ذات الشعر الأشقر والوجه الناصع ببياض ملائكي، كيف كان يتحمل كل تلك الإساءة اجابها بكل هدوء (بطريقة الصمت البليغ). ضربت هذه الجملة راسي وحركت بركة روحي الراكدة، الصمت البليغ يالها من فكرة ذكية ومخادعة، لا تحتاج الى خطط ومناورات مع الاخر. كان عزيز محدبا باتجاه التلفاز وقريبا من الشاشة ويتحدث بكلمات غاضبة عن ضيف البرنامج هذا، واخرها فقط هو ما سمعته (هؤلاء اشخاص كل غايتهم لفت الانتباه اليهم فقط، ماذا جنى العالم من نضاله ومقاومته العتيدة هل انتهى الاستبداد؟ وهذه القنوات تحضر اجمل النساء لتقديم البرامج، وبخاصة برامج سياسية، لماذا؟ من يهتم بتلك الشوارب الثخينة ويتابعها؟ لا احد، لا سبب سوى الترويج والربح؟) كسر زخم انفعاله وخطابه صوت اطلاقات نارية في الخارج قال عزيز (هذا هو العالم الحقيقي، عالم الفوضى)، وانا كنت انظر الى ساعة الحائط وهي تشير الى الثانية عشرة منتصف الليل، وهو يستمر بالكلام (أسلحة ورصاص ما يكفي لحرب مدة عام يمتلكها اشخاص غير مسؤولين، طائشين، ولمجرد ان توفي احد حتى تنطلق البنادق والرشاشات باطلاقات التباهي في وداع الميت) وانا مستمرة بالنظر الى الساعة، مرت خمس دقائق، وجملة الصمت البليغ ترن في جوفي وصوت الرصاص يدوي في الخارج وعزيز يستمر بالكلام. الصمت البليغ واطلاق رصاص، والساعة عشر دقائق بعد منتصف الليل وعزيز يستمر بالكلام.

عشر دقائق فقط منحتني هدفاً لم امتلكه طوال حياتي، حين جدحت شرارات الأسئلة تتطاير في رأسي الذي تحول الى بركان ماذا لو اتخذتُ انا أيضا مثل هذه الخطوة في حياتي؟ ماذا لو اسكت ولا اجيب عن كل الكلام الفارغ الذي ملأ سنواتي بالوحدة والصمت، هل قلتُ الصمت! نعم الصمت ولكنه صمت سطحي، صمت فيه من اللغو الكثير والمجاملة اكثر، والرضا المقنع بفكرة ان الحياة لا بد ان تسير، الى اين تسير أصلا ؟ وما هي وجهتي؟ ولماذا أكون ارضا سهلة تخترقها الأنهار بكل سهولة ويسر؟ عندها اتخذت قراري في ان اصمت صمتا بليغا، صمت يجعلني اخرج من سجن الجدران والجسد الى فضاء رحب، آه يا لي من فيلسوفة، ولا بأس من إضافة قليل مما

يبدو انه فقدان ذاكرة وشيء من التغاضي عن التفاصيل وبعض التغافل عن كل ماهو مهم، او ما يعده الاخرون مهما في الحياة.
ولكن ما بدأ كإدعاء تحول شيئا فشيئا الى حقيقة تترسخ في روحي وقناعة عظيمة في اكتشاف نفسي من خلال الصمت والانعزال اللذين اتاحا لي ان اسمع ما كان مخفيا. تحول هذا الصمت الى رحلة، رحلة الى دواخل مجهولة مع العالم ومع شريك السنوات، رحلة فيها من العنف هزّ كل ثابت في حياتي.
انا هنا، اذا كنتم تسألون عني، مختفية في الداخل،استمع الى موسيقى الانتصار على كل موجات التواصل مع الاخرين، موجتي فقط هي التي اسمعها، انا هنا في الداخل، انا احيا، اسمع صوت شهيقي وزفيري وطقطقات اضلعي واصابعي في الصباح، لقد صار الصباح اكثر اشراقا، انهض من سريري بثوبي الابيض الفضفاض أتوجه الى الحمام واغتسل بماء بارد، اذهب الى المطبخ اعمل ساندويشا صغيرا من البيض، ولا اهتم ان تناثر فتات الخبز على الطاولة او انسكب الشاي على الارض، لا يهم، اخذ طعامي وكوب الشاي الى غرفة النوم واجلس على السرير، آكل بهدوء شديد امام النافذة مغمورة بالصمت. وعندما انتهي اقف كراقصة باليه اتمايل بحركات خفيفة، الذراعان الى اعلى القدم اليسرى الى الجانب، واميل بجسدي الى الجانب الايسر، مثل نرجسة لا تأبه بالسنوات الخمسين، الذراعان الى الأعلى والقدم اليمنى الى الجانب، اميل بجسدي الى اليمين والان مثل زهرة كاميليا ألمّ شتات فصولي بين اوراقي الحمراء. يا له من توحد وانسيابية، ثم اعاود الجلوس امام النافذة التي يصدها جدار المنزل الخارجي لا شيء امامي فقط الجدار ولكني أرى السماء أيضا، وارى، وهو اكيد من محض الخيال أشخاصا يستطيعون رؤيتي من خلف جدار المنزل الخارجي، حيز النافذة هذا يشبه شاشة تلفاز او سينما لكن الفيلم لا يعرض شيئا الان ربما ان العرض لم يبدأ او على الأكثر انتهى العرض وساد البياض، استطيع ان اضع سيناريو يملأ هذا البياض. مرت الفكرة في بالي سريعا، ولكن...
تمكن صوت عزيز من اختراق صمتي وهو يتحدث بالهاتف:
- لقد جنت هذه المرأة، جنت في اخر عمرها، الاوساخ في كل مكان لا احد يعتني بالبيت، لا احد يعتني بي، انها كارثة...من اخذها الى الطبيب؟ ولماذا الطبيب انها لا تسعل وليس بها حرارة، انها فقط شاردة، شاردة كالمجانين.
خرجتُ اليه وهو في صالة الجلوس مشيت نحوه بخطوات هادئة وثابتة، حدقت في وجهه طويلا بعينين باردتين، يا الهي لقد شعرت بارتعاشه حقا وهو يقف امامي مذهولا، هل تراه خاف مني؟ هل ارعبه صمتي؟ اقفل الهاتف وصدرت الكلمات من فمه مرتبكة:
- لماذا لا تجلسين معي
قال
مشيتُ بروية وجلست على الاريكة
- هل تشعرين بصداع، لا يبدو عليك

المرض، وجنتاك متوردتان وعيناك تلمعان مثل عيني سمكة، انت لستِ مريضة، اليس كذلك؟ حسنا، دعينا نتحدث، اسمعي هل تعرفين ما سبب الاطلاقات النارية ليلة امس، لقد كان أولاد عم احد الاعيان يحتفلون لعدم اصابته بكورونا، آه ...هل ترين كم الفوضى والاستهتار؟!

تركته يتحدث، كم يحب الكلام، لم يترك موضوعا الا وطرقه، تحديد الانجاب في الصين، وكالة ناسا الاستخباراتية، أبو سعد صديقه في العمل سابقا، برنامج تحقيقات الكوارث الجوية على ناشيونال جوغرافيك، تدهور الاقتصاد العالمي والحرب البايولوجية. الرئيس الأمريكي ترامب يطلب وضع الولايات الخمسين تحت اعلان كارثة بسبب وباء كورونا. وهو يسميني ثرثارة! شعرت بثقل في صدري، لست ادري كم الساعة الان واي وقت صرنا من اليوم، الوقت يمر حادا، تماسكت وحافظت على درجة برود اعصابي تحت الصفر.

لماذا افعلُ ذلك؟

حسنا، ربما هي الكراهية

ان الشعور بالكراهية يشبه القشعريرة من البرد ليس لان البرد لم يكن موجودا او انه قد جاء فجأة، بل انها إشارة عميقة الى ان جسدك قد تلقى ضربة قوية من البرد لم يعد باستطاعته ان يتحملها لذلك عليه ان يخرجها بعيدا، هكذا برجفة القشعريرة الدفاعية تلك حيث يهتز كل الجسد، ينفض ما تغلغل فيه من زيادات، من اوجاع ومن أي مشاعر اخرى طاغية.

بدأ الامر مع الجيران حينما كنت اتجاوزهم في طريقي الى محل الخضروات وفي الأسواق، وخاصة تلك السيدة النحيلة ذات الانف المدبب والعينين الجاحظتين، وعينها الثالثة، كاميرات المراقبة التي تضعها اعلى منزلها وعلى الباب التي تؤمن لها فرصة اقتناص خروجي لتخرج هي الأخرى وتلاقيني صدفة! اذا سارت معي لا التفت اليها ولا اجيبها، على الرغم من استمرارها بالكلام، واذا التقيت بأحد في المحل اتجاوزه وكأني لا اراه، لقد اعطى هذا السلوك نتائج مذهلة على صعيد هدوئي النفسي، كنت كمن يعيش في الفردوس. ارى ما اريد رؤيته فقط.

اما في البيت، فقد تحول هذا الكائن الذي كان زوجي لخمس وعشرين عاما بالتدريج الى كتلة من الغضب الدائم لا يفتأ ان يتحين الفرص للمشاجرة والصراخ، حتى قبل احالته على التقاعد اصبحت لحظة دخوله الى المنزل بعد عودته من العمل لحظة متعبة نفسيا وحتى جسديا بالنسبة لي، صوته الذي يسبقه يرن في ارجاء البيت وفي راسي وحتى يحين وقت النوم، لحظة ان استلقي على السرير، يبدأ شخيره حتى الصباح. وازداد الامر سوءا بعد خروجه من الوظيفة بالتقاعد المبكر. لقد مللت الشجار على تفاصيل تافهة.

روحي التي كانت تنساب مع دقائق الضوء حول المصابيح، انسياب نحو ولادة جديدة في رحلة خالصة من الصمت والعزلة في لحظة مقدسة تشبه هبوط اله من اجل محبوبته الأرضية.

خطرت في ذهني كل تلك القصص عن

اشخاص روحانيين تمكنوا من خلال نكران وجودهم المادي وتخلصهم من سطوة الجسد ورغباته، تمكنوا من بلوغ ذواتهم الحقيقية وانغمسوا في عمق الروح حتى تحولوا الى ذرات دقيقة تتطاير حول الضوء، ولكن هل كان ما ينغص عليهم تلك الخلوة وذلك التوحد، طبعا لا، لا يمكن ان يصل أي انسان الى حالة قصوى من التأمل او التوحد مع الذات او اي من تلك المسميات اذا كان هناك ما يعكر صفو تلك الخلوات.

قال:

-هل تعلمين كم رغبت في ان اشرب الخمر واسكر وانا اشاهد التلفاز هنا في البيت.

رفع رجليه ووضعهما على الطاولة ومط جسمه الى الامام، غاطا بالاريكة واكمل:

- نعم وددت ذلك لسنوات، ولكنكِ يا شرطي المنزل تحاولين فرض نظام انت نفسك لست مقتنعة به ولكنه شكل عرفي تتمسكين به، انت لست القديسة التي تريد ان يكون البيت طاهرا من المحرمات، ابدا، انا اعرفك، تتشبثين بالشكليات، حتى مع نفسك، لا تقبلين بالاخطاء، تتعالين عليّ، تنحازين الى السطح وتهملين الجوهر، لماذا لا يكون البيت مثل صالة القمار مغامرة دائمة بين الربح والخسارة، وربما تكون فرص الربح شبه منعدمة في بعض الاحيان ولكنها مغامرة في اكتشاف إحساس الوصول الى باب الربح حتى وان لم يفتح. لماذا لا يتاح لنا ان نفترض ان غرفة نومنا هي غرفة في بيت دعارة مثلا، ان ذلك سوف يمنحنا إحساسا مضاعفا بالسعادة، هل انا انجرف في افكاري العابثة الان. ما اجمل هذه اللحظة، انت لا تسمعين، لا تجيبين، ولا اضطر لسماع رأيك، وانا ملك الحوار، هذا افضل لكلينا.

في تلك اللحظة كنتُ اتفحصُ انية الزهور الخزفية مليا وتذكرت متى اشتريناها.

- وبمناسبة حالتك الجديدة ايضا

قال:

- اود ان اعترف لك انني كنت سعيدا جدا حين سقط جنينك الأول، وابتهجت اكثر عندما سقط الثاني، شعرت بارتياح كبير رغم اني حاولت ان اتظاهر بالحزن على الأقل في المستشفى امام الممرضات والطبيبة واخرين من المراجعين الذين كانوا يملأون الرواق المؤدي الى صالة الولادة. الممرضات البدينات كن ينثرن عبارات المواساة علي ويباركنني من جانب اخر على سلامتك، الدافع طبعا ليس إنسانيا ابدا، بل طمع في البقشيش الذي كن سيحصلن عليه مني لو كانت ولادة حقيقية وطبيعية ومولود حي، ويا سلام لو كان صبيا، المطالبة بالبقشيش علنية وليست سرية في المستشفيات، لهذا كن يتكلمن معي بحرية. "لا تحزن والمهم سلامة الأم" تلك هي العبارات التي تقولها كل واحدة منهن، تخرج من الصالة حتى ان احداهن كانت تقترب مني بشدة لدرجة اني شعرت باحتكاك نهديها بذراعي. أعطيت بعض المال لاني كنت سعيدا بالفعل، لماذا احزن وانا اشاهد كل تلك السنوات القادمة بالاعباء والهم تذوب وتنتهي، ازيح قدرا كبيرا من العبء من صدري، سرت في الرواق الطويل وانا انتظر ان تخرجي ففاجأني احدهم بالسؤال

(صبي ام بنت) قلت لا ادري لم اسأل، امتعض الرجل وقال كيف لم تسأل قلت لقد اسقط ما أهمية ان يكون صبيا او بنتا على اية حال، تحولت ملامح الرجل فجأة الى الحزن وقال (الله يعوضك) ومن قال اني اريد العوض، قلت في سري وانتظرتكِ طويلا وعندما عدنا الى البيت كان البيت جميلا وهادئا، شعرت بفرح غامر.

نظر الي، او هكذا شعرت لان حرارة صدرت من وجهه صفعت خدي

- انت لا تسمعين اليس كذلك؟ لقد كرهتكِ بالفعل، لم كنت تحملين! ما سبب اصرارك على وجود الأطفال في حياتنا؟ انهم مثل الحشرات التي تبدأ صغيرة، نطعمهم ونحرص على رعايتهم ونمنحهم كل ما ندخر من قوة وصحة ومال ثم بعد ان يقوى عودهم يتركوننا وحيدين، وها نحن وحيدين الان، انا وانت، وعلى فرض ان كان لنا أبناء، سوف يتصلون بنا في الهاتف للاطمئنان علينا في احسن الأحوال. ها نحن وحيدين، انا وانت دون تلك المعاناة، انت مسجونة في بلورة من الصمت، وانا مسجون في لحظة التكرار والرتابة.

خيم جو من الحزن فجأة، وانا انظر الى المزهرية، هذه المزهرية الفخارية اشتريتها عندما خرجت من المستشفى حين سقط جنيني الأول لم تكن جديدة بل كانت ضمن مجموعة اواني واغراض منزلية مستعملة افترشها رجل طاعن بالسن على الأرض قرب باب المشفى. قلت لعزيز وانا استند على ذراعه (هل يمكن ان نشتريها) اجابني بفرح (بالتأكيد) وقد ظننت حينها انه لتعاطفه لحالتي استجاب سريعا وحملها كانه يحمل طفلا تحت ذراعه. مزهرية فخارية عتيقة ادقق بتفاصيلها الان اكثر من أي وقت مضى، هناك من امضى الوقت في نحتها وزخرفتها، تلك الزهور الوردية الناعمة البارزة حول جذعها. هناك من ذوت انامله وساعاته من اجل كمالها، ولكنها الان، بكل ما تحمل من هذا التاريخ من العناية والاهتمام بالصنعة، غير مهمة، غير مهمة على الاطلاق.

- لم احدثكِ عن أيام الجيش والحرب

قال بصوت عال كانه تذكر شيئا جديدا او كأنه أراد ان يختبر شرودي واستطرد

- لم أشارك بالحرب تلك نعمة الهمتني حبا نفسيا، لكني دخلت الجيش، في تلك المرحلة من الخدمة الإلزامية، نعم وهناك لا بد ان تسحق ادميتك، ان تصبح حيوانا بلا إحساس.

صمت قليلا ثم اردف:

- ثم انكِ لم تسأليني عندما كنت اتحدث، لم تسأليني لماذا أقدمت على الاحالة على التقاعد المبكر! لست انسانا بطرا، امضيت في وظيفتي كمحاسب مدة كافية لأكتشف انني لم تكن بي حاجة مادامت كل الحسابات والأوراق التي اعمل عليها يتم تغييرها لاحقا حسب ما تقتضيه المصالح الشخصية للمسؤولين.

احسست ان جسدي ثقيل واني اتسمر في مكاني، بالحقيقة ان كلام عزيز واعترافاته سحبتني من عزلتي تلك وبدلا من ان اتجاهل واستمر بشرودي وتغافلي عنه جعلتني اشعر بالاستماع، بالانتباه، نزلت عيوني

من سياحتها في فضاء الغرفة الى الزهرية ثم الى الارضية بين قدمي، بدا اهتمامي والفضول والطمع الغريب لان اعرف ما بداخله اكثر يسحبني اكثر من عزلتي. تنهد بعمق سمعت صوت أنفاسه، رغبتُ في النهوض بشدة، ولكن بالكاد تحركت أصابع قدمي، عيوني تحدق في الأرض وهو مستمر بالكلام.

- في داخلي بالون، هنا في صدري، بين اضلعي، بالون لازمني منذ كنت صغيرا، حينما كنت افعل شيئا، أي شيء بسيط، يثير دهشة والديّ حتى يبدأ الثناء وتبدأ كلمات التشجيع العظيمة، انت بطل، انت عظيم، لا احد يشبهك، وهكذا كان البالون ينتفخ بالهواء، ينتفخ وينتفخ حتى بدات اشعر اني قادر على فعل أي شيء، وكل شيء، الى ان حاء الوقت الذي بدأت فيه الجدران تقف امامي، جدران عالية من الكونكريت، ولم تستطع تلك التفاصيل الصغيرة التي كنت اتلقى عليها الثناء ان تساعدني في تجاوزها، انا لا القي اللوم على والديّ، كانا يفعلان ما يفعله أي والدين يحبان ابنهما ويشجعانه، ربما كرهتهما، قليلا، لكن المشكلة كانت تكمن فيّ انا، بقدراتي المتواضعة و... شخصيتي، توقف البالون عن الانتفاخ واستقر في صدري، وأصبحت ما انا عليه، رجل البالون.

ضحك كثيرا، ضحك بهستيريا، ضحك طويلا حتى دمعت عيناه وراح يفركهما ويمسحهما ويمسح انفه بكم قميصه في الوقت نفسه.

- وبما انك أصبحت المرأة البكماء الصماء مثل ظل الحائط، اود ان اعترف، في هذه اللحظة الثمينة، ان...ان اخبرك عن كرهي لسلوكك معي، تصرفاتك العصبية تجاهي، دفعك لرجلي عندما أكون جالساً على الاريكة، هذه الاريكة ذاتها، من اجل ان تمسحي الأرضية من تحتها، دفعك لرجلي كأنها شيء جامد، قطعة خشب مسندة على جسد لا حاجة لاحد فيه، انا لا انكر انك امرأة نظيفة وجميلة، رائحتك طيبة في كل وقت، ولكنك تبالغين في كل شيء، وخاصة عصبيتك، غضبك السريع، انك حتى لا تنظرين في وجهي، في عيوني، وخاصة بعد بضع سنوات من زواجنا، لماذا؟ لماذا لم تنظري في عيني؟ ان ذلك يشعرني اني منبوذ، غير مرغوب فيه. نوعا ما قد أكون خنتك، في بعض الأحيان، والحمد لله انك لم تعرفي بالامر، كنت ستزدادين عصبية وغضبا، مرت تلك الأيام بسلام، انت لا تسمعيني اليس كذلك؟ بودي لو تسمعين، اريد ان اعرف بماذا تفكرين الان وانا افرغ سلة مهملات روحي في وجهك.

ضم ذراعيه الى صدره واسند رأسه لحافة الاريكة ونام، غفا سريعا مثل طفل رغم كل حماقاته واخطائه.

اشفق عليك، هذا ما اشعر به الان. أتذكرُ ليلة ناديتني باسم غير اسمي وانت نائم واحتضنتني وانت تبتسم، او يوم رن هاتفك وانت في الحمام وصحت من الداخل من المتصل حبيبتي، حبيبتي!! انها حبيبتك الأخرى، ولكني لم أتكلم، لم اقلها (لا ادري لقد انقطع الاتصال قبل ان اصل للهاتف) قلتُ لك. لكن لماذا لم أتكلم بالموضوع،

ما الذي كنتُ اخشى عليه بالضبط، مجرد أفكار غرستها في داخلي جدتي التي ربتني بعد وفاة والديّ في حادث سيارة، ان من واجبي كامرأة ان لا أتكلم وان اتجاهل حتى لا تتحطم روح البيت، ولكنها روحي التي تحطمت، لو تكلمت لكنتُ تجنبت ذلك السلوك العصبي والغضب الذي لازمني طوال سنين. انا الان اشفق عليك، يا لها من سخرية مؤلمة، نهضت من مكاني سرت بشكل آلي. بخطوات ثقيلة جدا ودخلت غرفة النوم، سرى الثقل الى كامل جسدي، كيف لي ان أعيش الان معه، حتى صمتى خدشه بنهيق اعترافاته. نظرتُ في المرآة وتذكرت امي وجدتي، كانت صورنا نحن الثلاثة تظهر امامي في المرآة حتى كأن صورتي كانت شاحبة وتشبههما جدا. لا ادري ان كنت قد خفت في تلك اللحظة ام حزنت، ولكنه بالتأكيد شعور غريب ومبهم ويشبه النار يصعد من اسفل جوفي الى حلقي، تهاويت على السرير وراحت الأفكار تدور في رأسي مثل زوابع. ماذا افعل؟ لقد جردني من كل شيء في تلك اللحظة، من صمتي، من مشاعري، من وجودي، ماذا فعلتُ بنفسي، بل ماذا فعل بي هذا الصمت، كيف سأعيش الان مع هذا الكم من الوجع، وهذا البيت الذي اصبح فجأة خيمة متهرئة في العراء. كنت احدق في سقف الغرفة ومر الوقت وانا اشعر بالشلل، لست ادري كم مضى علي وانا هكذا ولكني فجأة تذكرت شيئا، تذكرت صندوق امي، الصندوق الخشبي المزين بصور ملونة بنحت بارز، نهضت سريعا الى الخزانة واخرجته، كم كانت بي حاجة الى ان احتمي بأمي في تلك اللحظة، كان الصندوق مليئا بالصور والأوراق التي بدأت اتفحصها واحدة بعد الأخرى، صورة صورة وورقة بعد ورقة.. كل الصور كانت في حديقة البيت، مع امي وابي وجدتي. وكأني اخذ من كل صورة شعاعا يضمد جرحي. في تلك اللحظات التقطت عيني كومة مفاتيح في حلقة قديمة، كانت المفاتيح تلك للبيت الذي سكنته مع جدتي، بيت جدتي، لماذا لم افتح هذا الصندوق سابقا؟ خالجتني مشاعر كثيرة متناقضة، لكن روحي استكانت واطمأنت لفكرة واحدة: هل كان علي ان امر بكل ذلك الألم حتى اكتشف باب حريتي؟

سحبت حقيبة صغيرة من تحت السرير وضعت فيها قطعتين من ملابسي وصندوق والدتي. غيرت ملابس البيت باخرى للخروج. نظرت الى نفسي في المرآة، شعرت ان لوني، لون وجهي وشعري وحتى ملابسي تشبه ذلك البريق الذي تحدثه الشمس بين طيات الغيوم بعد يوم ماطر، وقفت عند باب غرفة النوم وانا احمل حقيبة خفيفة للرحيل، كان الممر من باب غرفة النوم وعبر الصالة الى باب البيت ومن ثم الى الشارع طويلا جدا، إلا ان الزجاج العلوي للباب غمر روحي والممر بالضوء.

*** قاصة وكاتبة مسرحية من بغداد**

(بعد فوات الأوان)
مسرحية منسية ليوسف العاني

أ. بدران

لا يمكن الحديث عن المسرح العراقي من دون المرور باحدى قاماته الكبيرة، الا وهو الفنان الراحل يوسف العاني (1927-2016). ويذكر المسرحيون وجمهور المسرح مسرحياته: ست دراهم، المفتاح، اني امك ياشاكر، راس الشليلة، الجومة، الشريعة، الخرابة، الخان، صورة جديدة، نجمة، الغذاء لا الدواء، فلوس الدوة.. وغيرها، سواء ماكان منها منشوراً أو تم عرضه، ذلك أنها ظلت راسخة في اذهان الجمهور المتلقي بأطيافه وذائقته وثقافته وانتماءاته المختلفة. كما أن يوسف العاني، اعتمد الانطلاق من قاع المدينة، ومن جذور المجتمع المسحوق، ليسهم في تبني ابرز قضاياه الاساسية والملحة، ليس بهدف تشخيصها حسب، وانما توعية الجمهور بها لإيجاد حلول لها..

وهي رسالة وطنية وانسانية طبعت مسرح العاني، ثم اخذت تشمل هوية المسرح العراقي عموماً.

ومن هذا الموقع الذي ظل يوسف العاني يشغله كاتبا وممثلا، بات الاهتمام بنصه المسرحي غير المعروف (بعد فوات الاوان) والذي كشف عنه صديق العاني الأثير الاستاذ عبدالله حبه - العراقي المقيم حاليا في موسكو - والذي كان العاني قد

كتبها في سجنه اثناء اعتقاله عام 1963 واكملها في بيروت بعد اطلاق سراحه، وأرسلها للاستاذ عبدالله حبه، مكتوبة بخط اليد لغرض تقديمها من قبل فرقة المسرحيين العراقيين الذين كانوا يدرسون في موسكو - حسب حبه - وظل النص منسياً، ولا يعتقد ان العاني كان يملك نسخه منه..

ينطلق نص هذه المسرحية من شخصية (مقداد) الذي أهدي اليه النص و(مقداد)

شقيق الشاعر الراحل: رشدي العامل، وكان قد اصيب بمرض السحايا واصبح أصم وأبكم، مع انه تشكيلي ومسرحي ويجيد عدة لغات، وكانت امنيته تمثيل شخصية (خالد) الاصم والابكم في هذا النص.

المسرحية مكتوبة باللهجة البغدادية الواقعية التي يفضل العاني كتابة معظم مسرحياته بها لغرض ايصالها الى المتلقي سواء كانت مكتوبة او معروضة.

وكان الانطباع الاول للنص اليومي بان العاني سيتناول تجربته في السجن وذلك عن طريق ما كتبه: (كانت الجدران تضيق بنا، كان البعض يتساءل دائماً: لماذا نحن معكم، ويردد اخرون: ليتنا كنا مثلكم، ليت مافعلتموه أنتم فعلناه نحن، إذاً لكنا جديرين بمشاركتكم هذا المكان).

وهي طريقة كانت تعتمدها السلطة السابقة بزج عدد من المجرمين مع المعتقلين السياسيين بهدف الاساءة اليهم.

إلا ان يوسف العاني، انطلق نحو حدث اخر، اراد به ادانة الدكتاتورية عن طريق ادانة (الاب) الذي كان سبباً في تدمير حياة ابنه الأصم والأبكم (خالد) والذي احب ابنه الجيران (غنية) وحلمه الزواج منها إلا ان هيمنة الاب حالت دون ذلك، والامر نفسه يتخذه الاب ضد ابنه الكبير (عدنان) حيث يمنعه من الزواج من زميلته في الكلية (وداد) لأن والدها كان يكتب التقارير ضده.

كان الاب، ينظر لابنه الأصم والأبكم بانه (معتوه) وكان يكتفي بتوفير الطعام والملبس له، وهذا يكفي باعتقاده.

في نهاية النص، تدهورت صحة عدنان، فيما كان الاب يتوسله للعيش والاستجابة لكل ما يريده.

إلا ان الاوان كان قد فات بموت عدنان..

ولا سبيل لمعالجة ما جرى معه من مآس كان سببها طغيان (الاب/ الدكتاتور)

وكان من الحكمة تطوير شخصية كاتب التقارير (والد وداد) وادانة سلوكه، مع امكانية تأثير وعي عدنان و(الفرز) بين هذا الوالد وابنته واقناع والده بذلك.

لكن المؤلف عبر هذا المشهد من دون معالجة، وهو الأمر الذي جعل القرار الحاسم للأب قراراً تعسفياً اكثر منه قراراً قائماً على تشخيص وادانة كاتب التقارير ذاك.

كذلك نجد ان انقلاب شخصية الاب من جبروته وقسوته وهيمنته الى انسان يتوسل الحياة لإبنه تنطلق من زاوية العاطفة الابوية اكثر مما هي ذهنية قمعية تعرف طبيعة اساليبه التقشفية .

مع ذلك يبقى هذا النص الذي كتبه يوسف العاني في بغداد وبيروت ما بين عامي (1963-1964) من بين النصوص الواقعية التي تشكل بصمات العاني الحريصة على تقديم مسرح عراقي ينتمي الى المجتمع.

ولعل المبادرة التي قدمتها مجلة (الثقافة الجديدة) بنشر هذا النص في كتاب مستقل صادر عن دار الرواد المزدهرة 2020/ بغداد، مصحوبا بتقديم من الاستاذ عبدالله حبه، وقراءة : د. جبار خماط، الى جانب ملحق ضم عدداً من المقالات التي كتبت عن العاني والتي ساهم فيها: ا.د. عقيل مهدي يوسف، د.سعد عزيز عبد الصاحب، د.مظفر الطيب، كافي لازم، روميو يوسف، طه رشيد، تعد شهادات بحق هذه القامة المسرحية العراقية الأثيرة والراسخة في الذاكرة.

ندوة تكنولوجيا المعلومات وأسئلة تجديد الفعل الثقافي

اقامت الجمعية المغربية والإستراتيجيات الترابية بمشاركة جمعية الرافدين العراقية بالمغرب يوم السبت 10 أيلول 2020 ندوة بعنوان (تكنولوجيا المعلومات وأسئلة تجديد الفعل الثقافي)، ادارها المهندس مثال عبد الوهاب والاستاذ الجامعي جواد دابوني. وشارك فيها من المغرب الأستاذ الجامعي حمادي كيروم والناشط الثقافي ضمير العاني. ومن العراق الناشط المدني فاروق فياض، ومن السويد الإعلامي رشاد الشلاه.. في ادناه الأسئلة التي طرحت خلال هذه الندوة، واجوبة فاروق فياض ورشاد الشلاه عليها.

سؤال للأستاذ فاروق: ما مدى ارتباط الثقافة في عصر التكنلوجيا في هيمنة الصورة والنزعة الاستهلاكية؟

- لم يبلغ دور للإعلام المرئي كما بلغه في ظل العولمة من خلال ثورة تكنولوجيا المعلومات والاتصالات وانتشار الفضائيات، مما دعا بعض الخبراء بالقول إذا كان القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين هو بداية عصر المواصلات التي قربت المسافات، فان النصف الثاني من القرن العشرين وما سيأتي في المستقبل هو بلا هو منازع عصر الاتصالات، مما يعزز قوة وتأثير دور الفضائيات وتغطيتها لمجمل احداث العالم حاضرا ومستقبلا، بدا بشكل الاعلام المرئي للباحثين بأن يقولوا بان هناك الثقافة الجديدة التي هي ثقافة الاعلام المرئي حيث تحولت البشرية من ثقافة شفاهية الى المكتوبة ومنها الى راهنا، الى ثقافة الصورة، وهذا ما يدلل على تراجع القراءات والاقبال على الاعلام المقروء: الصحف، المجلات، الكتب، وليس فقط في وطننا العربي وانما هي ظاهرة عالمية لتأثير دور الصورة ودور الفضائيات، مما يعطي فرصة للنقاش وتعدد الآراء وجدل الأفكار والتأمل وبذل الجهد، بينما ثقافة الصورة في ظل العولمة عرضة للاحتكار من قبل رأس المال المعولم فهي تطرح رؤيا احادية، وتمارس التلقين وتدعو الى الاتكالية مما يطرح من اخبار او برامج تبدو انها تعكس الواقع، ونستطيع ان نقول لأول مرة لم يعد الاعلام ينقل الاحداث ويروي الوقائع بل اصبح يصنعها، فالأخبار هي اساسا ما يقدمه المراسلون على عجل من خلال شاشة التلفزيون، اختيارا وانتقاء وعرضا وتركيزا وتضخيما او تحجيما. اي ان الاعلام يساهم في التأثير على الاحداث.

السؤال الذي نستطيع ان نطرحه لمصلحة من يؤثر الاعلام بصيغته المرئية على صناعة المواقف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية؟ لا اعتقد بان الجواب بحاجة الى المزيد من العناء حيث اننا نكتشف أن من يمتلك هذه الوسائل العملاقة الاعلامية والشركات الكبيرة، يستطيع ان يروج ما يريد، مما يتطلب دراسة تأثير الاعلام المرئي حاضرا ومستقبلا، وفي فهم دوافعه المباشرة وغير المباشرة المعلنة والخفية من خلال ما يعرضه وبذلك نستطيع تكوين رؤيا نقدية لأهم وسائل الهيمنة الرأسمالية في ظل العولمة وهذا ما يؤكد مسعى القوى السياسية والمالية المحموم، لأجل امتلاك وسائل الاعلام المرئي عالميا واقليميا ومحليا، وطرق الاستفادة من المنجز التكنولوجي في تقنية المعلومات والاتصالات. ومن خلال ما يطرحه الاعلام المرئي نستطيع ان ندرج الاخبار التي تحاول المؤسسات الاعلامية وفي الصورة ان تبرزها، ما تريد من هذه الصورة، لذلك اصبحت عملية نقل الاخبار هي عملية منزوعة عن نسقها التاريخي، وكأن كل حدث هو حدث في ذاته غير مرتبط تاريخيا بأحداث، وغير مرتبط بالمستقبل، فلذلك انتزاع هذه الاخبار وكأنها اخبار في حد ذاتها، ولذلك معظم الاحداث التاريخية او معظم الاحداث السياسية التي يتم نقلها كأنها تنقل على شكل كوارث طبيعية. اي ليس هناك ما هو المسبب، وما هي الآثار والنتائج على هذه السياسات. هذا من ناحية الاختزال الكبير من خلال الاخبار. ثم ما يغري بالقول ان وظيفة وسائل الاعلام بالذات ليست سوى دفع الوقائع الحاضرة في الماضي بأسرع وقت ممكن، وبالتالي لا يصبح هناك وقت للتفكير والتحليل والتبصر والاستيعاب، ثم اتخاذ الموقف وهو المطلوب. لهذا عبّر عنها الفيلسوف فريدريك جيمسون ان احد ابرز سمات الاعلام المرتبطة بظهور الرأسمالية الاستهلاكية، متعددة القوميات، هو اختفاء التاريخ؛ فالنظام الاجتماعي بأكمله بدأ يفقد شيئا فشيئا قدرته على الاحتفاظ بماضيه. هو ذاته كأنه يعيش في حاضر ابدي. الماضي القريب يصبح تاريخا بعيدا، مما يطمس المرجعيات الاجتماعية. وكأن وسائل الاعلام لا تقوم سوى بقتل الاخبار. اهم القضايا الانسانية سرعان ما تصبح قديمة، ويطويها تلاحق الاحداث، وبذلك تضيع المسببات الفعلية للأحداث السابقة، والمسببون، وفصل الأحداث القادمة، وكأنها بنت ساعتها. لذلك اشار الباحث في المجال الاعلامي الدكتور محمد السيد أستاذ الإعلام المتخصص في أبحاث الإعلام الأمريكي المرئي 2004، إلى دراسة حول الإعلام التلفزيوني خلال حرب الخليج الثانية (1991)، أظهرت انه كلما زادت مشاهدة الجمهور لقناة cnn التي احتكرت تغطية تلك الحرب، وبنت شهرتها عالميا على تلك التغطية الحية، كلما قلت معرفتهم بحقائق الصراع الفعلي.

لذلك تم اختزال عملية الحرب وعملية اختزال الشعب او الامة او الوطن بشخص ديكتاتور معين، واهملت عملية الخسائر الكبيرة وفظائع الحرب. والجانب الاخر هو

ما اطلق عليه بمفهوم التسلية والاثارة. وقد عبّر عنه المفكر الاستراتيجي الامريكي بريجينسكي بشكل دقيق على انه رضاعة التسلية من خلال البرامج التي تبثها وسائل الاعلام المرئي مثل الفوازير والبرامج الترفيهية، واصبحت فلسفة تجارية من اجل ترسيخ النزعة الاستهلاكية، وبالذات التوجه الى الشباب وترسيخ مهمتين رئيسيتين لهذه التسلية؛ اولا هدر الوعي وتزييفه من جانب. والجانب الآخر هو ترسيخ النزعة الاستهلاكية. وعندما يتم ترسيخ هذه النزعة الاستهلاكية لدى جمهور كبير، ستتغير القيم الاجتماعية لتصبح كم هي قدرة الفرد على الاستهلاك، أي كلما زادت قدرة الفرد على الاستهلاك كلما كانت له القيمة الاجتماعية المطلوبة، ولذلك استبعدت عملية الانتاج والاداء والعمل والاخلاص والثقافة بمفهومها الواسع، لان القيم الاجتماعية اصبحت مقترنة بكمية الاستهلاك للفرد هذا من جانب. وقد حاول الاعلام المرئي ان يمزج او ان يصبح الاعلام مساويا للإعلان، ولقد وجدت غايتها وسائل الاعلام الكبيرة من خلال كرة القدم التي يتابعها جمهور كبير. لهذا اصبحت ادارة هذه المباريات الكبيرة من قبل شركات كبيرة هي التي تعتمد ادارة هذه المباريات، من اجل ان تكون هنالك كمية اعلان كبيرة جدا. ومن ضمن الاشياء المهمة التي قد تكون هناك كنظرة انه ينظر الى الاعلام الذي يحمل صفة الثقافة الاستهلاكية والاعلام المرئي لبرامج الفضائيات الاصولية الدينية او العرقية، انهما على طرفي نقيض؛ اي ان الاعلام صاحب الثقافة الاستهلاكية الذي يروج عمليا سياسة السوق الحرة والخصخصة، وللعولمة وللرأسمالية بصبغتها الليبرالية الجديدة، كأنه على طرفي نقيض، مما تدعو اليه المرئيات الأصولية، لكن في حقيقة الأمر هناك عدة مشتركات ما بين الاعلام المرئي الاصولي والاعلام المرئي الاستهلاكي؛ كلاهما يشترك في مواقف محددة. وكلاهما يقوم بعملية تزييف وعي وخاصة المبعدين عن السلطة. وهناك من يبحث عن اولويات خارج الاولويات الاجتماعية، وبالذات كلاهما يسعى الى نزع شرعية الدولة الوطنية. وكلاهما لديه موقف محدد من المرأة: الاعلام الأصولي بسيطرته واستعباد وتهميش دور المرأة بالمجتمع. بينما يقوم الاعلام الاستهلاكي بتحويل المرأة الى سلعة من خلال الدعايات، وان تكون رمزا للإثارة. ومن خلال الافلام الاباحية ومن خلال اثارة الغرائز. كذلك كلاهما يعتمد على النظرة الأحادية، فيتخذا موقفا من المستقبل، ثقافة الاستهلاك التي تعمد الى تعزيز النزعة الفردية على حساب الجماعة. يقوم الاعلام الاصولي بتذويب هذا الفرد في الجماعة وفصله. اي لا يكون له اي دور كفرد، كذلك نستطيع القول إن الثقافة الاستهلاكية معنية بالحاضر اللذوي، والمتعة الآنية وهي غير معنية بالمستقبل. اما الاعلام الاصولي فيقوم أيضا بنفي دور المستقبل والرجوع الى الماضوية والتقوقع في الماضي. اعتقد ان الاعلام المرئي ولخطورته لا نستطيع ان نقول هناك اعلام محايد في ظل العولمة. الاعلام من اهم

وسائل الهيمنة سابقا وحاضرا ومستقبلا، فلا يمكن بالتالي فصل الاعلام المرئي عن الغايات السياسية والاقتصادية والاجتماعية داخل المجتمعات. بالإضافة نستطيع ان نقول ان هذا الاعلام يتفاعل مع مواقع التواصل الاجتماعي ويؤثر بها ويتأثر ايضا، فلذلك لا نستطيع ان نقول ان هناك جزرا معزولة ما بين مواقع التواصل الاجتماعي الفيس بوك، التويتر والانستغرام، وبين ثقافة الصورة؛ فكلاهما متداخل ومتشابك، مؤثر أحدهما بالآخر.

السؤال الآن للأستاذ رشاد الشلاه: ما هو تأثير تكنولوجيا المعلومات الإيجابي والسلبي في الفعل الثقافي؟

- من البديهي التأكيد على أن كل منجز علمي جديد يمكن تسخيره بما هو نافع وضار في آن، والتطور العاصف في وسائل الاتصال الرقمية ليس استثناء. وبالعودة الى أحد تعريفات الثقافة كونها كل ما صنعته يدا الإنسان وعقله. أي كل ما اخترعه الإنسان وما اكتشفه، وكان له دور في العملية الاجتماعية. أي أن الثقافة تشمل: اللغة، العادات، التقاليد، المؤسسات الاجتماعية، المفاهيم، الأفكار والمعتقدات، التراث.. إلى غير ذلك مما نجده في البيئة الاجتماعية من صنع الإنسان وقد توارثه جيلا بعد جيل، وفي ظل عالم العولمة الحالي لا بد من خضوع تراثنا إلى مراجعة شاملة، وهذا ما أراه ضروريا لأن إعادة النظر بالتراث يعني تخليصه من كل ما هو مسيء للإنسانية. وبذات الوقت فأنه من الطبيعي أن يرفضه أولئك الذين يستخدمون التراث كسلاح إيديولوجي من اجل الدفاع عن الهوية القومية.

لقد فتحت التقنية الرقمية آفاقا رحبة للغاية، امام نشر المنتج الثقافي، وإن كانت هذه الآفاق افتراضية:

أولا- عبر إمكانية الاطلاع عليه ما دام للمتلقي أداة هذه التقنية أي أجهزة الاتصال وفي أي مكان في العالم.

ثانيا - لقد تحرر المنتج الثقافي من سلطة الرقابة التي تمنع صدوره أو تكييفه لينسجم مع ارادات سلطة الرقيب، وهذا جانب إيجابي، ولكن السلبي فيه هو استسهال عملية النشر لمنتج قد لا تتوفر فيه مواصفات الرصانة.

ثالثا - وفرت هذه التقنية تشكيل مجاميع حسب الاهتمامات المشتركة، ومنها تشكيل مجاميع تهتم بالشأن الثقافي العام، وكذلك مجاميع لمعنيين بأحد فروع الثقافة الأخرى المتنوعة كالكتاب والفنانين التشكيليين والسينمائيين والمسرحيين.. الخ، وهذا ما يساعد على توطيد الصلة بين عدد من المنتجين وتبادل الآراء وطرح محاور للنقاش في ما بينهم. ومن شأن هذا إثراء السجال بين اوساط المثقفين.

رابعا - توسيع وتعزيز الصلة بين المثقف وبين قرائه أو مريديه، من خلال التواصل معهم عبر الحوار والاجابة على اسئلتهم. وهذا التواصل أو التفاعل يخلق تأثيرا متبادلا بين المثقف وجماهيره.

خامسا - سهلت هذه التقنية لقاء المثقف بالجمهور افتراضيا، وقللت من كلفة اللقاء

المادية الى حد كبير، فلم يعد أمرا ملحا عند أعداد لقاء ما توفيرُ قاعة مناسبة واجراءاتُ سفر بسبب التباعد الجغرافي للمتحدث او المتحدثين، حيث يمكن اتمامها على غرار ما يُلجأ اليه الآن في طريقة القاء المحاضرات في الدراسة عن بعد. على الرغم من أن التفاعل الواقعي أثناء اللقاء المباشر بين الأشخاص أكثر حرارة من اللقاءات الافتراضية، ولكن للضرورة أحكام كما يقال.

سادسا - لما كانت ثقافة الكلمة تحتاج الى اجهاد العقل ومن ثم ابحار المتلقي في رسم المتخيل مما يرمي اليه الكاتب وقد لا يوفق في الانسجام مع هدف الكاتب، لكن النص المعزز بالصورة يرسخ هذا الانسجام لدى المتلقي عندما تقترن الكلمة بالصورة، وهذا يبرز عند العرض النقدي للأعمال الفنية، حيث تتيح هذه التقنية نشر عدد غير قليل من الصور وبجودة عالية.

سابعا - تمتاز هذه التقنية بسهولة وسرعة عرض المنتج الثقافي لتتجاوز عقبات فترات انتظار انجاز الطباعة والشحن والتوزيع.

ثامنا - محركات البحث بدقة لافتة، وهذا يعين أي مثقف على كشف من يسرق نتاج غيره، فتكفي جملة واحدة في أي نص للعثور عنى مكان وزمان نشرها، وهذا ما يحد من الاعتداء على الحقوق الأدبية للمثقف وبالتالي صونها.

تاسعا - يقول الفيلسوف والكاتب الكندي مارشال ماكلوهان «إن الوسائل الالكترونية تجعل الاتصال سريعا، لدرجة أن الشعوب - على اختلاف مواقعها في العالم - تنصهر في بوتقة واحدة، وتشارك بشكل عميق في حياة الآخرين. والنتيجة كما يرى ماكلوهان أن الوسائل الإلكترونية تقضي على الفردية والقومية، وتؤدي الى نمو مجتمع عالمي جديد. وبهذا المعنى فان هناك من يقول إن شيوع هذه التقنية سيؤدي الى سيادة ثقافات الدول والمجتمعات المالكة لهذه التقنية على ثقافات الدول والمجتمعات الأدنى منها علمياً وتكنولوجياً. وبالتالي تشكل تهديدا لخصوصية الثقافة الوطنية والقومية.

عاشرا - تعاني مجتمعاتنا بشكل عام من الخلل في ثقافة الحوار، وكثيرا ما يقمع المثقف بدل الحوار معه، بل وصل القمع حد التصفية الجسدية للمثقفين وهذا ما حدث في تصفية حسين مروة ومهدي عامل العام 87 في بيروت، وفرج فودة العام 92 في القاهرة، وكامل شياع العام 2008 في بغداد. ووسائل الاتصال الحديثة وفرت للمواطن العربي فرصة إضافية لمشاهدة جملة من فعاليات حوارية ثقافية، تدار بأسلوب حضاري ويتجلى فيها احترام الآخر ووجهة نظره. اسلوب خال من الصراخ أو الاعتداء اللفظي أو البدني، أيا كانت نقطة الاختلاف في وجهات النظر بين المتحاورين.

سؤال آخر للأستاذ رشاد الشلاه: في ظل العولمة وسطوة تكنلوجيا المعلومات كيف يمكن للمثقف ان يستثمر امكانيات تكنولوجيا المعلومات في ابداع ونشر فعل ثقافي متميز وسط طوفان المعلومات وقوة الصناعة الثقافية المحكومة بالبنيات الاقتصادية الراهنة؟

- كما أشار الاخوة المتدخلون الى أهمية وخطورة هذه التقنية، أصبح واضحا أن تقنية المعلومات هي فرصة ذهبية ورخيصة لاطلاع المتنوع، ناهيك عن أي قارئ آخر وقد وفرت تقنية المعلومات فرصةً ذهبية ورخيصة لاطلاع المثقف، ناهيك عن أي قارئ.. للاطلاع على كم غير محدود من المنتج الثقافي المتنوع. وكما نرى اليوم فان شبكة المعلومات توفر آلاف الكتب والإصدارات الرقمية وبلغات عالمية عديدة.. وهذه الميزة لم تكن متوفرة قبل ظهور الانترنيت، وعدم توفرها كان عائقا جديا أمام توفر مصادر الثقافة وتنوعها عندما كانت تدون ورقيا. كما ساعد توفر خدمة الترجمة الفورية الرقمية من وإلى عشرات اللغات العالمية رغم عدم الدقة المطلوبة فيها، في إمكانية اطلاع الباحث على مصادر مهمة لثقافته لا تتوفر في لغته الأصلية.

ولم توفر تقنية المعلومات الحديثة المطبوعات الورقية بشكل رقمي فقط بل وفرت وبجودة عالية الصورة والأفلام والموسيقى، وكذلك النقل المباشر للفعاليات الثقافية المختلفة وتوثيقها فلميا وإمكانية العودة للاطلاع عليها في أي وقت كان. وهذا الانتشار الذي يمكن ان نسميه انتشارا بلا حدود، اوجب على المنتَج الثقافي أن يكون متميزا، حيث لم يعد محصورا في مدينة او بلد ما، بل يتم الاطلاع عليه وتقويمه ونقده في العديد من البلدان، بمعنى الانتشار عالميا.

كان المبدع بشكل عام قبل ظهور الانترنيت يعاني من إشكالية تسويق انتاجه بسبب العائق المالي او صعوبات لوجستية، وكانت هذه الإشكالية كثيرا ما تصيب هذا المبدع أو ذاك بالإحباط وربما العدول عن اصدار منتجه الثقافي.

إن توفر خدمة اللقاء عبر الخدمة الرقمية كما هو الحال في مثل هذا اللقاء اليوم، تشجع المبدعين على تنظيم لقاءات متنوعة كمناقشة صدور ديوان شعر او رواية او مسرحية او كتاب معني بشأن ثقافي ما، عبر الدعوة الى مشاركة عدد من المهتمين في بلد واحد او عدة بلدان، ولا بد أن تحقق مثل هذه اللقاءات تقاربا وفهما أعمق بين المشتركين، وكذلك توفر فرصة للاطلاع على منتج ثقافي من قبل جمهور المتلقين في أي بلد ما كانوا.

ولا تقتصر الفائدة على تحقيق التقارب بين المبدعين والاطلاع الواسع على نتاجاتهم. بل تحقق شيوع المنتج الثقافي، وتحديدا بين أوساط الشباب، في الوقت الذي نلاحظ فيه عزوفا عن قراءة المنتج الثقافي الرصين والميل الى ما هو سطحي أو هابط مما يطرح اليوم في الساحة الثقافية عموما. والعزوف عن القراءة في مجتمعاتنا العربية الفقيرة والغنية أزمة عامة لها أبعاد تربوية واجتماعية وسياسية واقتصادية، وما عمق هذه الأزمة وصار أحد اسبابها انصراف الشباب الى وسائل الاتصال الجماهيرية.

لذلك من الضروري استثمارُ هذه الوسائل للوصول الى المتلقي الشاب وتزويده بالمواد الثقافية الراقية عبر إقامة مختلف الفعاليات الثقافية وبأسلوب يجمع ما بين النخبوية

والاهتمام الأعم بالمنتج الثقافي، وهذه مهمة ليست سهلة ولكن المباشرة فيها وتكرارها لا بد لهما من أثر ايجابي بين أوساط الشباب. اذن على المنتِج الثقافي السعي الى الوصول للمتلقي بالوسيلة المرغوبة لديه، وأعني قطاع الشباب حيث تشير دراسات عديدة الى تضاؤل دور الكتاب والصحف الورقية كأحد مصادر تشكيل ثقافة الشباب لصالح منصات التواصل الاجتماعي، ما دفع أصحاب دور النشر والصحف الى اللجوء الى الإصدار الرقمي بدل الورقي أو كليهما للحفاظ على تواصلها مع الجمهور المتلقي.

ملاحظة أخيرة.. رغم الدور الفاعل والمؤثر لتكنولوجيا المعلومات في حياتنا الى أن استثماره على المستوى الرسمي الحكومي في إشاعة مستوى ثقافي معقول في مجتمعاتنا محدود جدا للأسف.

سؤال للأستاذ فاروق فياض: هل يسهم المنتج الثقافي عبر وسائل التكنولوجيا الجديدة في إعطاء الثقافة مفهومها المطلوب؟ ومدى مساهمة هذه الوسائل في تنمية الثقافة وما هو المطلوب من المثقف في سبيل ان ينتزع هذا الوقت الضائع بالنسبة للشباب؟

- تحدث الاخوة عن ان الثقافة بصفة عامة كأنها شيء مجرد عن الواقع لكنه من المؤكد لا توجد ثقافة واحدة. هنالك ثقافات متعددة وهذه الثقافات لها جذورها في ارض الواقع والصراع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي أيضا، فليس هناك ثقافة واحدة يمكن الحديث عنها وليس هناك ابداع واحد يمكن الحديث عنه. في كل جزء هنالك ابداع وصيغ جمالية معينة تقود الى العزلة او الذاتية أكثر مما هي تقود الى الجانب الاجتماعي والمواقف المهمة الاجتماعية والسياسية في لحظة تاريخية محددة.

بالنسبة للثقافة علينا ان نربط أيضا بين الثقافة والمؤسسات التعليمية. للأسف اغلب المؤسسات التعليمية وبمناهجها وطرق تأثيرات الدولة على هذه المناهج، نجدها ترسخ جانبا من العقل النقلي. أي انها لا تضع منهجية للعقل النقدي. المؤسسة التعليمية بدءا من المراحل الأولى، وحتى المراحل الجامعية تساهم بشكل او بآخر في عملية خلق شكل من اشكال التفكير، بما تتطلبه سلطة او حكومة او دولة محددة. وهذا يؤثر بدوره في التناول الثقافي والجمالي أيضا، أي ان الثقافة لا تكون معزولة عن المؤسسة التعليمية في جميع مراحلها، أما عن موضوعة الترويج الثقافي فقد تحدثنا عن تأثير دور ثقافة الصورة وثقافة الاستهلاك. صحيح أصبح المجال مفتوحا امام المثقفين، في مجال نشر المنتج الثقافي، من خلال مواقع التواصل الاجتماعي، لكن بشكل موازٍ هناك قوة تأثير أخرى يجب ان تؤخذ بنظر الاعتبار في ثقافة الاستهلاك، مما يزيف ويعرقل الوعي الجمالي الثقافي، لهذا على سبيل المثال ممكن ان تجد مشاهدة لأغنية كلماتها بائسة ومضرة اجتماعيا وموسيقيا وأدائيا، لكن تجد نسبة المشاهدة لها عالية جدا مقارنة بمشاهدة تسجيل معين لقصيدة شاعر معروف، فيها رؤى جمالية

وفنية عالية، لكن نسبة مشاهدتها ضئيلة.

لهذا هناك أيضا حصار للمثقف في ظل تسيد الفضائيات وثقافة الصورة. هو أيضا أصبح فيه حصار ما بين هذا السائد، وما بين الفعل الثقافي الجمالي والهادف والذي يعني بهموم المجتمع بقدر ما ان هناك كما كبيرا من عملية التلقين التي تدار من قبل وسائل الاعلام المرئية، والتي تؤثر شئنا او ابينا في عملية وعي الشباب خاصة. وكما ذكر بعض المتداخلين، بضرورة التوجه الى الشباب بأن وسائل الترفيه والتسلية ورضاعة التسلية كما تسمى تؤدي الى هدر الوعي أيضا. هذه الوسائل من التقنيات، ومن استخدام العلوم والتكنلوجيا بدقة، توصل الصورة بشكل غير قابل للنقد، كأنها أصبحت كما يسمى بالإيمان الديني غير القابل للنقد والتفكيك والتحليل، والى اين تؤدي بنتائجها المباشرة، فلذلك ممكن ان تكون هذه التقنيات في مراحل معينة استطاعت المساعدة في تنظيم جزء كبير من الحراك الاجتماعي حتى في الانتفاضات التي حصلت في المنطقة العربية. كان هناك دور كبير لمواقع التواصل الاجتماعي التي لم تكن عليها الرقابة، مثلما يمكن ان تأخذ في المستقبل، في ظل حكومات معينة، تخدم طرقا من طرق الاستبداد، فلذلك التكنلوجيا سلاح قد يكون ذا حدين في عملية استخدامه من قبل المؤسسات والشركات المحتكرة لهذه التكنلوجيا. وممكن ان يكون هناك دور للمثقف. وهنا المثقف الذي لا يكون تابعا للسلطة او تابعا للأصوليات أي المثقف التنويري. علينا ان نميز بين ثقافات متعددة فليس هناك ثقافة واحدة، أو شكل واحد لها، وهي تنتمي بشكل او بآخر الى أيديولوجيا بشكل مباشر او غير مباشر. ذكر الأستاذ حمادي قبل قليل مستشهدا بما قاله نيتشه برفضه جزءا كبيرا من عملية التمردات، وعاد للثقافة الاغريقية. هذا الطرح بحاجة الى نقد، فليس الارتهان الى العدمية في الثقافة، ويجب ان تؤخذ هذه الثقافة في مراحلها التاريخية المحددة، ضمن فتراتها المحددة، وكيف ينظر المثقف الآن الى المراحل التاريخية القريبة، على سبيل المثال في العراق وخلال الفترة الأخيرة هناك حدث تاريخي وطني وهو ثورة 14 تموز 1958، هذا الحدث اختلف المثقفون بشأنه، منهم من وضعه في مصاف المسبب لما آل اليه الوضع في العراق، وشهدت مواقع التواصل الاجتماعي جدالا كبيرا حوله وهجوما على هذه الثورة ومنجزاتها أيضا من قبل مثقفين، فبالتالي لا يمكن ان نعتمد على ان الثقافة بحيزها الفضائي الرمزي، غير مقطوعة الجذور مع صلتها بحاضرها، وبالتاريخ البعيد او القريب.

اذن، لا توجد ثقافة واحدة يمكن الركون اليها. هناك ايضا ثقافة مضادة لما هو تقدمي تنويري، وهذه أيضا تستخدم مواقع التواصل الاجتماعي. أي انها صراع أيضا داخل هذه المواقع، وداخل هذه الثقافات.

سؤال: يعتقد البعض أن المثقف يعيش عالما افتراضيا وأنه يفكر من خارج المجتمع، والحال أن الثقافة هي مرآة للمجتمع بإيجابياته وأزماته، والفعل الثقافي هو تفاعل واع مع المجتمع. أي المقصود ان

المثقف الآن هو مبتعد عن مشاكل المجتمع. أستاذ رشاد؟

- إجابة سريعة او اجتهاد.. لاحظ أننا غير متفقين على تعريف محدد. من هو المثقف؟ ولكن هناك من يضع المثقف في ثلاثة أصناف، مثقف كما يسميه «كرامشي» بالمثقف العضوي المنحاز والمدافع عن طبقة او فئة، والمثقف الساكت المنعزل الذي لا يعنيه شيء، والمثقف الآخر يجابه ويجاهر برأيه، ويتحمل ثمن هذه المجاهرة، كما اشرت في المداخلة السابقة ويتعرض للقمع والملاحقة وحتى التصفية، لكن المثقف سيموت ثقافيا اذا ابتعد عن واقعه، اذا لم يكن منحازا ولم يكن قادرا على فهم الماضي وترويض هذا الفهم للحاضر للمساعدة في فهم التحولات المستقبلية، كما نشير الآن الى هذه الثورة الرقمية التي لم تكن تخطر على بال أحد، كيف الآن غيرت بعض مفاهيمنا وأثرت حتى على البنية الثقافية بشكل واضح جدا.

فاروق فياض.. أود ان اطرح التساؤل الآتي:

في العالم الرأسمالي المتقدم نسبيا هنالك معرفة رقمية وهناك معرفة تقنية ومعرفة عالية في التكنولوجيا، لكن هذا لا يعني ان هذه المعرفة قد تصب في مراحل من اجل التطور الإنساني، ومن اجل ما هو يسير نحو العدالة والمواقف الإنسانية، لهذا نلاحظ ازدياد النزعات ضد المهاجرين في هذه البلدان، ورواج الخطاب الشعبوي واليميني المتطرف رغم ان هناك معرفة وهناك ثقافة تختلف تماما عما موجود في المنطقة العربية او في ما يسمى بالعالم الثالث أو الأطراف، رغم ما موجود من تقدم ومعرفة في هذه التقنيات لكن الآراء والافكار السائدة التي نشأت والتي روجت داخل المؤسسات الرأسمالية العالمية، وخاصة في ظل التمسك بالليبرالية الجديدة او ما سمي بالرأسمالية المتوحشة هنا علينا ان نفهم ما هو الموقف من التحالف بالنهاية، وهذه الانتفاضات وهذا ما حدث في العالم العربي يعتبر هو امتداد لرفض وهو نتيجة مباشرة لتطبيق سياسة الليبرالية الجديدة في المنطقة العربية في نهاية السبعينات وبداية الثمانينات خاصة في مصر وتونس، وجرى ترويجها من خلال المؤسسات الدولية: البنك الدولي وصندوق النقد الدولي.. اعتقد انه غير كاف عمليا التحصن من جانب الثقافة الرقمية وعملية انتشار هذه داخل المجتمع بقدر ما كيف تصوغ هذه البلدان مواقفها الاجتماعية مما يجري من عملية التصنيع الجاري في هذه البلدان وعملية موقعها داخل التقسيم الاجتماعي الدولي للعمل، وكيف تقاوم هذه التقسيمات الدولية للعمل وما هي طرق النضال ضد التحالف الطبقي المسيطر، داخل هذه الأنظمة والذي اصبح سائدا، حتى هذا الذي جرى بالنهاية هو ليس في عملية التطبيع التي ذكرت بين الكيان الصهيوني وبين دول عربية معينة لو نلاحظ بأن هذا الذي جرى هو يمثل بالنهاية مصالح تحالفات طبقية سائدة داخل المنطقة العربية تحت مسميات البرجوازية البيروقراطية او البرجوازية الطفيلية او الكومبرادورية المرتبطة مصالحها مع الرأسمالية المعولمة، اذا لم نعرف ان هذه التحالفات تتحمل

الأسباب الكارثية في المجتمعات العربية كالتهميش الاجتماعي، زيادة نسبة الفساد المالي والإداري وعملية انهيارات في الصناعة والزراعة.

من هذا المنطلق نسأل عن دور المثقف كما ذكر العزيز رشاد بأن المثقف العضوي هو الذي ينتمي لمشروع طبقي معين، ويناضل من أجل هذا المشروع الذي يؤدي بالنهاية الى دولة المواطنة، دولة العدالة الاجتماعية؛ فمن هنا يكون موقف المثقف ليس موقفا تجريديا او موجودا في برج عاجي، لهذا يمكن القول بغض النظر عن هذه الثقافة الرقمية وهذه الهيمنة الرقمية وهذه المعرفة حتى في الدول الرأسمالية ضمن الأيديولوجية المهيمنة في تلك البلدان بقيت حتى الآن هي ايديولوجيا الليبرالية الجديدة التي تؤثر بشكل او باخر على الحركة الثقافية داخل هذه البلدان لديها معترضون على هذه السياسة ونتيجة لجائحة كورونا وانكشاف الرأسمالية أمام الجانب الاجتماعي في مجانية الصحة والتعليم والضمان الاجتماعي التي تم تقليصها من سياسات الليبرالية الجديدة، فعلينا إعادة النظر بالمواقف والتحالفات الطبقية السائدة والتي تسعى الى ان تسود ثقافة معينة تخدم مصالح هذه الطبقات ولهذا ان هذه المصالح الطبقية لهذه التحالفات، هي التي تسعى الى ان يكون هناك ترويج لثقافة معينة كثقافة استهلاك ام ثقافة اصوليات، وفتح المجال امام هذه الثقافة و التصدي لثقافة المواطنة والعدالة الاجتماعية والتنوير.. يجب ان تؤخذ بنظر الاعتبار في كيفية النظر الى الثقافة في هذه المجتمعات، وما هي المواقف التي يمكن ان يتخذها المثقف العربي في ظل هذا الصراع الدائر ما بين الرأسمالية بهذا الشكل المتوحش وبهذه العنجهية وما بين مقاومة هذه الشعوب. ان انكار الايديولوجيا هو موقف ايديولوجي ايضا.